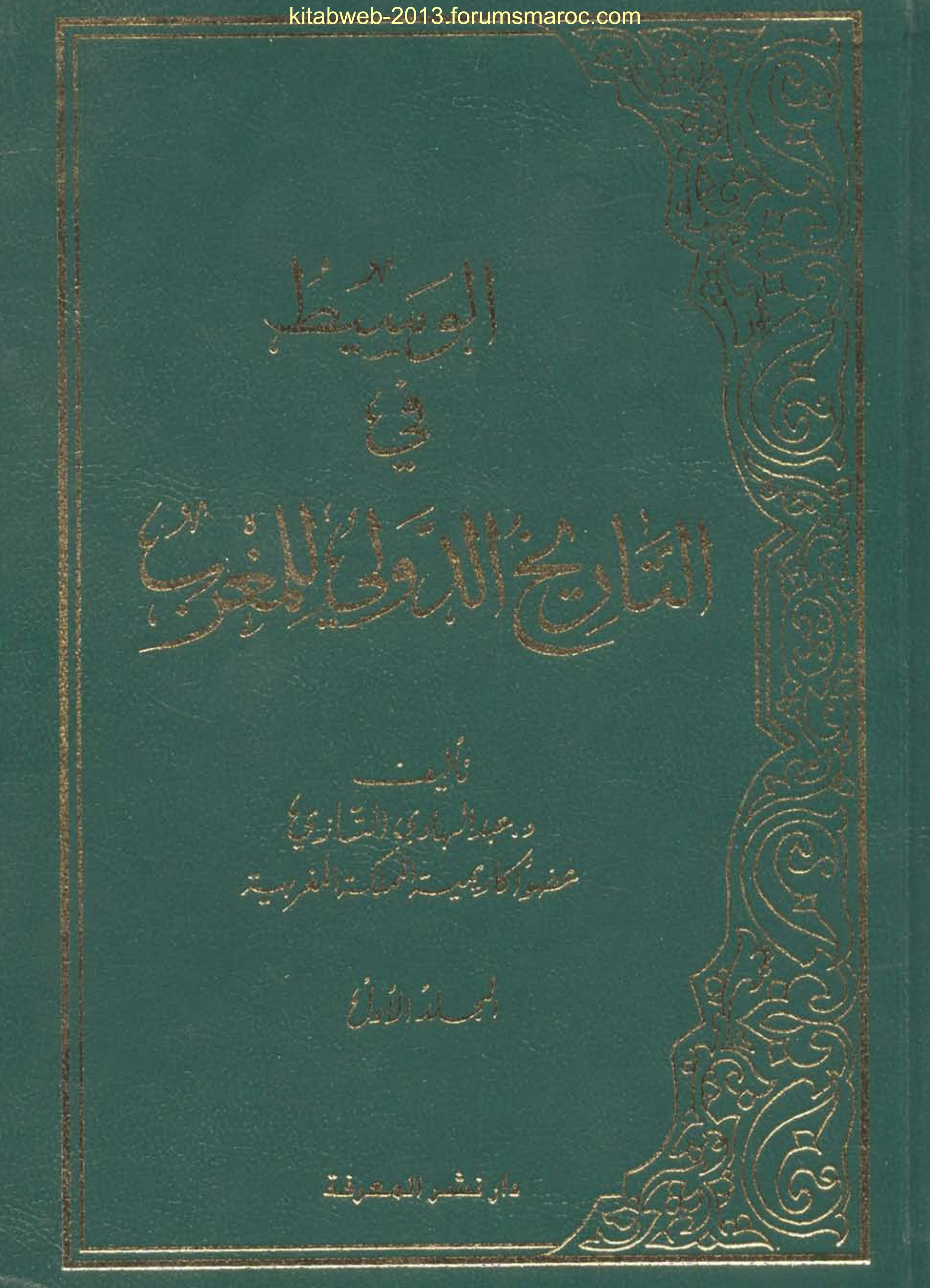

الوسيط
في
التاريخ الدولي للمغرب
تأليف
د. عبد الهادي التازي
عضو أكاديمية المملكة المغربية
المجلد الأول
دار نشر المعرفة

الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب

تأليف

د. عبد الهادي التازي
عضو أكاديمية المملكة المغربية

المجلد الأول



الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب - الجزء الأول

- تأليف : الدكتور عبد الهادي التازي
- نشر وتوزيع :دار نشر المعرفة - رقم 10، شارع الفضيلة - الحي الصناعي

الهاتف :02 57 79 037-14 69 79 037 الفاكس : 43 03 79 037 - الرباط - المغرب

- الإيداع القانوني: 2001/1174
- ردمك : 9981-808-77-6
- السحب :مطبعة المعارف الجديدة - الرباط - المغرب
- الطبعة الأولى : 1422هـ / 2001م

بسم الله الرحمن الرحيم

عظمة الميثاق في الإسلام

«وإن استنصروكم في الدّين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق»

الأنفال، الآية 72

مقـــدمـــات

أمام الثروة العظيمة التي وقفتُ عليها من الوثائق المتعلقة بالتاريخ الدولي للمغرب عبر الأحقاب، أخذت ألقي باللائمة على مؤرخينا الذين يهتمون فقط بتدوين التاريخ المحلي وعلى شكل محدود : هذا أمير فتح بلد أمير آخر واستولى على أرضه، وذاك قائد حالف قائدا ثانياً من أجل تقوية مركزه لتحقيق النصر على قائد ثالث !

وإذا كان مؤرخونا المغاربة قد أهملوا تاريخهم الدولي فلمَ إذن نعاتب المشارقة وهم يتجاهلون ما يتعلق بالمغرب من تحركات ومبادرات ... لعلّ لهؤلاء عذراً عندما كانوا يقتصرون على ما يدور بساحتهم باستثناء القليل منهم ممن عرضوا لما يتصل بالمغرب على الصعيد المحلي والدولي...

ومن الإعتراف بالجميل أن أذكر أنني لما كنت في عملي، كسفير لبلادي في عدد من البلاد، تمكنتُ من فهم بعض المشاهد التي مرت بالأمس البعيد في الساحة الدولية والتي ظلت علامةُ الاستفهام إزاءها منتصبة...

ولقد حملني حبّ الإستطلاع على أن أزور بقاع العالم من التي سمعت أو قرأت أنها تتوفر على صدى لهذا التاريخ الدولي... جمهوريات البحر المتوسط بالأمس، وإسبانيا، البرتغال، فرنسا، إنجلترا، هولاندا، استانبول، إفريقيا، أمريكا إلخ إلخ فكنت أزداد ثقة بأن دور المغرب في بناء القانون الدولي كان دوراً رائداً. ومن الخطأ الكبير القول بأن

المسلمين على العموم والمغاربة على الخصوص لم يعرفوا التقاليد الدولية إلا عندما ظهر العثمانيون وأبرموا لهم اتفاقيات مع بعض دول أروبا ! فإننا سنقف في تاريخنا على اتفاقيات تحتوي على بنود مسلسلة مرتبة إحداها بعد الآخرى، وتنسخ منها عدة نسخ لتوزيعها على الأطراف المتعاقدة حتى تكون بين يدي المعنيين بالأمر...

إن كل تلك الفوائد كانت وراء ملاحقتي لما كانت تختزنه تلك المراكز من معلومات وآثار عن بلادي على الصعيد الدولي، وبما أن المغرب يكوّن جزءا هاماً من العالم الإسلامي، بكل شرائحه الاجتماعية، فقد اعتبرت أن تدوين ما يتصل به هو في واقع الأمر تدوين للتاريخ الدولي لملة الإسلام...

وإذا كانت المصادر تخذلنا بالأمس فإن ما أخذ يظهر بين الفينة والأخرى من مراجع ومؤلفات وأطاريح بمختلف اللغات، كل هذا كان مما يشجع على تبليغ الرسالة لناشئتنا كي يهتموا بهذا النوع من التاريخ بما يشمله من اتفاقيات سواء كانت شفاهية أو مكتوبة... ولابدّ لي أن أذكر هنا أن الوقوف على هذه الوثائق صحح بعض المرويات في الكتب التاريخية المتداولة بيننا. كما أن دراستها حسّنت من المعلومات التي كانت بالأمس لا معقب لها...!

كما أنها أي تلك الوثائق كشفت لنا عن جوانب مشرقة في تاريخ علاقاتنا بالأمم الأخرى ولنذكر على سبيل المثال نصوص المراسلات المتبادلة بين قادة المغرب والمشرق... مراسلات القادة، من هاتين الجهتين مع ملوك أروبا في العصر الوسيط. لقد أدركت سر ارتباك بعض المؤرخين المشارقة ممن أثاروا قضية نجدة أو عدم نجدة الخليفة المنصور الموحّدي للسلطان صلاح الدين الأيوبي عام 586=1191...

إن الرسائل التي اكتُشفت اليوم ترفع اللبس الذي وقع فيه ذلك البعض من المؤرخين... ذكرت هذا لأوضح أكثر ولأدعو بصوت أرفع إلى ضرورة اقحام هذا النّوع من "العلِم" في جامعاتنا سواء أكنا بالمغارب أو بالمشارق !

لقد ازددت ثقة من أن الإسلام لم يغز أحداً بالسيف من أجل أن يحمله على الإسلام فإن لاستعمال السيف عند المسلمين دوافع أخرى وليس حمل الناس على اعتناق الاسلام !

وهل سمعنا بأن عاهل بريطانيا جوهن بعث بسفارته 604=1208 إلى الخليفة الناصر يطلب إليه مساعدة عسكرية تلقاء إسلام جوهن وإسلام إنجلترا كلها...؟!

هذه المعلومة التاريخية العظيمة هي التي يوجد أصلها في المصادر العربية والإنجليزية، والتي رددتها الملكة اليزابيث الثانية في مدينة الرباط، أمام الملك الحسن الثاني في الحفل الرسمي الكبير الذي أقيم تكريماً لها يوم الإثنين 27 أكتوبر 1980 (7 ذي الحجة 1400)

لقد جاء في خطاب الملكة: «علينا ألاّ نظن أننا غرباء عن بعضنا البعض فإن أول اتصال بين ملكي بلدينا أجرى بعد مرور بضع سنوات فقط من تشييد منارة حسان العظيمة، وذلك عندما التجأ جوهن ملك بريطانيا للسلطان محمد الناصر يطلب المساعدة»!

لم لا نراجع تلك المراسلات لنقرأ فيها كيف أن الخليفة المرتضى طلب إلى قداسة البابا إينوصانت الرابع 648 هـ 1250 «أن يتخيَّر مبعوثيه إلى المغرب من أهل العقل الراجح والسمت الحسن وممن يسلك في النزاهة على واضح السنن وممن يتميّز في الحديث بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن...»

ولم لا نقف عند الرسالة التي رفعت من عاهل بني مرين يوسف بن عبد الحق إلى ملك فرنسا فيليب لوهاردي (681 هـ 1280 يقوم فيها بالمساعي الحميدة بين ملك فرنسا المذكور وبين ألفونس العاشر ملك إسبانيا من أجل استتباب الأمن في جنوب أروبا ....

ولا بدّ لي أن ألاحظ أن فترات ازدهار تاريخنا الدولي كانت في واقع الأمر تعكس فترات الازدهار على الساحة الداخلية، ومن هنا اقتنعنا بأنه كلّما كان البيت متلاحماً متراصاً من الداخل كلما كان وضعنا في الخارج قوياً ولامعاً...

وقد كانت مظان البحث في هذا التاريخ متعددة ومتنوعة كذلك، قد تجدها في الكتب المتداولة بيننا من أمثال صبح الأعشى للقلقشندى، وقد تجدها في كتب النوازل أو تراجم الرجال أو القصائد الشعرية بمختلف بحورها... أو في المنقوشات وقطع العملات.

ولم لا نتحدث عن المذكّرات التي كان رحّالاتنا، من أمثال ابن بطوطة، يدوّنونها بأقلام صادقة عن علاقات هذه الأمة بتلك وعن حدود هذه البلاد وتلك، مما اعتمد فيه أولئك الرّحالة على المشاهدة...

هذا بالرغم مما نلاحظه من صمت مطلق من لدن بعض الذين شاهدوا لقطات من التاريخ الدولي للمغرب، من أمثال علامتنا ابن خلدون، لكنهم، لسبب أو آخر، أهملوا تلك اللقطات الهامة، وأقصد هنا إلى المعاهدات الثنائية التي كانت تبرم بين ملوك بني مرين وبعض ممالك أروبا...

ومن الانصاف أن ننوه بفضل الأرشيف الأجنبي على كتابة تاريخنا الدولي بحكم أن الدول التي كان لنا إتصال معها كانت تحتفظ بالوثائق لديها في حين كنا فيه لا نعير اهتماماً لتلك الوثائق، وهل ننسى أن يوسف ابن تاشفين مزق رسالةً وردت عليه من الفونصو السادس مع جواب عليها كان أعده أحد كتابه ؟!

وقد كان في المصطلحات التي دخلت قاموس التاريخ الدولي عند الأجانب، كلمة «البيعة» و «العلماء»، وجدنا للكلمتين صدىً في التقارير الدبلوماسية التي يرفعها أعضاء السلك الأجنبي، لقد كان عليهم أن يتحدثوا عن بيعة هذا السلطان أو ذاك قاصدين بذلك أن الشعب اختاره ملكاً شرعياً للبلاد. ومن الجدير بالذكر في هذا الصّدد أن نؤكد أنّ نظام البيعة عادة متبعة في المغرب منذ العهد الإدريسي في القرن الثاني الهجري مروراً بالعهد المرابطي والموحدي والمريني والوطاسي السعدي والعهد العلوي الذي نعيشه...

وقد كان العلماء دائماً وراء السياسة والقرار كذلك، كان سيّد البلاد يستشيرهم في كل النوازل –وخاصة منها السياسة الخارجية للبلاد، ومن هناك رأينا أن المغرب لا يقدم نجدةً لجهات تطلبها سواء كان طلب النجدة من الأندلس أو من المشرق أو حتى من غير هاتين الجهتين إلا بعد مشورة العلماء، ومن هنا رأينا أيضا أنهم ينبّهون دائما على مواطن الضعف في الحكم فكانوا بمثابة البرلمانات اليوم، بل أنهم أكثر قوةً ونفوذاً ومصداقيةً، وعليهم اعتمد المرابطون في نجدة الأندلس، وعليهم اعتمد الموحّدون في نجدة إفريقية (تونس) ضد الاحتلال النّورماندي، وعليهم اعتمد بنو مرين في سائر

تحركاتهم، كما وعليهم اعتمد السعديون في مواجهتهم لامبراطورية البرتغال وسنغاي، وعليهم إعتمد السلطان مولاي إسماعيل في موقفه الحاسم ضد احتلال الثغور المغربية ورفضه لكل الاتفاقيات أو التسويات حول هذا الموضوع باعتبار أن ما استُولي عليه تحت الضغط يعتبر غصباً من ناحية الشرع !

ولابد أن نعرف أن العملة المغربية ظلت تعتمد على دور السكة المنبثة في مختلف الجهات عبر العصور سواء قبل انتشار الإسلام بالمغرب أوبعد ظهوره واستقلال البلاد عن الخلافة بالمشرق، وقد أصبح للدينار المرابطي صيت دولي رفيع وظل محل تنافس كما تردده سائر المصادر التي اهتمت بتاريخ العملات الإسلامية...

وكان في العملة ما يعتمد على الذهب أو الفضة أو المعادن الأخرى، وكانت تحمل شعارات دينية وسياسية وأسماء لأعلام شخصية وجغرافية وتواريخ، ويمكن القول أن باستطاعة المرء أن يقرأ تاريخ المغرب مسلسلا عبر تلك العملات التي كانت تعبّر فعلا عن كيان متين مستمر المسيرة... هذا إلى توفر الخزينة المغربية دائماً على أنواع العملات الأخرى للدول المجاورة لاستعمالها عند الحاجة...

ومن المهم أن نعرف أن المغرب –وهو يجاور عدداً من الأمم– كان مهتما بجانب الأخبار، سواء تلقّيها أو إبلاغها للشعب عن طريق الظهائر والمراسيم التي كانت تلقى على رؤوس منابر المساجد الكبرى...

وشعوراً من المغرب بأهمية البريد سواء منه العادي والسريع، الخفيف منه والثقيل فقد وجدنا مرسوماً ملكياً ينظم البريد منذ عام 543=1148 ... وكان موزع البريد يحمل نعت الرقّاص الذي يعني في اللغة العربية المتحرّك السريع...

وكانت هناك محطاتٌ معينة موزعة بين المدينة والأخرى، وكانت الدولة حريصة على سرية المراسلات وأمن المواصلات، وعندما ظهر التلغراف بادرت الدولة للاستفادة منه بوسائلها الخاصة وطوّعت الحرف العربي ليندمج في النظام الدولي المعروف آنذاك، وكان خط التواصل بين المواطنين موجوداً فيما يتصل بالخارج، فقد كانت الدولة تعتمد على سفرائها أولاً وبالذات إذا كانت المراسلات تتخذ طابع السرية وإلا استعانت بالسلك القنصلي الأجنبي لإبلاغ رسائلها...

وقد وجدنا لوزارة الخارجية التي سميت أحيانا بوزارة البحر (ما وراء البحار)، وأحيانا وزارة الأمور البرانية، وجدنا لها في المغرب نظاماً يخضع لتقاليد جدّ دقيقة بما فيها "النائب" الذي يعتبر بمثابة وزير الخارجية وخليفته والفقهاء والكتاب والتراجمة والأعوان...

وقد كان للقصر الملكي إلى اليوم تقاليد في تأطير الخطابات السلطانية وزخرفتها وتطريزها بأشكال هندسية رفيعة أثارت انتباه الذي اهتموا بتلك الخطابات من الملاحظين الأجانب الذين اعتبروها معبرة عن الفن المغربي.

هذا إلى جانب الإبداع في أنواع المداد الملون المستعمل في تلك الخطابات ثم التوقيعات والعلامات، وحتى الأختام الملكية التي عرفها المغرب منذ العهد الوسيط، هذا إلى الحرص على أن تكون الرسالة متضمنة للتاريخ الهجري الذي تمت فيه، وأحيانا يصحب هذا التاريخ بالموافق الميلادي.

ولا بد أن نلاحظ أن المغرب إلى جانب اقتصاره على استعمال اللغة العربية كوسيلة وحيدة للتخاطب مع الأطراف الأخرى، فإنه مع ذلك يستعمل بعض المصطلحات الأجنبية في مكاتباته متى لم يجد لها مقابلا باللغة العربية.

وقد وجدنا رموزاً للتعامل عن طريق الرسائل السرية بقيت إلى بداية القرن العشرين، وهي ترمز إلى الملك برقم 55 كما تجعل لكل مسؤول في الدولة رقمه الخاص... على نحو ماهو الشأن في المدن المغربية الساحلية مثل وادي الذهب الذي كان له رقم 225 ، وسبتة التي كان لها رقم 249 ، كما أعطيت للدول التي يتعامل معها المغرب أرقام خاصة، فمصر لها رقم 297، وتومبوكتو 303، والصين 335، واليابان 341، وانجلترا 343، واسبانيا 354، وفرنسا 359، وتركيا 386، وأمريكا الشمالية 395...

ومن المفيد أن نعرف –من خلال هذا التاريخ– معلومات عن الرايات والأعلام التي تُتخد شعاراً للمغرب، وعن أوسمة التقدير التي كانت تمنحُ للقادة والزعماء، وعن الألقاب الخلافية "كأمير المسلمين" "وأمير المؤمنين" "والشيخ" وعن معالم الحكم من المظلة والموسيقى، وعن اللباس والزي.

وإن مجرد إلقاء نظرة على رسالة من الرسائل الدبلوماسية يجعلنا نقتنع بأن أدبنا الإداري كان على حالة جيدة من التحرير والتدقيق فإذا انصرفنا إلى أسلوب المعاهدات والاتفاقيات فإننا سنقف على مجموعة هامة من الوثائق التي تعبر عن الحس الفقهي الذي كان يتوفر عليه الدبلوماسيون، وعن الشعور الوطني الذي كان يتملك المشرفين على السياسة الخارجية.

وكان مما يلاحظ في الاتفاقيات الثنائية التي يبرمها المغرب مع غيره قضية الأمد الذي تنتهي فيه المعاهدة، وهنا نجد أن المغرب – لا يتقيد بزمن محدود، وهكذا نجد من الاتفاقيات ما يحدد بعشر سنوات، ومنها ما يكون طوال حياة الملك، وفيها المؤبد وفيها ما يحدد بربع قرن.. على أن في الاتفاقيات ما يكون لمدة قصيرة حسب الظروف، ومن ثمت يمكن القول بأن التحديد يبقى من اختصاصات رئيس الدولة على ما تنص عليه كتب الفقه الإسلامي ...

ومن السمات الحضارية للتاريخ الدولي للمغرب أنه كان يتعامل مع القضايا كلاً على حدة، لا يخلط هذه بتلك، فهو إذ يفاوض حول موضوع ولا يصل فيه إلى نتيجة، يمكنه أن يفاوض حول مادة ثانية أو ثالثة أو رابعة دون أن يغضب أو يوقف عمله، وهكذا يبقى على الخيط لا يقطعه، وقد يعتمد على الوقت والزمان لتطويع الرأي الآخر... وبالمقابل كان يحسن الاستماع إلى آراء الآخرين.

ولابد أن نشير إلى عدد من المبادئ العامة للاتفاقيات التي كان المغرب يبرمها مع الدول الأخرى حتى نأخذ فكرة عن تلك المبادئ لنعرف بالتالي مدى نضج المغرب، فهناك ضمان المغرب لحماية الأفراد والممتلكات، في مقابلة التزامات الطرف الآخر بتلك الحماية، وهناك الصلاحيات القضائية للقناصل مالهم وما عليهم، وهناك حق إنشاء الكنائس وحرية العبادة، وحق امتلاك المراكز التجارية والفنادق، وهناك التعهد بتحريم القرصنة متى تعهدت الأطراف الأخرى بمثل ذلك، وهناك مبدأ نجدة المحتاجين للنجدة في عرض البحار، وضمان أمتعتهم، وتقديم العون المادي الذي يضمن حياتهم، وهناك احترام مبدأ المسؤولية الشخصيّة أي عدم مواخذة أحد بجريرة الآخر، وهناك مبدأ حماية تركة الأجنبي الذي يتوفى على الأرض المغربية، وهناك العمل بمبدأ أن الراية تحمي البضاعة.

وأخيراً فإن هناك نظاماً لرسوم الجمارك على الصادرات والواردات منذ سنة 555=1160 ... مع الالتزام بتحريم التهريب والتملص من أداء الواجبات، ومن خلال كل هذا -وهذا مهم- نعرف الكثير عن الديوانة المغربية : مديرها وكتابها ومترجميها وموظفيها بمن فيهم الأجانب والمساعدون والمستخدمون ... والمبيعات داخل الديوانة بواسطة المزاد العلني، وخارجها حيث تباع بالتقسيط، وحقوق الديوانة الأساسية والإضافية بما فيها حقوق الارساء والصيانة، وهنا سنقف أيضا على جملة من المصطلحات العربية التي دخلت القاموس الأجنبي على نحو ما وجدنا عدداً من الكلمات التي أضحت من اللغة الديبلوماسية المغربية على ما أسلفنا.

وإذا ما درسنا الوثائق الدولية للمغرب على ضوء ما يسمى اليوم بحقوق الإنسان فإننا سنجد وفرة من المادة تعبر عن مدى الاهتمام بالإنسان أي إنسان، دون اعتبار لنحلته أو جنسيته أو لونه، ويكفي أن نعلم أن المغرب خصص في فترة من الفترات ثلث ميزانيته للحملة الدبلوماسية التي خصصها من أجل الدعوة لإنهاء ظاهرة الرق أينما كانت، حيث رأينا المغرب يحرص في سائر الاتفاقيات على ضرورة القضاء على استعباد الإنسان وخاصة الشيوخ والنساء والأطفال...

ولابد أن نشير إلى بعض نماذج من السفراء المغاربة ممن تركوا لهم بصمات واضحة في التاريخ الدولي لبلادنا... من أمثال محمد بن حدّو سفير السلطان مولاي إسماعيل لدى انجلترا والذي كان يحس الانجليزية، وكان أول من وضع اسمه في سجل الأكاديمية البريطانية.

كما نذكر ابن عائشة سفيرنا لدى المملكة الفرنسية الذي ترك بدوره صدًى جيداً في المصادر الفرنسية وغيرها، هذا إلى جانب السفير محمد بن عثمان الذي اشتغل مع ثلاثة من ملوك المغرب ووجدنا صداه في كلّ القارات...

ومن حسن الحظ أن ترك لنا بعض هؤلاء السفراء مذكراتهم عن مهماتهم وهي وحدها تعبر عن هذا النوع من الموظفين السامين الذين كانوا يرشحون لهذه المهمات الدقيقة..

وهناك جانب آخر في الحياة الدولية للمغرب وهو جانب توظيف بعض الأجانب للقيام بمهمات دبلوماسية من التي لا تكتسي طابع السرية أو التي تمس المصلحة العليا للبلاد حيث نجد عدداً من الشخصيات التي كان يعهد إليها بمهمة اقتصادية أو تشريفاتية.

ولا يشمل حديثنا هذا اليهود المغاربة فإن هؤلاء مواطنون بحكم الشرع يعمهم ما يعم سائر المغاربة، ولهذا نجد نشاطهم في العمل الدبلوماسي بل والعمل السياسي كذلك عبر التاريخ...

ولابد أن نلاحظ أن بعض الدبلوماسيين لم يسلموا من المنغصات... وهكذا عرفنا عن عدد ممن تعرضوا أثناء هذه المهمات لوشايات رخيصة أصبحوا معها محل متابعات وملاحقات فراحوا ضحية لغرض شخص وأهملَ ذكرهم وجهل مصيرهم، وتلك بضاعة في سوق الملك رائجة كما يقول لسانُ الدين ابن الخطيب!

وإذا ما كنا نتوفر على أسماء لبعض السفراء فإن هناك جملة كبيرة ممن بقيت أسماؤهم في الظل ممن تعمدت المصلحة إغفال أسمائهم لاعتباراتٍ ظرفيةٍ خاصة...

والحديث عن هذا يقودنا إلى الحديث عن "هجرة الأدمغة" التي لم تكن وليدة اليوم فقد وجدنا بين ظهراني المغرب. خبراء من بلاد أجنبية ومن بلاد المشرق كذلك، على نحو ما وجدنا علماء من المغرب يعملون في بعض البلاطات الأجنبية أو في المؤسسات المشرقية...

وما نزال إلى الآن نكتشف أن المغرب كان حاضراً في أقصى البقاع فاعلاً في حياة أقوام كنا نعتبرهم بعيدين عنا..! وما نزال نكتشف يوماً عن يوم أسماء أصبحت لامعة في أمم أخرى وكان انتسابها أصلاً لهذا المغرب الكبير...

وقد كانت للمغرب طقوس خاصة عند استقبال السفراء الذين يردون عليه من الخارج : طقوس ترتكز على فتاوي العلماء وكانت هناك دور فخمة لاستضافة الدبلوماسيين وتمكينهم من استقبال من يرغبون في الاجتماع به...

ويتميز يوم اعتمادهم من لدن السلطان بتنظيم حفل الاستقبال وتحديد الشوارع التي يمر فيها ركب السفير وتزيين الواجهات.. وعندما ينتهون إلى الملك يجدونه محفوفا بوزرائه ومساعديه الأقربين يتقدمهم التراجمة وبعد الترحيب بالسفير يعهد إلى وزير من الوزراء بمفاوضتهم... بعد أن تقدم الهدايا التقليدية إلى السلطان الذي يجيب عنها بهدايا مماثلة، قبل أن تجرى حفلات التوديع التي تتم عادة بعد أن يكون السفير قد قام بزيارات لبعض المدن التي يرغب في رؤيتها... وفي بعض الأحيان ترد هذه السفارات مزودة ببعض الرسامين الذين يأخذون لهم بعض المشاهد، ومرفقةً ببعض الكتاب الذين يدونون مذكراتهم عن الزيارة، كل حسب ميوله وشعوره، كان من تلك الرسوم ما يتصل بممارسة الرياضة من لدن المغاربة ! وبالتظاهرات الترفيهية التي يقوم بها المغاربة...

وهناك جانب آخر مما يتصل بالمجاملات بين الدول، فقد كان المغرب يهدي علاوة على ما يتوفر عليه من تحف تتمثل في صناعته التقليدية وعلاوة على ما يتوفر عليه من مواد يختص بها... علاوة على ذلك يهدي بعض الحيوانات من بيئته مما قد لا يوجد في الجهة الأخرى : الجياد وكلاب الصيد، وبعض الكواسر، السباع والنمور، وكذلك الصقور بما يصحبها من مكملاتها : براقع وأجراس وقفازات.

ومن جهة أخرى كان المغرب يتلقى بعض الهدايا تتمثل في الساعات المختلفة الأشكال والأحجام والأدوات العلمية مثل الأسطرلّابات والميكروسكوبات والأدوات الموسيقية والعطور، هذا طبعاً إلى بعض الحيوانات التي لم نعتدها بالمغرب من أمثال الزرافة مما يكون له دور إعلامي كبير بالنسبة للدولة التي تهدى مثل هذه الحيوانات الغريبة !

وقد كان من الهدايا التي قدمت من العاهل الإسباني صانشو إلى العاهل المغربي يعقوب بن عبد الحق فيلان عظيمان كانا محل انشغال من قبل ساكنة المغرب، على نحو ما كان من إهداء المغرب لمصر ثوراً غريب الخلقة ظل معروضاً على النظارة في القاهرة شهوراً عديدة.

وقد أصبح المغرب في وقت من الأوقات، ومثل ما هو عليه الحال اليوم، ملاذاً للدول الأخرى تلتجئ إليه في المساعي الحميدة بينها وبين غيرها من الدول سواء أكانت تلك الدول بالمشرق أو بالمغرب كما كان ملاذا للدول التي تحتاج إلى مساعدات مادية لبناء كيانها، ومن ثمت اعتبر المغرب مدرسة دبلوماسية مقصودة للفتوى والتّوجيه عند الحاجة.

تشهد بكل هذا الأرشيفات المحفوظة في سائر المكتبات العالمية بما تحتويه من رسائل محررة ورسوم معبّرة عن رصيد حضاري رفيع.

ونحن نتحدث عن المساعي الحميدة للمغرب على صعيد القارات لا نهمل قيام المغرب بمساعيه الحميدة بين القادة في المشرق بعضهم بعضاً، والقادة في إفريقيا كذلك وقبل هذا وبعد هذا قيامه بمساعيه بين قادة الأندلس...

ولابد أن نشير ونحن نتحدث عن الأندلس أن نذكر أن زعماء الأندلس ولو أنّهم كانوا تابعين للقادة المغاربة في أغلب الأوقات لكن الأندلس، وهي وراء البحار، كان لها وضع يتميز عن باقي أجزاء الامبراطورية المغربية، ومن ثمت ساغ الحديث عن تبادل الرسل بين المغرب والأندلس، كما ساغ الحديث عن التعاون بين القادة هنا وهناك.

ولا بد أن نلاحظ ظاهرة لقاءات القمة في التاريخ الدولي للمغرب منذ العصر الوسيط وخاصة بين المغرب وليون وقشتالة من جهة وبين المغرب وبين ملوك الأندلس من جهة ثانية.

ومن خلال هذا التاريخ كنا نلاحظ أن الجيش المغربي كان وراء الصيت الذي كان يتمتع به المغرب... وهكذا ترصّدنا التاريخ الحربي سواء على صعيد البر أو البحر، وكنا نلاحظ أن المغرب كان واعياً بمسؤوليته الكبرى إزاء الذين يتربصون به الدوائر، ومن هنا كان استعداده دائماً للنزال، وكلنا يعرف عن موقعة الزلاقة التي مدّدت أيام الحكم الاسلامي بالأندلس لبضعة قرون وكلنا يعرف عما تبع هذه المعركة من مثيلات لها مما يسجله النثر والشعر...

ثم عرفنا عن موقعة وادي المخازن على مقربة من مدينة العرائش والتي كان فيها مصرع ضون سباستيان ملك البرتغال فتغيرت بذلك خريطة العالم الذي كان يحتله البرتغال، وعرفنا عن معارك أخرى في تخوم بلاد السودان الغربي، وخاصة منها المعركة التي حملت إسم وقعة وادي النيل (النيجر) التي أتت على امبراطورية سنغاي، ثم عرفنا عن معارك التحرير : تحرير طنجة وأصيلا والعرائش... والمعمورة والجديدة الخ.

وطَوال التاريخ قرأنا عن دُور الصناعة التي كانت منبثة في بعض الثغور المغربية، والتي كانت تهتم على الخصوص ببناء السفن على مختلف وظائفها وشتى أحجامها، ومن الطريف أن نجد بعض هذه الدور أو المصانع تشيد أحياناً على الأودية الكبرى التي تنفذ إلى البحر... وبذلك تضمن سرعة الاتصال بالقواعد المغربية التي تقع داخل الأرض المغربية، وقد قرأنا عن دار الصناعة التي كانت في خولان على نهر سبو القريب من العاصمة : فاس ومعنى هذا أن المدينة كانت تتوفر على ميناء يصلها بالعالم الخارجي على ما نقرأه في المؤلفات المعاصرة لعهد بني مرين... ولكثر ما كان الاهتمام بالبحر قويا كان لقادة المغرب اهتمام بالمواد الصناعية التي تتوقف عليها السفينة، وقد حرصوا على أن لا تبقى صلتهم بالعالم الخارجي عن طريق البحر المتوسط فقط ولكن عن طريق المحيط الأطلسي الذي عرفوه واخترقوه وكان لهم فيه تاريخ يُروى...

إن المغرب لم يكن يعتبر أن البحار التي تفصل بينه وبين الممالك الأخرى تُكوّن عنصر انغلاق على نفسه، بل كان يعتبرها أداة اتصال بينه وبين تلك الممالك، وبهذا نفسّر انتقاله إلى تلك الجهات واستقباله هو للساكنة في تلك الجهات، كما نفسر القول السائد بأنّه ملتقى الحضارات...

إن تتبع تاريخ الجيش المغربي بجانبيه البري والبحري يعطي الدليل على أن المغرب ظل ظاهراً على الساحة إلى أن اضطر أمام الأطماع الأجنبية إلى المهادنة . ولا بد أن لا تفوتنا الفرصة في هذا الصدد للإشارة إلى الوثائق المغربية حول هذا الموضوع بالذات لنعرف مدى شغف المغاربة بهذا الجانب من حياتهم...

ولا يظنن أحد أن المغرب كان يجعل قطناً في أذنيه أو حجابا على عينيه مما يحيي عليه جيرانه في أروبا، فقد كان يصله كل شيء عن حياتهم، عن طريق سفرائه أولا وعن طريق السلك القنصلي الذي يقيم معنا في البلاد... ولكنه أي المغرب كان يخشى آنذاك مما نخشاه نحن اليوم مما يسمّى (العولمة)، كانوا يخشون أن لا يقتصر الأمر على ما نريد نحن في حاجة إليه من طبّ وهندسة وفلاحة، ولكن يتجاوز ذلك إلى ميادين أخرى تهدد خصوصيات المغرب...

وشعوراً من القادة بالحاجة إلى معارف الآخرين توجهت بعثات طلابية إلى الخارج بقصد دراسة ما ينفع البلاد، وهكذا وجدنا بعثة بمصر منذ أيام الملك محمد الثالث، ووجدنا طوائف أخرى في إنجلترا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة كذلك...

إن المتتبعين للتاريخ الدولي للمغرب سيمكنهم أن يلاحظوا مبادراته في سبيل أن يواكب مسيرة جيرانه على الضفة الأخرى في الوقت الذي لا يفرط فيما هو حريص عليه من عدم الذوبان في الحضارات الأخرى على ما أشرنا... وكلنا يدرك مدى الصعوبة التي كان يواجهها هذا المغرب وهو يرابط على قيمه، وهو أيضا يتطلع إلى أن لا يفوته الآخرون..!!

وهكذا عمل المغرب على تعريب بعض العلوم الرياضية وأنشأ المطابع لتعميم المعرفة... ولو أن السيل الجارف من العراقيل كان يقف في طريقه على كل الجهات...!!

ومع ظهور صناعة الصحافة على الساحة الدولية عربية وأجنبية وجدنا أن "الكوازيط" أي الصحف، تغزو العاصمة الدبلوماسية طنجة ووجدنا أن الدولة تعمل على اكتساب صوت لها في تلك "الكوازيط"، لا سيما بعد أن أخذت النشرات الأجنبية تهتم بأحوال المغرب، وهكذا وجدنا أن الدولة تصدر استرعاءات واحتجاجات وبيانات حول بعض الشائعات التي لا ترتكز على أساس.. ووجدناها تبلغ وجهات نظرها تلك إلى المراسلين الأجانب الموجودين على أرض المغرب أو ترفعها إلى القنصليات الأجنبية لتتولى هي رفعها إلى الجهات المختصة.

ولعل مما يعمّق فكرنا حول صلة المغرب بالمجموعة الدولية ما نلاحظه من خلال الامثال الشعبية المتداولة بين عامة الناس مما يدل على أن المغرب كان على صلة وثيقة ببعض دول أروبا، وهكذا نقرأ عن أمثال مغربية ذكر فيها جنس "الصبنيول" و "البرتغال" "والكريك" و "الألمان" و الفرانسيس و "الانجليز" كما نسمع عن أسماء مدن في تلك الديار من أمثال مالطة والوندريز والجزيرات وقرطاخنة والبندقية...

وقد لاحظ المبعوثون الأجانب أو الذين اتصلوا بسفرائنا في الخارج أن المغاربة وخاصة الدبلوماسيين كانوا مهتمين بأمر هندامهم، فألبستهم بيضاء رفيعة ومتحضرة، من الراس إلى القدم، يلبسون لكل حال لبوسها... وقد احتفظنا بعدد من اللوحات الفنية التي كانت تؤخذ لهؤلاء الرجال الذين كانوا نموذجاً في التأنق الذي يثير التقدير والإعجاب...

وقد كان مما اهتم به الذين وردوا على بلادنا "المائدة المغربية" بما تضمه من صحون وما تحتوي عليها من توابل وبهارات، كان فيها ما يرد من أقصى بلاد المشرق: من الهند والصين مما يدل على غنى المائدة المغربية وتنوع ألوانها، هذا طبعاً إلى أنواع المشروبات الباردة والحارة، والحلويات وأنواع البخور وكذا العطور التي كان المغاربة يتفننون في تقطيرها من الورود والزهور التي تزدان بها جنبات المغرب على اختلاف ألوانها وأريجها وخصائصها...

لا يفوتنا أن نلاحظ عمل المغرب على اكتساب موقع قدم في بعض الجهات التي كان يهمه أن يحصل فيها على ذلك، وهي الظاهرة التي شاهدناها وهو يبذل الأموال بسخاء من أجل اقتناء العقار في الحرمين الشريفين ... وبيت المقدس.. وذلك مساعدة للمجاهدين للمجاورين والمهاجرين.

وكان من الجوانب الملاحظة في علاقاتنا مع الأمم الأخرى، جانب المصاهرات التي يمكن أن ننعتها بالسياسية... وهي التي كانت تتم بين الملوك المغاربة وبعض الملوك بالمشرق من أجل إحكام العلاقات ودعمها، سجلنا من هذا النوع مصاهرة المغرب لتونس وطرابلس وللحجاز وبعض البلاد الإفريقية...

وأخيرا، وكما قلت في معظم تآليفي، فإن ما أعرضه اليوم على القراء إنما هو محاولة لتقريب هذا النوع من التاريخ إليهم وتحسيسهم بأهميته وسيبقى ديناً علينا أن نملأ الثغرات ونصلح الهفوات، فليس من السهل الإلمام بأخبار المئات من السنوات، في عدد محدود من الكراسات، لا سيما إذا كانت هذه الأخبار مثناثرة عبر الجهات وبمختلف اللغات... جعلها الله في الباقيات الصالحات !

د. عبد الهادي التازي

الرباط، فيلا بغداد

الجمعة 22 ربيع الأول 1422

الموافق 2001/6/15

الباب الأول
مغرب ما قبل ظهور الإسلام

هؤلاء تحدثوا عن المغرب القديم :

هومير، هيكاتي دوميلي، هيرودوت، حانّون، سيلاكس، إيفور، بُّوليهيستور، فيتروف، سطرابون، بومبُّونيوس ميلا، بّلين الأكبر، بّطوليموس، بوسانياس، أنطونان، بّول أوروز، ديون كاسيوس، دُورافين، أفلاطون...

الفصل الأول

المغرب في حديث الأقدمين

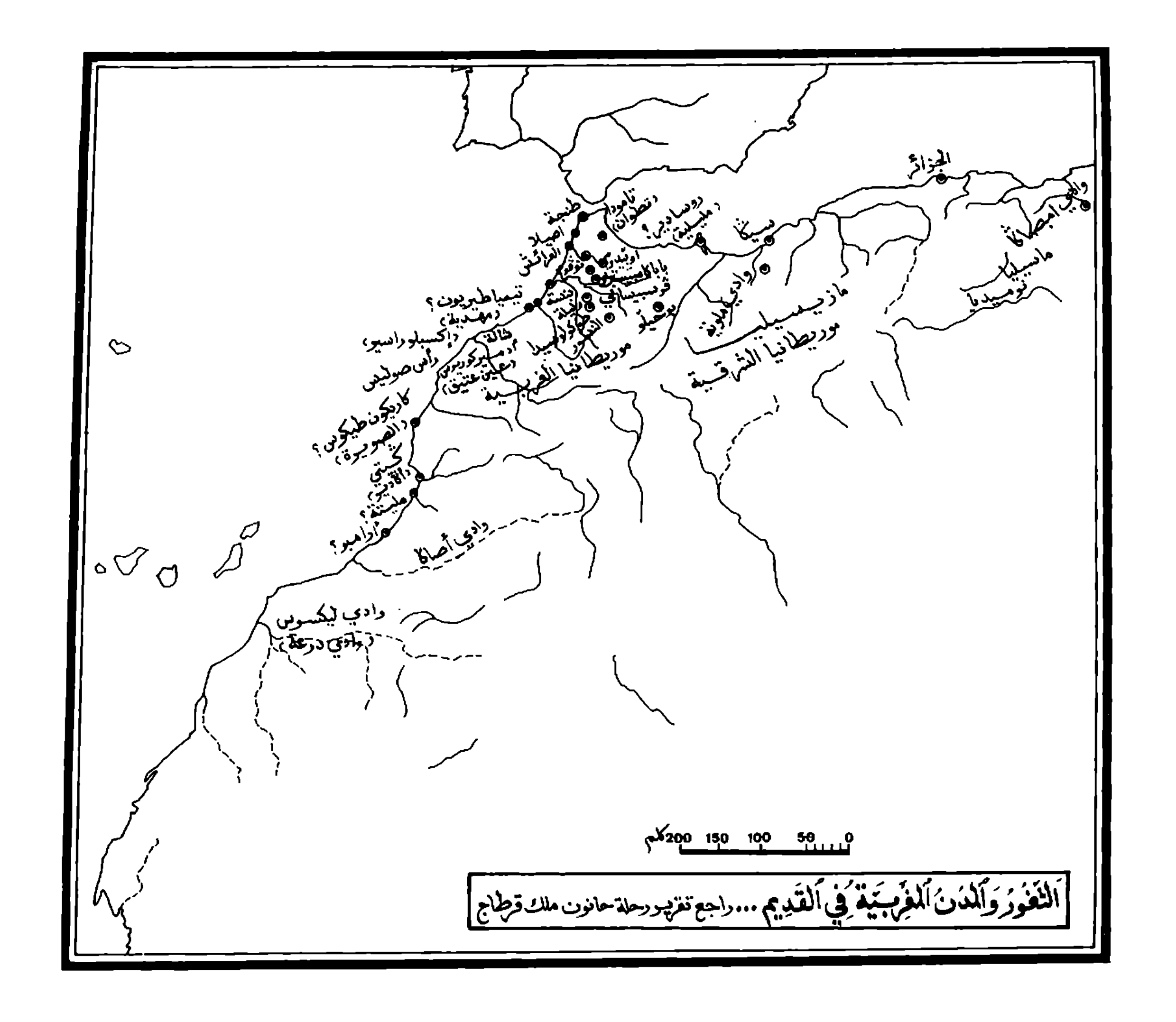
لقد لوحظ اهتمام الأولين منذ التاريخ المبكر بإفريقيا، وبخاصة إفريقيا الشمالية، أو ما نسميه اليوم بالمغرب الكبير، ومن دون ما أن نتحدث عن الفينيقيين الذين كانوا منسجمين مع سكان البلاد الأولين، نذكر الكتاب اليونان والرومان الذين كانوا يتوفرون على معلومات حول الأقاليم التي تتصل بتجارتهم البحرية، وهكذا رأينا عدداً من الجغرافيين والمؤرخين القدامى ينصرفون الى العناية بهذه الجهات، ويكتبون عنها معتمدين أحياناً على تجربتهم الشخصية، ومعتمدين حيناً آخر على وثائق ينقلها الرحالة أو العسكريون أو التجار الذين كتب لهم أن يزوروا إفريقيا الشمالية.

وسنركز في هذه الإفادات على المغرب الأقصى الذي سمي في وقت من الأوقات اللاحقة : موريطانيا. هذا الإسم الذي نراه في السنة الثانية والأربعين للميلاد يحمل نعت «الطنجية» ليتميز عن موريطانيا «القيصرية».

وإن الإلمام بتلك النصوص، بالرغم مما قيل عنها، من شأنه أن يفتح آفاق البحث بالنسبة للذين يتطلعون الى معرفة أكثر لبلادنا [1].

---

(1) Raymond Roget : Le Maroc chez les auteurs anciens, préface de Stéphane Gsel, Paris 1924.



الثغور والمدن المغربية في القديم ... راجع تقرير رحلة حانون ملك قرطاج

لعل أول إفادة ظهرت حول المغرب هي التي كانت للشاعر الإغريقي هومير (Homère) - من أهل القرن الثامن قبل الميلاد - الذي تحدث بطبيعة الحال عن الأطلس كما تحدث عن جزيرة المعدنوس في مضيق جبل طارق [1].

وفي خروم المؤرخ الإغريقي هيكاتي دوميلي (Hecatée de Milet) (القرن السادس قبل الميلاد) نجد بعض أسماء مدن موريطانيا الطنجية، فلقد ورد عنه ذكر مدينة ثينجي (Thingé) على أنها مدينة من ليبيا لأن اليونان كانوا يطلقون على الشمال الإقريقي كله إسم ليبيا...

وقد ورد عن المؤرخ الشهير هيرودوت (Hérodote) من أهل القرن الخامس قبل الميلاد، حديث له عن «التجارة الخرساء» فيقول: إنه يوجد على بعد من أعمدة هرقل بلاد يسكنها أقوام، وعندما كان القرطاجيون يأتونهم للتجارة، كانوا ينزلون بضائعهم على طول الساحل ثم يصعدون الى سفنهم ليوقدوا ما يساعد على إرسال الدخان إشعاراً للسكان، فيحضر هؤلاء الى السواحل فيضعون مبلغا من الذهب أمام كل بضاعة وينسحبون، وهنا ينزل القرطاجيون الى الساحل، فإذا ما ظهر لهم أن تلك المبالغ مناسبة للبضائع، أخذوا الذهب وانصرفوا وإلا صعدوا مراكبهم وانتظروا، ويعود الأهالي ويضيفون قسطا من الذهب الى أن يتم الاتفاق [2].

والى جانب هذه الإفادات نجد الحديث عن رحلة ترجع كذلك للقرن الخامس قبل الميلاد، كتبت باليونانية نقلا عن النص الفينيقي...

ويتعلق الأمر برحلة القائد القرطاجي، حانّون (Hannon) التي كانت منقوشة على ألواح معلقة على معبد كرونوص (Cronos).

---

(1) حول جزيرة المعدنوس راجع وثائق لدراسة تاريخ المغرب لأحمد المكناسي ومصطفى الكوش (تطوان 1961)، ص. 36/85- د. التازي: رسائل مخزنية، الرباط، ص. 72، مطبعة أكدال -الرباط 1979 وهي غير جزيرة قنقوش الواردة في بعض الرسائل المخزنية والواقعة على ساحل طنجة.

(2) تحدث ابن بطوطة وهو في آسيا عن هذا النوع من التجارة... ويُذْ كر أن الأوربيين عرفوا هذا الأسلوب من التجارة الخرساء مع الهنود الحمر في أمريكا، وعرفه الأحباش كذلك مع بعض القبائل الإفريقية.
رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. التازي، نشر أكاديمية المملكة المغربية 1417=1997 ج 2 ص 401.

لقد قرر القرطاجنيون أن يقوم حانون برحلة يتجاوز فيها أعمدة هرقل ويشيّد بعض المدن القرطاجية، فهيأ مراكبه الشراعية التي وصلت الى ستين سفينة بمساعدة خمسين جذافا، وكانت تحمل تقريبا ثلاثين ألف رجل وإمرأة، مع ما يلزم من زاد وعتاد[1].

ومثل هؤلاء سيلاكس (Scylax) البحّار الجغرافي الإغريقي الذي توجد رحلة باسمه في البحر الداخلي (المتوسط) ترجع للقرن الرابع قبل الميلاد، وهي -بالرغم مما لوحظ عليها من اضطراب وتلفيق- لا تخلو من فائدة لما تتضمنه من معلومات طريفة عن بعض المواقع المغربية وعن التبادل التجاري بين الأهالي وبين الفينيقيين...

إنّ الفينيقيين عندما يصلون يربطون مراكبهم المستديرة بالحبال وينصبون لهم خياماً، ويفرغون حمولة سفنهم وينقلونها الى الأرض في زوارق صغيرة... هنا يتبادلون التجارة، وهكذا فإن الفينيقيين يقدمون بضائعهم لهؤلاء في مقابل جلود الأيائل والأسود والفهود، وجلود الفيلة وأنياتها وجلود الحيوانات الآهلة.

وقد تحدث إلينا في القرن الرابع قبل الميلاد الكاتب اليوناني إيفور (Ephore) في كتابه (تاريخ الكون) عن مدينة يسار أعمدة هرقل...

وتميز الكاتب الإغريقي في القرن الأول قبل الميلاد أليكساندر بوليهيسطور (A.Polyhistor) في حديثه عن بلادنا بذكر ما تحمله من أسماء عديدة لا تخلو من طرافة فمن الأسماء الكثيرة التي كانت تحملها: «الأرض الأولمپية»، و«الأرض الأقيانوسية»، و«الأقصى»، و«بلاد القمّة» و«هيسبيري الغربية» و«أرض أمون» و«أورتيجي» (أي بلاد السّمانى) و«إيثيوبيا»، و«أوفيوزا»، أي بلاد الثعابين) و«ليبيا» و«كيفينيا» (أي بلاد كيفي (Képhé) جد الايثيوبيين، وأخيراً «إيريا»...

(1) نالت رحلة حانون من اهتمام الباحثين القسط الأوفر ويمكن أن يعود المرء حول هذا الموضوع الى:
S.Gsel, Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, T. 1, p .472
G. Marcy, Notes Linguistique autour du périple d'Hannon, Hesp. 1935, T. XX, p. 21-27; . 1 carte

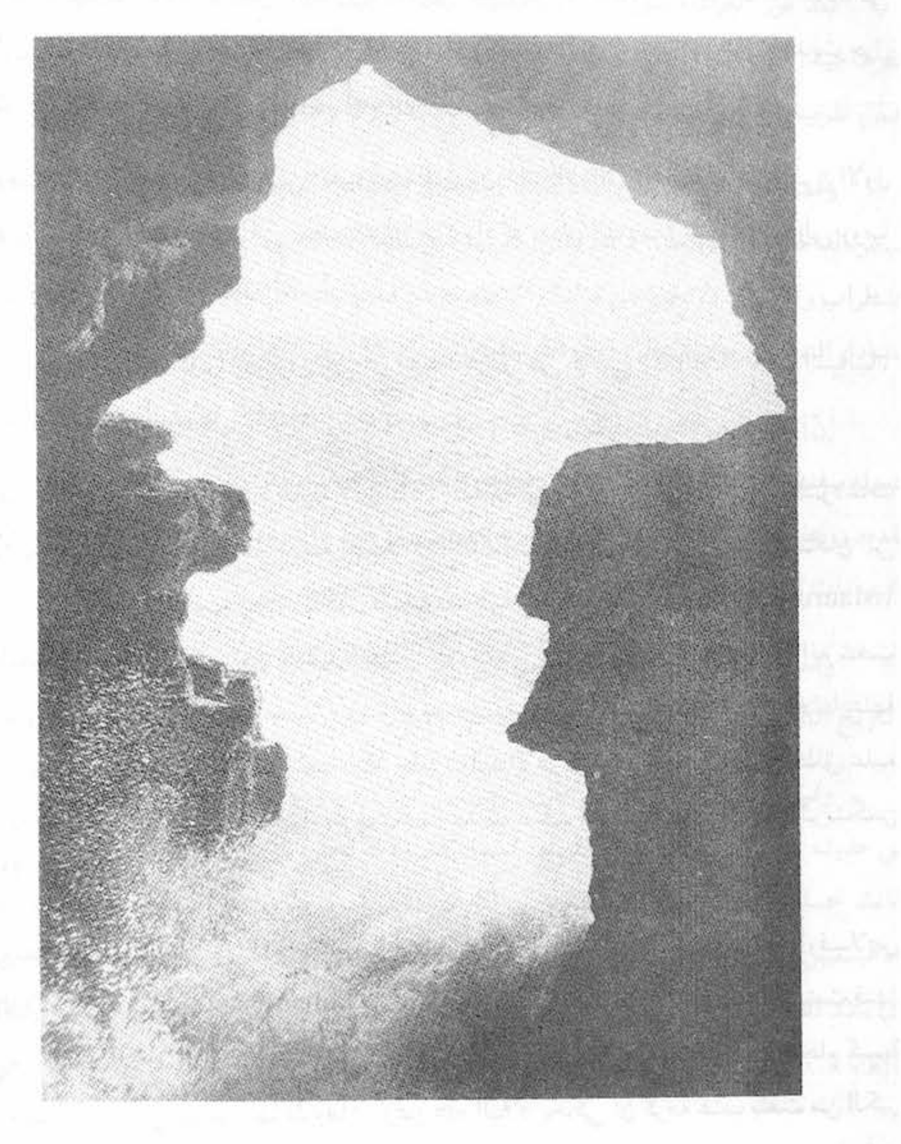
وقد اقتصرت إفادة المهندس المعماري اللاتيني ڤيتروڤ (Vitruve) الذي عاش كذلك في القرن الأول ق.م. والمعروف بمؤلفاته المعمارية والهيدرولية كذلك، اقتصرت إفادته على الحديث حول (مَوْرِيسْيَا) (Maurusie) التي يسميها أصحابنا (موريطانيا)...

وقد خصّص الجغرافي اليوناني المعروف سطرابون (Strabon) الذي ولد في القرن الأول ق.م. حصّة مهمّة لبلادنا اعتمد في بعضها على ما رواه له بعض القادمين من المغرب الى روما ولعله أول من أطلق على السكان الباربار!.

إن بعض المؤلفين كانوا يفكّرون في أن أعمدة هرقل هي كالبي (Calpé) (في اسپانيا) وأبيلا (في المغرب) وأبيليكا (Abyla).

من هنا يتم العبور في اتجاه طنجة (Tinge) التابعة لموريسيا، حيث نجد فيها مستودعات ومؤسسات للتمليح. وهناك أيضا مدينة أصيلا (Zêllis) بيد أن الرومان حولوا السكان الى الساحل المقابل وأضافوا إليها بعض سكان طنجة... هنا يسكن المورزيين (Maurusiens) حسب التعبير اليوناني، الماوريون حسب التعبير الروماني أو الأهالي (Maures)، إنه شعب عظيم وغني، يفصله عن إسپانيا مضيق، وهنا يوجد حقيقة مضيق أعمدة هرقل التي تحدثنا عنها سابقا. وعندما نعبر مضيق الأعمدة نجد جبلاً يطلق عليه الإغريق إسم الأطلس بينما يطلق عليه الباربار ديريس (Dyris)، وفي الجوار توجد أيضا مدينة صغيرة تهيمن على البحر، ثرينكس (TRINX) ...

وبعد أن أشار سطرابون لما يحكى من أساطير عن ليبيا انطلاقا من رحلة أوفيلاص (Ophélas) الى موريسيا (Maurusie) ليتحدث عن أنها بلد غنّي جداً بغاباته التي ينبت فيها كلّ شيء، كذلك هذه الموائد التي تصنع من قطعة واحدة، وذات ألوان مختلفة، ذات أحجام كبيرة جداً... إنها الموائد التي يصدرونها للرومان. وعن هذه البلاد يحكي أن كرمة عنب بلغت من الكبر بحيث إنما يتمكن رجلان بمشقة من الإحاطة بجذعها، وتنتج عناقيد في طول ذراع تقريبا، كل النبات عالي القامة وبخاصة بعض الأنواع... إن أغصان النبات تبلغ إثني عشر ذراعاً في الطول وأربعة أشبار في العرض ويعيش في هذه البلاد سائر أنواع الثعابين والأفيال والغزلان والحيارم والحيوانات المشابهة، كذلك الأسود والفهود... وتوجد كمية كبيرة من القردة...



في الطريق إلى مغارة هرقل التاريخية : (عروس البحر) لابدّ أن يستوقفك جبل إشبَرتال
كما يسمّيه البكرى (ESPARTEL) حيث يُوجد اليوم منار المراقبة
الذي أنشأه الملك محمد الرابع 1281=1863

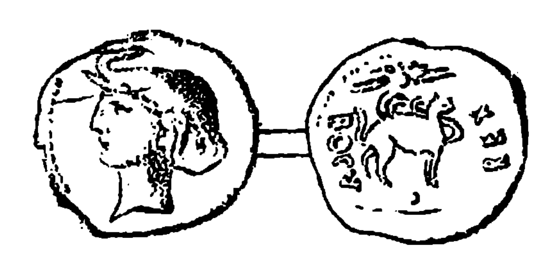
وبالرغم من أن الموريزيين يسكنون منطقة تعتبر على العموم سعيدة فإنهم مع ذلك يعيشون حياة البدو الرحّل، في معظمهم إلا أنهم مع ذلك يتعشقون كثيراً بعض الأناقة، وهكذا بالرغم من ذلك، فإنهم يهتمون بصف شعرهم، ولحاهم كذلك، ويتزينون بالحلي ويعتنون بأسنانهم وأضفارهم، ومن النادر أن تجدهم أثناء تفسحهم يقترب بعضهم من بعض، وذلك حتى يتميز كل منهم ويظهر بالشكل الجميل الذي اختارخ لضفر وفرته.

إنهم يقاتلون في غالب الأحيان بالمزاريق وهم يركبون خيولهم وهم يستعملون لجما من الأسل ويركبون بدون سرج، ويحملون معهم كذلك الخناجر، والمشاة منهم يتخذون لهم تروساً من جلود الفيلة بمثابة دروع الأمان، وكانوا يرتدون جلود الأسود والفهود والدّببة وينامون عليها كذلك، وعلاوة على هذا فإن الموريسيين والماسيسيليين جيرانهم، والليبيين بصفة عامة لهم تقريباً في كلّ مكان نفس التجهيزات... إنهم يمتطون خيولاً صغيرة... وهي ذكية وطائعة جدا لدرجة أنهم لا يسوقونها باللّجام ولكن بقضيب يشيرون به الى الخيول...

والخيول تتبع ركابها كما تتبع الكلاب أصحابها دون ما أن يحتاجوا أن يأخذوها باللّجام، وكانوا يستعملون تروساً مستديرة من الجلد[1]، كما اعتادوا على استعمال المزاريق الحديدية سواء منها العريضة أو القصيرة، كانوا يجعلون عليهم أردية ذات حواشي واسعة ومن دون ما حزام، يرتبط بعضها ببعض بواسطة الإبزيم... ويقال إن بعض الشعوب الباربارية في هذه النواحي تستعمل جلود الثعابين وقشور السمك كلباس وغطاء... بعض المؤلفين يزعمون أن الموريزيين هم هنود وردوا على هذه البلاد مع هرقل، مهما يكن فإنه قبل بعض الوقت من عصرنا هذا، يقول سطرابون، كان الملك بوكوس (Bogus) والملك بوكُوس(Bocchus) [2]، كانا معاً يحكمان هذه البلاد : بلاد الموريزيين، وكانا صديقين للرومان.

بعد موتهما وجدنا (يوبا الثاني) يتسلّم ملك هذه البلاد من أيدي القيصر أوغيست (Auguste) ليضيفها الى ولايات والده. يوبا هذا كان ولداً ليوبا ذاك الذي كان يقاتل مع سيبيون (Xipion) ضد (Divon)... لقد مات يوبا الثاني حديثاً وكان وراثه في الحكم ابنه بطوليمي (Ptolémée) المولود من (سيليني) بنت أنطوان وكليوباطرا...

(1) البكري، كتاب «المغرب في ذكر افريقية والمغرب»، ترجمة دوسلان 1965، ص. 171.
(2) لعل القصد الى بوگود الأول وبوكوس الثاني اللذين سيرد الحديث عنهما...



من نقود بوگود



من نقود بوگوس



الفيل-ماسينيسا

رسوم النقود عن مازار MAZARD

وقد أنهى سطرابون إفادته هذه بما أورده عن الفيلة التي لا تتهيب النار بل إنها تقاومها عكس الحيوانات الأخري علاوة على ما تميزت به من علاج جروحها بنفسها عند الحاجة!

وقد كتب بومبنيوس ميلا (Pomponius Méla) (وهو إسباني من أهل القرن الأول بعد الميلاد) حول الجغرافيا باللغة اللاتينية وكان يستمد معلوماته من بعض الفينيقيين الذين كانوا يسكنون مدينته... يطلق إسم «البحر الأطلانتيكي» على البحر الذي يتصل بغرب القارة، فإذا ما أبحرنا منه نحو بحرنا (Notre mer) (يعني المتوسط) نترك على اليسار إسبانيا وعلى يميننا موريطانيا (Maurétanie). هنا توجد مغارة مقدّسة لهرقل، وأبعد من هذه المغارة توجد تينج (طنجة) : مدينة قديمة جداً أسست على ما يقال من لدن أنتي (Antée)... وبعيداً من هذا، هناك جبل مرتفع جداً تماماً في مقابلة الجبل الذي يرتفع في الجهة الأخرى بإسبّانيا، يسمى الأول أبيلا (Abyla) ويسمى الثاني كالپي (Calpé)، وكلا الإثنين يمثلان أعمدة هرقل... وفي موضوع هذا الإسم يحكي الأسطورة : إن هرقل نفسه هو الذي فرق بين هذه الآكام التي كانت في القديم تتصل بعضها ببعض ! وهكذا أمكن للمحيط الأطلسي الذي كان محاصراً بالجبال أن يقتحم (المتوسط) الذي أصبح أكثر اتّساعاً...

إن أرض هذه البلاد أحسن من رجالها لأنّ كسل هذا الجنس من الناس يمنعهم من الخروج عن عزلتهم ! وتوجد الجبال مرتفعة وتتصل بعضها ببعض، وهي تقع مرتبة كما لو أنها صففت عمداً وهي تسمى، نظرا لعددها وتشابهها، بالأخوّة السّبعة.

ويقال إن أنتي (Antée) حكم هذه المنطقة، وكدليل دقيق على هذه الأسطورة تقف على أكمة قليلة الارتفاع تشبه وضع رجل ممتد يقولون إنه قبر أنتي (Antéc) !

من هؤلاء السكان (سكان المغرب) مَن يعيش في الغابات وهو أقل تنقلاً والباقي يسكنون في المدن. إن أهم المدن التي توجد بعيدة عن البحر ڤولوبيليس (Volubilis)، أما التي توجد على البحر فهي سلا (Sala) وليكسوس (Lixus). وأبعد من هذا توجد (Zilis).

ويأتي الكاتب الشهير بلين الأكبر (Pline l'ancien) من أهل القرن الأول الميلادي ليقدم إلينا بدوره معلومات عن بلادنا ولو أنها في نظر البعض تحتاج الى تمحيص[1].

(1) R.Roget : le Maroc chez les auteurs anciens, p. 12

وقد كان في أبرز ما أثار انتباهه أن أسماء الشعوب (في إفريقيا) وكذلك أعلامها الجغرافية، من الصعب جداً أن ينطق بها كما هي، اللهم إذا كان ذلك بلسان أهلها... وفي أيامنا هذه توجد «ثينجي» المؤسسة من لدن أنتي ومنذ أن جعل منها كلود قيصر مستعمرة أصبحت تحمل إسم طراديكتا جوليا (Traducta Julia)[1].

ويرتفع جبل الأطلس نحو السماء متعاليا وهو أجرد من الناحية التي يشرف فيها على المحيط الأطلسي الذي يقتبس منه إسمه (الأطلس) ولكنه مكسو بالغابات الكثيفة ذات الظلال، المسقية بالعيون الفوارة من الجهة المشرفة على إفريقيا، تأتي منه الفواكه على كل نوع، دون ما زراعة، وبكمية كبيرة ترضي سائر الرغبات وتشفي غليل الإنسان.

وفي النهار قد لا تبصر أي إنسان يمر من تلك الجبال... الكل يلوذ بالصمت، وكأنما المرء يعيش في صحراء رهيبة... أما في أثناء الليل فإن الأضواء تسطع من تلك الجبال التي يبعث فيها السكان حياة جديدة برقصاتهم وبترديد نغمات متناسقة للمزامير والشبابات... كذلك أصداء الطبول والصنوج...

وبعد أن يشير بلين الأكبر الى مذكرات حانون سالفة الذكر يذكر إن أغلبية الكتاب اليونانيين واللاتينيين اعتمدوا على شهاداته.

وقد أفادنا بلين أنه عندما كان سيبيون إيميليان (Scipion Emilien) يحكم في افريقيا، عهد الى المؤرخ بوليب (Polybe) (122-210) بمهمة أن يقف بواسطة الأسطول على سواحل هذا العالم، حيث سجل عددا من الإفادات...

ويردد بلين بدوره نعت السكان الأهالي بالباربار عندما يقول : لأول مرة نرى الجيوش الرومانية أيام القيصر كلود (Claud) تقاتل في موريطانيا. وكان القيصر حكم بالموت على بطوليمي فحاول العبد المعتق : إيدمون (Acdemon) أن ينتقم لسيده بطوليمي. وفي أثناء متابعة الباربار كان من المتأكد بأنه أي القيصر سيصل الى الأطلس...

(1) يلاحظ كيف أن الرومان وقد استعمروا البلاد أخذوا يغيرون أسماءها على نحو ما شهدناه رؤيا عين عندما نزل الاستعمار الأروبي بساحتنا فأخذ يضع أسماءه عوض الأعلام التي كنا نعرفها.

وكان فيما ذكره بلين الأكبر أن سويطونيوس بولينيوس (Suétonius Paulinus) كان أول قائد روماني تجاوز الأطلس [1] ببعض الأميال وإن تقاريره عن أعالي هذه السلسلة من الجبال تتفق مع ما كتبه الآخرون.

في ظرف عشرة أيام وصل سويطونيوس بولينيوس - على ما قال - الى الأطلس... إن الذين يسكنون الغابات المجاورة التي تزخر بالأفيال والحيوانات المفترسة والثعابين من كل شكل ونوع، يحملون إسم الكناريين (Canariens)، ذلك أنهم يعيشون كما يعيش نوع من الكلاب (Canes) ويقتسمون مع هذه الكواسر أمعاء الحيوانات!

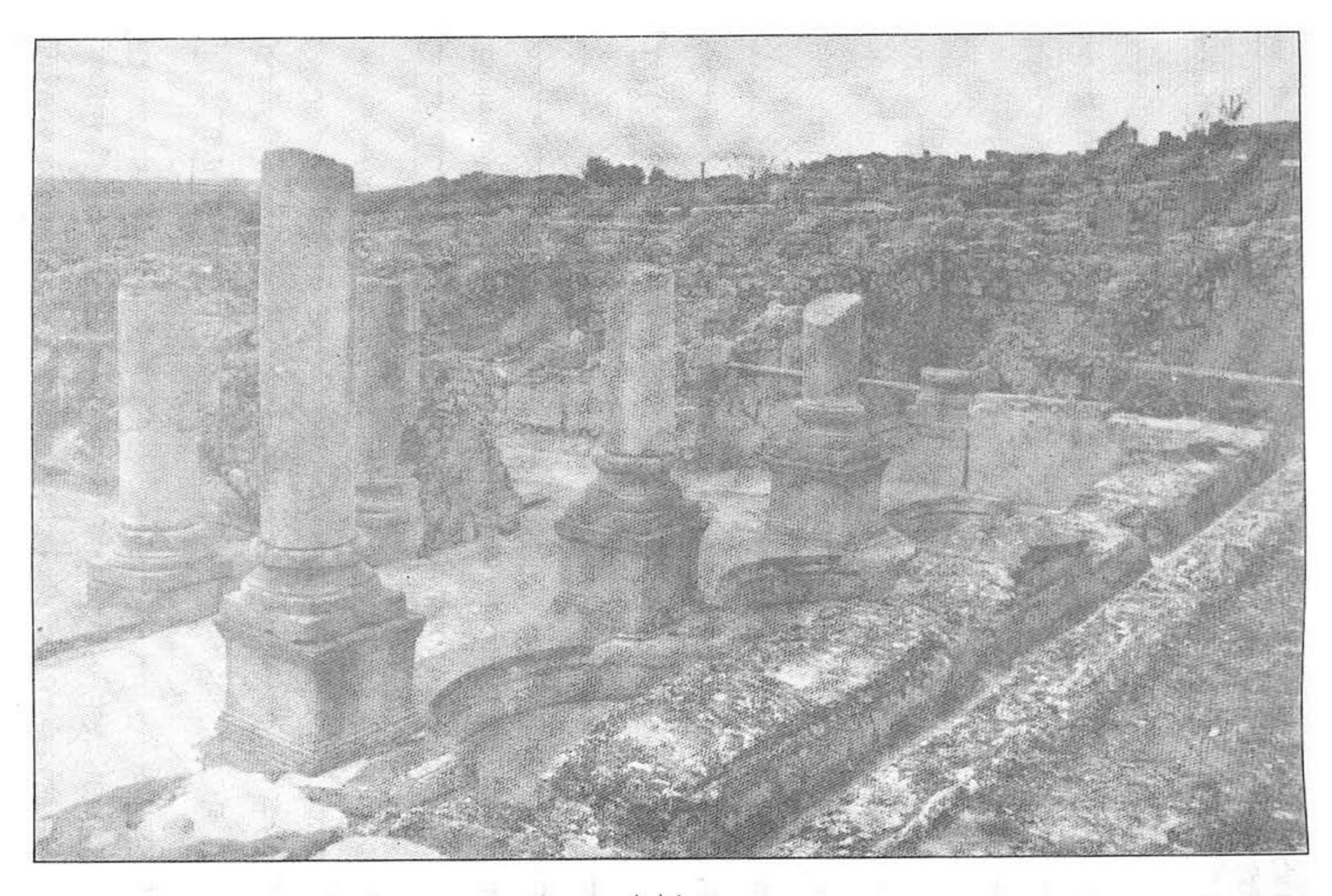
ويؤكد بلين أن الملك يوبا الثاني الذي كان مجده كعالم أكثر من مجده كملك، قدم عن الأطلس معلومات مماثلة، وقد أضاف الى هذا أنه ينبت هناك نبات يحمل اسم فربيون (Euphorbe) باسم الطبيب الذي اكتشفه [2]، وحسب قوله فإن هذا النبات يصفي النظر ويستعمل ضد سائر السموم، لقد خصص له تأليفا على حدة.

ويذكر أن إقليم الجبل تكثر فيه الفيلة، كما توجد أيضا على جبل أبيلا (Abyla) وعلى الجبال التي تسمى «الإخوة السبعة» وهذه الجبال جميعها تهيمن على البوغاز. ويوجد هنا نهر تمودا (Tamuda) الذي يعتبر صالحا للملاحة.

---

1) من خلال مطالعتنا لوصف إفريقيا، في كتب الأقدمين من العرب نجد عددا من المواقع التي مر بها الرومان وتركوا لهم بها أثرا على ما سنذكره في نهاية هذا الباب الخاص بمغرب ما قبل ظهور الاسلام.

2) البكري : المغرب ص 179- د. التازي : الطبيب الصيدلي أدراق، مجلة الأكاديمية 1986.



رسم من فوليبليس

وتوجد هنا أنواع السمك الآتية : الأبيطاس (Alabétas) وكوراسين (Coracin) وسيليور (Silures) [1] بل كذلك تسماح جلبه يوبا من هناك كدليل على أنه فعلا النيل[2]، وأعده لمعبد إيزيس (Isis) في موريطانيا القيصرية... على جزر موريطانيا لا توجد معلومات كثيرة، إنما يعرف فقط أن هناك بعض الجزر قبالة الأوطولوليين (Autololes) اكتشفت من قبل يوبا الذي أنشأ فيها معامل لصناعة النسيج الأرجواني [3] من جيتوليا (Gétulie)...

* وقد تحدث الجغرافي والمؤقت اليوناني بطوليموس (Ptolémée) الذي توفي حوالي سنة 168ميلادية عن حال موريطانيا الطنجية فقدم طائفة من المعلومات التي رددها بعض الذين كتبوا من بعده...

لقد تحدث عن الحدود الغربية لموريطانيا الطنجية التي تنطلق من بوغاز هرقل[4] الى الأطلس الكبير وهنا يقدم بطوليموس جردا بأسماء بعض الأعلام الجغرافية المغربية القديمة وأمامها تحديد مواقعها بالدرجات الفلكية...

---

(1) فيما يتعلق بالنوع المسمى الأبيطاس يوجد إسم مقارب وهو (Alabote) الذي هو الإسم البرتغالي لـ (Fletan)، أما النوع كوراسين فيمكن أن يكون (Coracinus Boons) وهو إسم علمي قديم لـ : Ubrina Cirrosa = أي (Ombrine) باللغة الفرنسية، كما يمكن أن تكون (Corchalcis) وهو الإسم العلمي القديم لـ (Sciena Umbra) أي (Corb) باللغة الفرنسية، وهي معلومات من السيد بيير بوبران (Beaubrun .P) الأستاذ المساعد الباحث بالمعهد العلمي (الرباط)، أما فيما يتصل بنوع سيليور فقد أفاد الزميل حجوب المسوكر قيدوم كلية العلوم أنه سمك أوربي أسيوي ويعطيه المنهل إسم (جري) قائلا : إنها سمكة نهرية بلا حراشف.
الشريف الإدريسي، «نزهة المشتاق» طبعة نابولي، ج ؟ ص. 34.

(2) يذكر هذا فيما يرويه بعض المؤرخين والجغرافيين العرب عن (النيل) جنوب المغرب.
الإدريسي، المصدر السابق، ص. 32، رحلة ابن بطوطة ج 4 ص 395 تعليق 47.

(3) لا ننسى أن اللون الأحمر كان هو شعار الملوك على ذلك العهد قبل أن نسمع به شعارا لأشراف العرب : يقول المتنبي:

مَن الجآذر في زي الأعاريب * حمر الحلي والمطايا والجلاليب ؟

(4) هذا هو البوغاز الذي سيعرف في التاريخ باسم جديد هو بوغاز جبل طارق تخليدا للعبور - نحو القارة الأوربية - الذي قام به طارق بن زياد.

ويختم بطوليموس بالإشارة الى الجزر التي توجد على طول الساحل الغربي من هذا الإقليم في البحر الخارجي...

وقد قدم لنا الجغرافي اليوناني يوسانياس (Pausanias) من أهل القرن الثاني بعد الميلاد بعض الإفادات، فهو يذكر أن هناك أيضا جيرانا آخرين للمور (Maures) : الإيثيوبيون الذين يمتدون الى ناسامون (Nasamons) وهو يقول : إن مياه نواحي الأطلس تشكل في الحقيقة ثلاثة جداول بيد أن أي واحد منها لا يكون نهرا لأن الرمال تبتلعها مباشرة.

أما أنطونان (Antonin) فإنه يقدم لنا عن خط سيره لائحة للطرق الرومانية الكبرى لموريطانيا الطنجية، وقد حررت في عهد كاراكالا (Caracalla) : وهي مفيدة بالنسبة لرجال الأثار...

وهناك إفادة من بول أوروز (Paul Orosc) الأسقف الإسباني الكاتب باللاتينية المتوفى حوالي 418 ميلادية الذي طرد من اسبانيا من لدن الوندال، وهي أي الإفادة تتحدث عن منبع النيل... والأسقف أوروز من القدامى أيضا الذين نعتوا السكان الأهالي بالباربار...

وهناك مؤرخ يوناني ديون كاسيوس (Dion Cassius) توفي حوالي سنة 235 ميلادية، تحدث بدوره عن منبع النيل [1]، كما يتحدث عن الأطلس الذي قال عنه : إن الشعراء يصرحون بأنه هو يحمل السماء، إن أحدا لا يستطيع الوصول الى قمته... ولأجل هذا فهو دائما مكسو بالثلوج التي تأخذ في الذوبان والسريان عند الصيف...

وهذا جغرافي مجهول الإسم ينتسب للمدينة الإيطالية رافين (Ravenne) يظهر أنه كتب حوالي عام 700م (أي بعد ظهور الإسلام)، وقد أكد ريموند روجي (Raymond Roger) أنه أساء استعمال خريطة سابقة قريبة من التي وصلتنا تحت إسم بوتينجي (Peutinger) بل إنه حرفها، ومع ذلك فإن كلامه لا يخلو من فائدة ودورافين بدوره يطلق على السكان إسم الباربار[2].

---

(1) يراجع الشريف الإدريسي، «نزهة المشتاق»، رحلة ابن بطوطة ج 4 ص. 395.
الناصري، الاستقصا 2، 7.

(2) R .Roget, Le Maroc chez les auteurs anciens, p. 13, note 1

وقد كان مما ذكره دورافين أن هناك صحراء شاسعة الأطراف، وأن وراء هذه البلاد، بعيدا عن المحيط، توجد ثلاث جزر. أمام هذه البلاد التي لها واجهة طويلة على البحر توجد البلاد التي تسمى موريطانيا الطنجية... ومن جهة أخرى فإنه يوجد في الأمكنة الجبلية الوعرة الجرداء بلد كبير : جيتوليا (La Gétulie)...

ونختم هذه الإفادات بحديث أفلاطون (Platon) عن جزيرة (أطلانتيد : Atlantide) نظرا لما فيها من فائدة للذين يهتمون بجغرافية المغرب عند الأقدمين.

«... عظيمة وكثيرة هي مآثركم ومآثر بلادكم، هي محل إعجاب. وإن مأثرة واحدة من تلك المآثر تفوق غيرها عظمة وبطولة، حقيقة إن مؤلفاتنا تحكي كيف أجهزت حاضرتكم في القديم على دولة متغطرسة كانت تهيمن في مرة واحدة على أوربا وسائر آسيا. لقد انقضضتم عليها في قلب المحيط الأطلسي، في ذلك الوقت كان يمكن فيه عبور ذلك المحيط الذي كان يحتضن جزيرة قبالة هذا الممر الذي يسمونه، أعمدة هرقل، كانت تلك الجزيرة (Atlantide) أكبر من ليبيا وآسيا معا. والمسافرون على ذلك العهد كان في إمكانهم أن يتنقلوا من هذه الجزيرة الى الجزر الأخرى، ومن هذه الجزر كان في استطاعتهم أن يصلوا الى سائر أطراف القارة على الساحل المقابل لهذا المحيط الذي يستحق الإسم الذي أعطي له...

في جزيرة الأطلانتيد (Atlantide) هذه كون الملوك امبراطورية عظمى مدهشة ورائعة، كانت سيدة الجزيرة كلها وكذلك سيدة لعدد كبير من الجزر والأطراف من القارة. وبالإضافة الى هذا فمن جهتنا كانت هذه الإمبراطورية تهيمن على ليبيا الى مصر وعلى أوربا الى تيرينيا (Tyrrhénie). هذه الدولة بعدما ركزت سائر قواتها قامت في دفعة واحدة بتسخير بلادكم وبلادنا وكل الذين يوجدون في هذه الجهة من البوغاز.

إن عظمة حاضرتكم لفتت أنظار الجميع الى بطولتها وشهامتها وقوتها لأنها تفوقت على سائر الآخرين بقوة عزيمتها وفنها العسكري... لقد كانت على رأس اليونان، ثم، وقد أسلمت من لدن الآخرين، وأوشكت أن تصل الى حد الخطر - قهرت - وحدها - عن الاضطرار - المغيرين وشيدت معالم النصر وحمت من العبودية كل الذين لم يسبق لهم أن كانوا عبيدا ! وبدون حقد حررت سائر الشعوب وكذلك نحن الذين كنا نسكن أعمدة هرقل... وفي الوقت الذي تبع هذه الأيام المحجلة... حدثت هنا زلازل قوية ورجات عنيفة.

وفي ظرف يوم واحد وليلة واحدة مهولة، كل سائر جنودك ابتلعتهم الأرض دفعة واحدة، وفي ضمن ذلك جزيرة الأطلانتيد التي هزت واختفت في المحيط...

الفصل الثاني

الكيان المغربي

- لغة السكان الأولين
  - المجموعات اللغوية الثلاث
  - تأثر سكان السواحل المغربية بلغة الواردين
- تصنيف السكان الأولين
  - هل هناك وحدة سلالية أمازيغية ؟
- دور الجماعة في اتخاذ القرار
  1- بناء الهيكل الاجتماعي للأمة
  2- العلاقة بين الإمارات المحلية والأمم المجاورة

الكيان المغربي

لا نعلم شيئا دقيقا عن طوائف السكان الأولين بشمال إفريقيا إلا ما عرفناه من خلال ما قرأناه عن أمثال الذين اختصرنا شهاداتهم في الفصل السابق، ومع ذلك فإنه نظرا لوجود شمال إفريقيا في قلب العالم القديم فإن من المؤكد أن هذه الأرض تلقت دون شك أفواج المهاجرين الذين وفدوا عليها من آفاق مختلفة...

ولا يصح القول بأن هذه الأرض كانت منعزلة عن العالم بالبحار والصحراء، فمنذ العهد القديم كان المغرب على اتصال بالصحراء وما يقع خلفها على ما يستفاد من رسوم لعربات تجرها الخيول وجدت منقوشة على الصخور في عدد من المواقع التي كانت تربط الجنوب المغربي بباقي إفريقيا السوداء وهي ترجع لأواخر الألف الثاني قبل الميلاد.

أما من ناحية المشرق فإننا لا ننسى أن شمال افريقيا يتصل برا بآسيا عن طريق مصر، وهكذا فإن الأغلب على الظن أن موجات بشرية قدمت الى هذه الجهات من الشرق خاصة من فلسطين واليمن، نظرا للتشابه الموجود بين صناعات هذه الأقوام هنا وهناك.

وإذا عرفنا أن وسائل الحضارة ومنتجاتها الصناعية لم تكن في تلك العهود الغابرة تنتقل بمفردها، أمكننا الاقتناع بأن طوائف بشرية قد انتقلت من الشرق، من أماكن مختلفة - الى هذا الشمال الإفريقي في عهود قديمة وأنها هي التي حملت معها صناعتها وثقافتها الى هذه الأرض.

وإذا أمكن أن تفد على شمال افريقيا أفواج بشرية من بابيه : الجنوبي والشرقي، فلا شك أن أفواجا أخرى وردت عليه من النافذة الشمالية أي من الساحل المقابل للحوض المتوسط : من أرخبيل (إيجي) ومن الهضبتين الإغريقية والإيطالية في مواجهة طرابلس، ومن الهضبة الإيبيرية في مواجهة المغرب، خصوصا وأن شمال إفريقيا لا تزال تسكنه الى اليوم طوائف متعددة ومتأصلة من ذوي الشعر الأشقر والعيون الزرق.

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار النظرية التي طرحها الأستاذ جوهن كلاًّغير (J. Callagher) وهو من علماء الآثار في جامعة فوردام (Fordham) حول النقوش التي اكتشفت في غابة كوكا بونسيت (Cockaponset) فيما نسميه اليوم كونيكتيكوت (Connecticut) وهي تتحدث عن عبور طائفة من المغرب الى الساحل المقابل من المحيط الأطلسي كما تتحدث عن نقوش أخرى عثر عليها على مقربة من واحة فجيج تحكي عن الطائفة التي أفلتت من قبضة الواندال، فإن الأمر يبرر التساؤل عما إذا كانت هناك هجرات قديمة من القارة الإفريقية الى القارة الأمريكية والعكس[1].

لغة السكان الأولين

لقد قيل إن اللغة البربرية منحدرة من لغة أم عريقة في القدم هي الليبية التي كان القوم يتكلمونها منذ نحو من ألفين من السنين أو أكثر، وهي ذات حروف صائتة منفصلة تحمل إسم تيفيناغ، اخترعوا بعضها من تلقاء أنفسهم، بينما اقتبسوا بعضها الآخر، عن طائفة من حروف اللغات المجاورة.

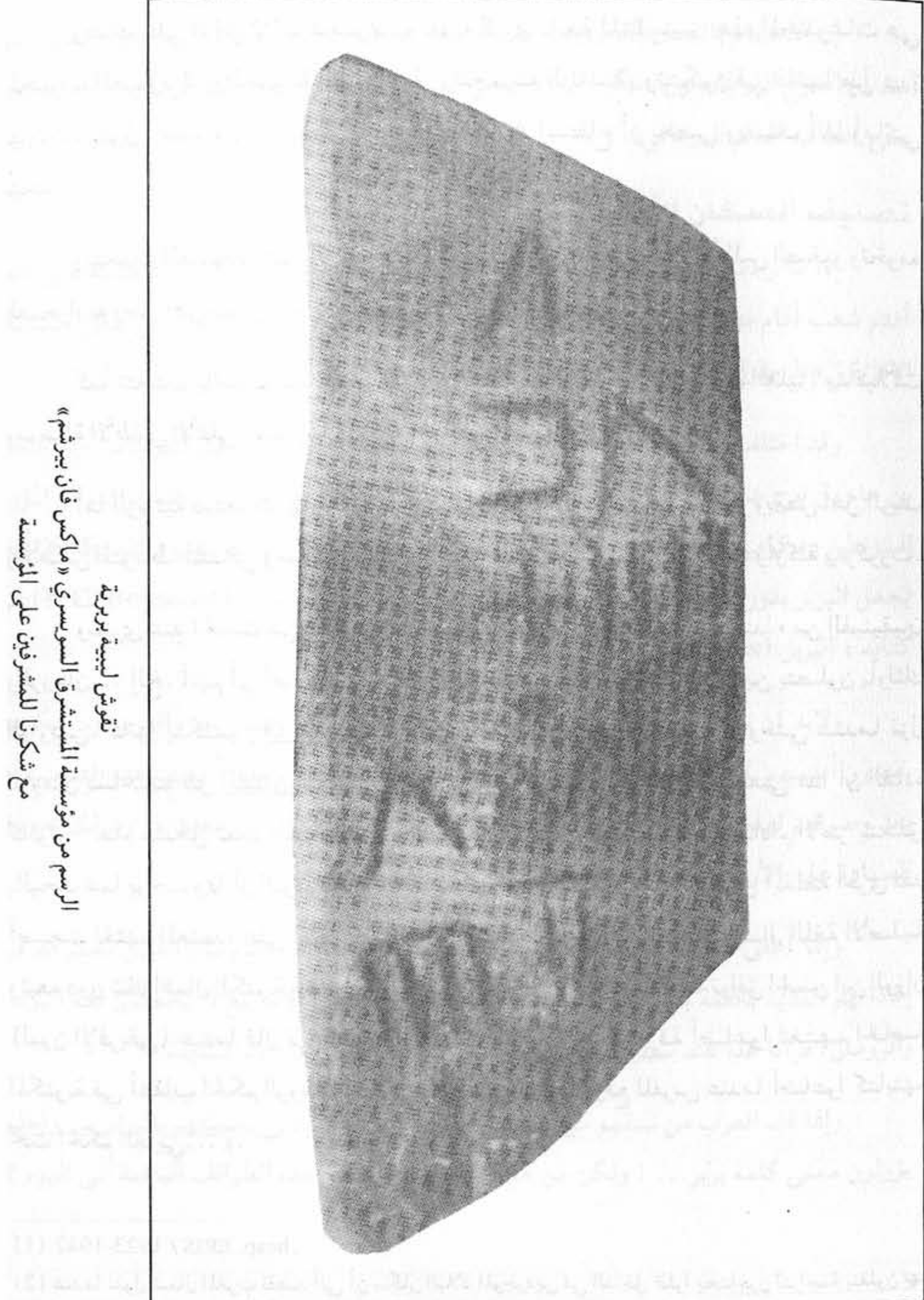
ولقد اهتم كثير من الباحثين في الخطوط الليبية وفيهم الأستاذ شابو (Chabot) [2] الذي أتى بنماذج لعدد من اللوحات التي تحتوي على الحروف لكن -و بالرغم من سائر الجهود المبذولة، فإن أحدا لم يصل الى حل رموزها ويبقى علمها عند الله[3].

---

(1) د. عبد الهادي التازي، «العلاقات المغربية الكنادية»، العدد 32 من مجلة البحث العلمي، ذو الحجة 1401=1981 .التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج. 3، ص. 202/203/204 ، رقم الإيداع القانوني 1986/25 مطابع فضالة (المحمدية).

(2) J.B. Chabot, Recueil des inscriptions Libique, Paris, 1940.

(3) د. التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج. 3، ص. 89/90.



نقوش ليبية بربرية
الرسم من مؤسسة المستشرق السويسري «ماكس فان بيرشم»
مع شكرنا للمشرفين على المؤسسة

وهناك على الأقل ثلاث مجموعات لغوية كبرى تابعة للتقسيم، هذه المجموعات هي المجموعة المصمودية، والمجموعة الصنهاجية، والمجموعة الزناتية، وتتكون في ذاتها من عدة لهجات، تفوق الحصر ولو أن أندري باصي A. Basset استطاع أن يحصي ويصنف ألفا ومائتي لهجة [1].

ويتحدث المصمودية على العموم سكان غرب الأطلس الأعلى وأهل الأطلس الصغير وتخومه الصحراوية وجل أهل سوس كما يتكلمها بعض الغماريين بغرب الريف.

كما تتحدث بالصنهاجية الجزائر والأطلس المتوسط بالمغرب وأهل ملوية العليا، وتافيلالت وموسطة الأطلس الأعلى وقسم من التخوم الجزائرية المغربية وطوارق الصحراء.

أما الزناتية فيتحدث بها أهل ليبيا وتونس وقسم صغير من أهل الجزائر وبعض أهل الريف والأطلس المتوسط الشمالي وجبال بني يزناسن وفي الصحراء يتكلمها أهل مزاب وأوكلة وتوكورت.

وسنرى عند الحديث عن علاقات أصحاب البلاد بالذين وردوا عليهم ابتداء من الفينيقيين والرومان... إلخ، أنهم أي أصحاب البلاد وخاصة منهم سكان الساحل من الذين يتصلون بأولئك الواردين، كانوا يتكلمون اللغة البونيقية، بها يتفاهمون وعليها يعتمدون، وحتى عندما نزل الرومان بساحتهم ظل اللسان البونيقي هو الذي يجعلهم على كلمة سواء، ومعنى هذا أن القادة كانوا - أمام مشكل تعدد اللهجات - مضطرين للاعتماد على لغة واحدة مادام الأمر يتعلق بالبحث عما يوحد، وبما أن البونيقية كانت أقرب الى مزاج السكان ومداركهم من أية لغة أخرى فقد أصبحت لغتهم المعتمدة على الأقل في شمال المغرب [2]، وهكذا تضاعف إهمال اللغة الأصلية وتبعه دون شك إهمال الكتابة بالحروف والعناية بالخطوط!، ومن هنا فلسنا نوافق الحسن ابن الوزان (ليون الإفريقي) عندما قال في كتابه (وصف افريقيا) «إن الأفارقة أضاعوا لغتهم الخاصة المكتوبة في أعقاب الحكم الروماني لبلاد البربر على نحو ما وقع للفرس عندما أضاعوا كتابتهم تحت الحكم العربي...».

(1) hcsp, ERIS / 1923-1942.

(2) عندما نقول شمال المغرب نقصد الى أن سكان البلاد الموجودين في الداخل ظلوا يحتاجون لتراجمة ينقلون لهم وعنهم على ما نلاحظه من خلال الإفادات التاريخية القديمة.

إن الاهتمام باللسان البربري، وبخاصة فيما يتعلق بالكتابة كان على مانرى، أخذ يختفي منذ أن امتزج القرطاجيون بسكان البلاد الذين أصبحوا يتكلمون اليونيقية طوعا واختيارا وليس حتى أعقاب الحكم الروماني...

تصنيف السكان الأولين

إذا ما رجعنا الى مصادر التاريخ فسنجد الحديث عمن سمتهم المصادر الأجنبية على أنهم أقدم شعب أقام بهذه الأرض، وأنه (أي هذا الشعب) هو الذي استقبل الواردين على الشمال الإفريقي منذ حلول الفينيقيين الأولين الى الغرب.

وقد اختلف الباحثون في أصول هؤلاء الأهالي فجعلهم بعض المؤرخين العرب من ولد كنعان بن حام بن نوح على نحو ما نقرأه في ابن خلدون فيكونون من أهل سواحل الشام، كما أن المؤرخ البيزنطي بروكوب (Procobe) يعتبرهم من فلسطين، فابن خلدون قريب منه وهكذا فكلا الرأيين يجعل البربر بدورهم من الوافدين على المغرب، وهذا ما يؤكده بوسكي (K.C. Bousquet) في كتابه : البربر (Les Berbéres).

ولابد أن نذكر بأن «الباربار» سالفي الذكر لا يعرفون أنفسهم باسم «البربر»، ولكنهم يسمون أنفسهم بالأمازيغ أي السادة، والمقبول عقلا أنهم لم يطلقوا على أنفسهم هذه التسمية إلا بعد وصولهم لهذه الأرض وتغلبهم على «من» وجدوهم بها من قبائل مختلفة، وبذلك أحرزوا السيادة على الأرض وعلى ساكنيها.

وإنما أطلق على هؤلاء «الأمازيغ» إسم (الباربار) اليونان والرومان الذين نعتوهم في إفاداتهم القديمة بكلمة باربار (Barbare) اعتبارا لكونهم أي الأمازيغ لا يحسنون لغة اليونان والرومان، قرأنا هذا عند سطرابون وبلين وأوروز ودورافين في الإفادات السابقة...

وإنما قلد العرب من سبقهم من أولئك [1] فدأبوا في كتبهم على تسميتهم بالبرابر... وأخذوا يؤولون معنى كلمة بربر... ! ولكن من هم أولئك الأمازيغ في هذه الطوائف الباقية الى اليوم مما

(1) S. Gsel, T. 5, P. 112, Note .7

نسميهم برابر بشمال افريقيا ؟ أما من ناحية التكوين الخلقي فالمتأكد أنهم أجناس وشعوب لا يشبه بعضها بعضا في الخلقة، ومعنى ذلك أن الوحدة الجنسبة السلالية منعدمة انعداما كليا بين مجموعة الطوائف التي تحمل اليوم هذه التسمية، بل إن انعدام هذه الوحدة السلالية ثابت في الجماجم وفي الهياكل العظمية التي استخرجها العلماء بعناية من مدافنها العتيقة ودرسوها دراسة أنثروبولوجية واستنتجوا أنه «ليس هناك جنس بربري».

وإذا ما ساغ لنا أن نعتمد في هذا الصدد على ما قاله أيضا اليوم، العلماء المتخصصون في الأصناف الدموية وخاصة ما وصل إليه البرفيسور جان بيرنار عضو أكاديمية المملكة المغربية والمعروف على الصعيد العالمي، فإننا لا نجد فرقا يذكر بين المتساكنين شمال الصحراء أو جنوبها فضلا عن أن تكون هناك فروق بين الذين امتزجوا بعضهم ببعض عبر القرون الخالية [1].

وقد سمعنا منذ الحديث عن حكومة قرطاج عن ممالك في افريقيا الشمالية كان منها ما يتصل بقرطاج وهي مملكة ماسيليا، وأشهر من تبوأ عرش هذه المملكة ماسينيسا، تليها مملكة ماسيليسا، وأشهر من حكمها زعيم يدعى سيفاكس وتأتي بعدهما مملكة موريزيا أو مملكة الموريين وأهشر من جلس على كرسي الحكم فيها يوبا الثاني [2].

أما على العهد الروماني فقد قسم الأهالي كما سنرى الى أربع طوائف هي على العموم : إفريقية، ونوميديا، ويتلو هذه موريطانيا ثم تأتي جيتوليا. وقد ذكر الرومان داخل كل طائفة أسماء عدد من القبائل التي تكونها.

وقد تغير التقسيم مع ظهور العرب في المنطقة، فقد ذكر الأصطخري في كتابه (مسالك الممالك) (340هـ = 951م) أن البربر بأرض الأندلس وسائر المغرب صنفان صنف يقال لهم البتر، وصنف يقال لهم البرانس.

---

(1) عن الندوة الصحفية للملك الحسن الثاني رحمه الله يوم 8 مارس 1985.

تراجع الوثائق الملكية التي ترجع لهذا التاريخ...

(2) Luis De St. Quentin, 3000 Ans avec les Berbers, préface de George Marçais, Delagrave 1949, p. 53.

وقد ذكر ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك (367هـ = 978م) أنهم قبائل بالمغرب لا يلحق أعدادهم ولا يوقف على آخرهم لكثرة بطونهم وتشعب أفخاذهم وقبائلهم وتوغلهم في البراري وتبددهم في الصحاري ولهم ملوك على مقاديرهم مقدمون، يطيعونهم ولا يعصونهم ويأمرونهم فلا يخالفونهم...» وقد اقتصر البكري (تـ 487 = 1094) على ذكر عدد من قبائل البربر بمناسبة حديثه المسهب عن ممالك برغواطة...

دور الجماعة في اتخاذ القرار :

1) بناء الهيكل الاجتماعي للأمة

2) العلاقات بين الإمارات المحلية والأمم المجاورة

لقد كانت القبائل المغربية، كما أشرنا سابقا، تشكل عددا من الإمارات والممالك، وبالرغم من أن المصادر سواء منها الفينيقية أو اليونانية والرومانية تخذلنا عندما نحاول أن نقف على تفصيلات مدققة عن حياة تلك الإمارات ونظامها. إلا أننا سنقف بالرغم من ذلك الخذلان - من خلال ما كتبه الأقدمون - عن حياة أشبه ما تكون بما ردده الجنرال ليوطي عندما قال عن المغرب أوائل القرن العشرين، وبالذات بتاريخ 18 نونبر 1920 : إنه وجد في المغرب دولة وشعبا... ويكفي - يقول ليوطي - أن نرجع الى الوراء، بضع سنين، لنجد حكومة فعالة تبرز المغرب كدولة، لها وزراؤها الكبار، ولها سفراء سبق لهم أن خالطوا وعاشروا...

أما المؤسسات التي تنبثق من الحكم فقد كان معظمها عندما جئنا الى المغرب ما زال قائما وإن كانت تختلف باختلاف المناطق إلا أنها كانت تمثل حقائق ملموسة... كانت هناك مؤسسات قروية واجتماعية، فالمدن تدار إدارة حسنة وحكيمة، كما كانت هناك شبه تعاونيات ومجالس جماعية للقبائل وشركات تجارية لها [1]...».

قبل الجنرال ليوطي بمئات السنين أي قبل ميلاد المسيح قرأنا عن الرومان يتحدثون عن الحياة في المغرب بمثل ما تحدث به ليوطي ! وهكذا نقرأ في سطيفان گزيل فصلا طويلا عن الممالك

1) ينبغي أن نقارن ما جاء في هذه الشهادة المنصفة مع ما ورد في تقرير الجنرال جوان بتاريخ 16 شتنبر 1950 الذي ينكر فيه على المغرب ماضيه المعروف... كتب هذا التقرير في أعقاب توتر العلاقات بين الإقامة العامة وبين القصر الملكي... د. التازي : الصدى الدولي لعلال الفاسي : محاضرة لمؤسسة علال الفاسي 1999/9/24.

الأهلية، بتنظيمها الاجتماعي والاقتصادي : في المدن المغربية كما في الأطلس نجد نوعا من التنظيمات التي تعود الى أزمان قديمة.

إن لفظ «الجماعة» الذي ما يزال منتشرا الى اليوم في الاصطلاح المغربي بما يدل عليه من شورى عند اتخاذ القرار هو نفسه الاصطلاح الذي كان معروفا منذ فجر التاريخ...

لقد كان على كل قبيلة أن تنتخب «جماعتها» التي تتولى تسيير شؤون القبيلة والقرية والمدينة، وتتبنى القرارات التي تقتضيها الظروف وخاصة أيام الحروب عندما يتعلق الأمر بدفاع عن الحوزة أو هجوم على المعتدي.

وتختار الجماعة من الممثلين لكل فريق، وينتخب هؤلاء عادة ممن حنكتهم التجارب وعركتهم الأيام والأعوام فهم من حيث المبدإ شيوخ «القصور» بالمعنى المتعارف عليه في الجنوب المغربي، أي القرى والمداشر...

ويتألف من تلك «الجماعات» مجلس «فيديرالي» يمكن له أن يختار «من» يستحق قيادته طوال فترة معينة تقتضيها الظروف التي تمرّ بها البلاد ...

وقد وجدنا أن في جملة ما يدخل في نشاط تلك «الجماعات» تعهد الطرقات وتحديد مجاري المياه وتوزيع حصص السقي على كل حسبما يملك... كذلك توزيع الأراضي الفلاحية حيث يوجد الملك الجماعي وتحديد الأراضي بين أفراد العائلة الواحدة، وتقنين العمل على المحكوم عليهم...

والى جانب هذا، هناك التداول حول علاقات الصلح والحرب مع الجيران الأقربين والأبعدين... وحول الطريقة التي يستقبل بها الوفود والضيوف الذين يردون على القبيلة لمعالجة مشكل أو مفاتحة حول موضوع ما من المواضيع...

وبالرغم من أن القبائل تميل الى الاستقلال، فإنه من غير المقبول إطلاقا في العرف المغربي أن يسمح لقبيلة ما بالانتقام لنفسها من غيرها... إن الجماعة وحدها لها الحق في أن تدرس موضوع الشكوى وتقتص من الظالم، وهي وحدها التي تفرض الذعائر على من يتجاوز حدود السلوك... ومعنى هذا أن هناك قوانين ولو أنها غير مكتوبة، لكنها تتحكم في ضبط القضاء بين الناس.

وهكذا نرى أن «الجماعة» المنتخبة هي السلطة الوحيدة في المدينة والقرية.

وفي أغلب الأحيان نرى أنه من أجل احترام قرارات الجمعية العامة والحفاظ على الأمن، تكون طائفة من الحراس والأعوان حسبما يراه عمدة الجماعة.

ومن هنا يصح القول بأن المغرب شهد، قبل مجيء الرومان، على الأقل بخمسة قرون قبل الميلاد، الوحدات السياسية التي تحتضن الوحدات الاجتماعية المكونة بدورها من الأسر والعائلات التي يكون عليها أن تتنازل أحيانا عن حقوقها رعيا لمصلحة الجماعة.

وكثيرا ما نجد أن «الشيخ» الذي تنتخبه الجماعة لفترة معينة يستمر في عمله اعتمادا على تزكية أو عصبية فيصبح ملكا للبلاد، ومن هنا وجدنا الحديث عن ملوك المغرب والممالك المغربية منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وجدنا بعد ذلك قطعا مكتوبة باليونانية واللاتينية تتحدث عن أمراء مغاربة يعتمدون في تسيير الحكم على جماعة من الأعيان والنبلاء المعروفين في البلاد...

وعندما تدرك الوفاة ملك البلاد، فإنه يعوض بابنه الأكبر أو بقريب له قد يكون ابن أخيه أو ابن أخته على ما يحكيه البكري عن بعض ممالك المنطقة...

وإن مما يدخل في عمل هؤلاء الملوك والأمراء والشيوخ إبرام الاتفاقيات بينهم وبين الممالك المجاورة وكثيرا مما تتوارث تلك الاتفاقيات على مدى الأجيال، وفي أغلب الأحيان نجد أن هذه المعاهدات تقترن بعقود زواج بين زعماء هذه الممالك لضمان استمرار مفعول الاتفاقيات... هذا الى جانب الاتفاقيات التي تبرم بين الرحالة والمقيمين، وإن ضرورة الحاجة الى الكلأ جعل أهل الجنوب يبحثون عن جيرانهم في الشمال... بين نوميديا وموريطانيا وبين جيتوليا وإثيوبيا...

ولا شك أن حديث الرومان عن المغاربة القدامى في عهدهم [1] إنما يعكس الوضع المغربي أيضا في العهد الفينيقي والقرطاجي على ما يمكن أن يستشف أيضا من خلال المرويات ولو أنها نادرة وقليلة...

(1 S.Gsell : Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, T.V. P.63 66,82/152.

إن المغاربة لم يستحقوا الذكر لدى المؤرخين القدامى إلا عندما أدَّوا دورهم العظيم في الحروب التي شبت فيما بين الفينيقيين من جهة وبين اليونان والرومان من جهة أخرى، تلكم الحروب هي التي أملت ترديد صدى الإنسان المغربي وصدى الأرض التي يعيش عليها المغاربة بما فيها من ضايات وأنهار وبحار وجبال وغاب... فلقد كان عسيرا على أولئك المؤرخين أن يتحدثوا عن تلك الحروب دون ما أن يجدوا المغاربة في طريقهم، ودون ما أن يضطروا لذكرهم وذكر علاقات ممالكهم بعضها بالبعض الآخر... أضف الى هذا أن المغرب أصبح لفترة من الفترات التاريخية، تابعا لعجلة الرومان فكان لزاما على أولئك المحتلين أن يتتبعوا وأن يهتموا بأمر مستعمراتهم...

فمن ثمت سمعنا عن بعض ما كان يجري بين الممالك المغربية مما يقتضيه الجوار من حوار أحياناً وغارات حيناً آخر وصلح حيناً ثالثاً...

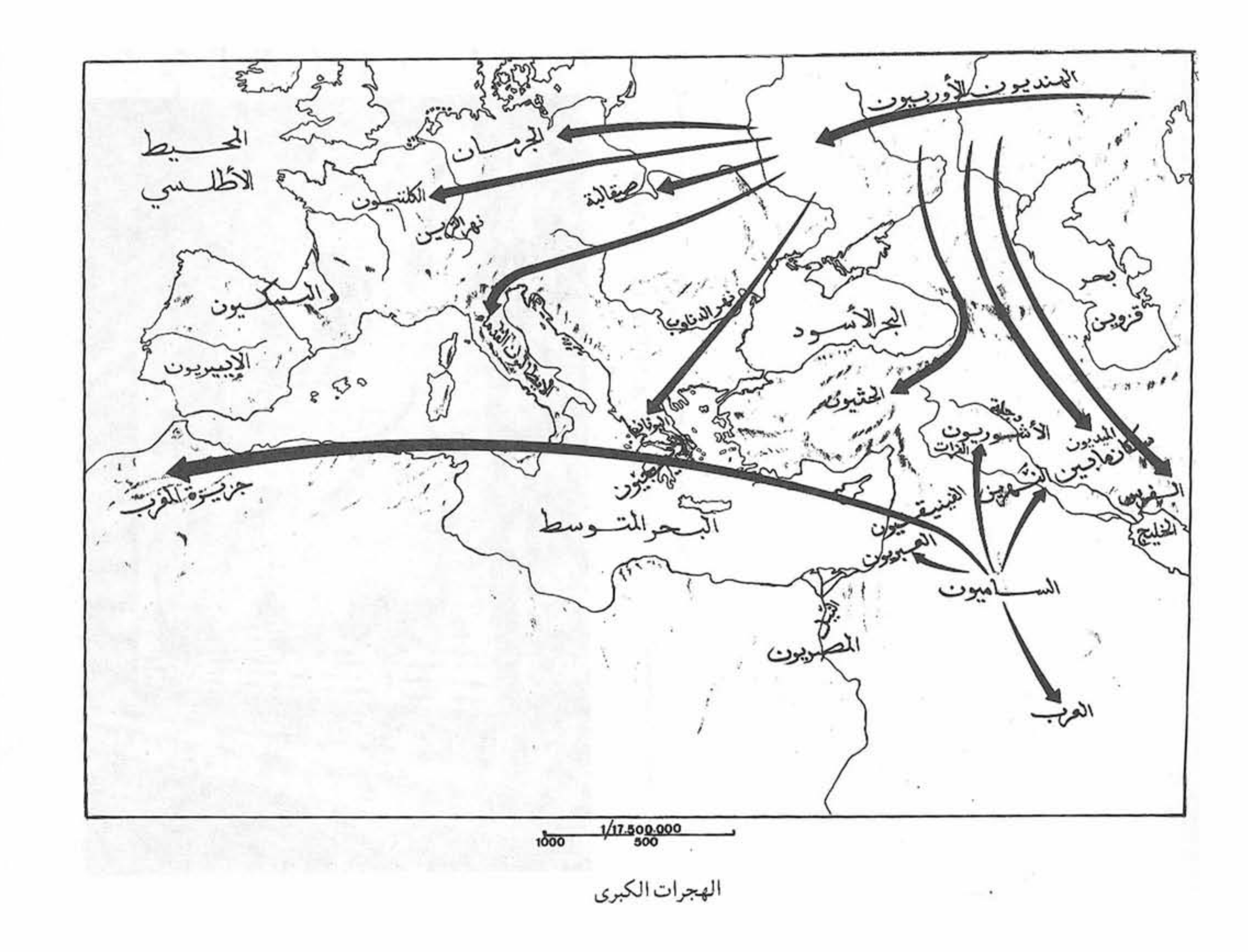
إن ذلك الجوار بين الممالك كان يفرض إنشاء صلات مستمرة فيما بينها تهدف لتسوية القضايا والمشاكل التي تتجدد نتيجة للتنافس على الأراضي الخصبة والنفوذ السياسي [1]... وحسب الآثار الباقية، فإن المغاربة القدامى كانوا على اتصال دائم بالأقوام الذين يجاورونهم فيما وراء البحر المتوسط أو «البحر الداخلي» كما تسميه الوثائق القديمة [2].

---

1) S.Gsel : T.S, 74-77
2) S.Gsel : T.1, 327-357 T.6 P.80



فسيفساء فوليبليس هدية من : J.D. Moyes, University of Western Australia



الهجرات الكبرى

الفصل الثالث

علاقات المغرب بالفينيقيين والقرطاجيين

- الحاسة التجارية للفينيقيين
- إنشاء مدينة قرطاج
- انتقال العاصمة من صور الى قرطاج
- رحلة حانون مرة أخرى
- مساعدة المغاربة للفينيقيين والقرطاجيين في مهاجمتهم لليونان

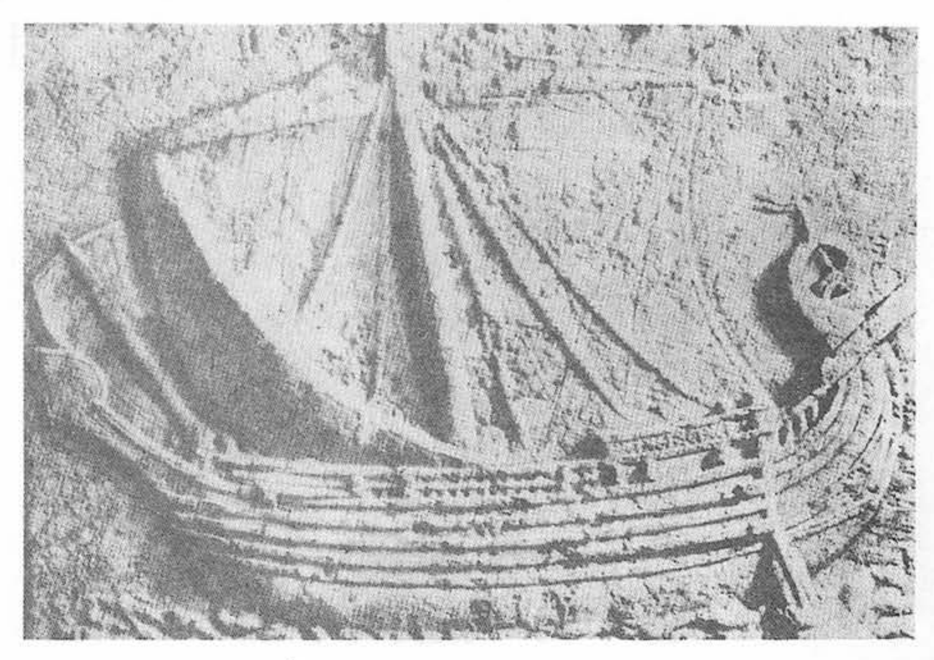
علاقات المغرب
بالفينيقيين والقرطاجيين

بالرغم من أن الفينيقيين قليلوا العدد لكنهم اشتهروا بتحركاتهم التي يعرفها الناس في كل مكان... كانوا يسكنون الناحية الساحلية من بلاد الشام وكانت عاصمتهم هي مدينة صور.

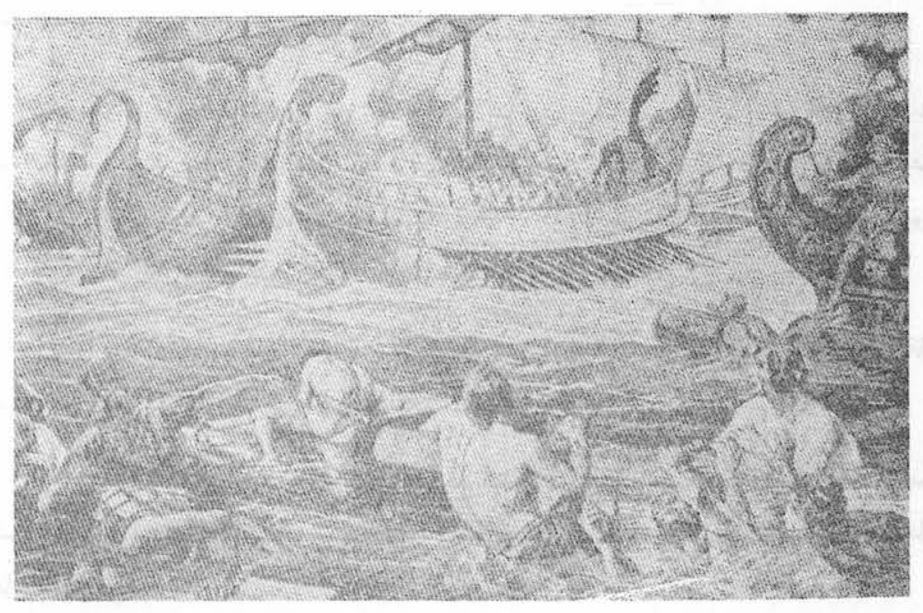
ولم يكونوا قوما مقاتلين ولا حتى فلاحين كالاشوريين والكلدانيين، وإنما كانوا تجارا بكل ما تحمله الكلمة من معنى... كما أنهم كانوا في الوقت ذاته بحارة ماهرين، لقد حبت الطبيعة بلادهم بأشجار الأرز التي تغطي الجبال، ومن أخشابها المتكاثرة كانوا يبنون سفنهم ومراكبهم التي جابوا بها حوض البحر المتوسط وتقدموا الى البحر المحيط... وحتى بحر الشمال...

ربطوا صلاتهم بعدد من الأمم... فكانت لهم مع الفراعنة اتفاقيات تجارية تسمح لهم بنقل البضائع من مصر للاتجار بها في أطراف البحر المتوسط.

ومن هنا ابتداء تاريخ تعاقد الفينيقيين مع أهالي شمال افريقيا حيث وجدوا ضالتهم المنشودة وتهافتوا على هذه البلاد حيث أنشأوا محطات تجارية كانت نواة لمدن هامة تربط الساحل بالمغرب الداخلي.



تفنن الفينيقيون في صنع المراكب بفضل ثرواتهم الخشبية فكانوا أول من فرق في الصناعة بين سفن التجارة وسفن الحرب... فكانت سفينة الحرب منخفضة ومستطيلة بينما تميزت سفينة التجارة بشكلها المستدير وبحجمها الكبير



صورة واقعة بحرية بين القرطاجيين والرومان سنة 218
عن كتاب الحلل السندسية للأمير شكيب أرسلان ج 2 ص 202

إنشاء مدينة قرطاج

ولم تلبث مدينة صور أن أخذت في الاختفاء بسبب إنشاء مدينة قرطاج (على الجانب الغربي من المتوسط) وهكذا ففي القرن التاسع قبل الميلاد فرت من (صور) الأميرة ديدون (Didon) أخت بيكما ليون (Pygmalion) بعد وفاة زوجها (Sichée) لتتلخص من متابعة أمير محلي... ونزلت بالساحل الشرقي لبلاد المغرب.

وهنا كان عليها أن تفاوض أصحاب البلاد الذين كانوا يتمتعون بنظام يعطي الكلمة الأولى - كما أسلفنا - لرئيس الجماعة الذي يحمل في اللسان الأمازيغي القديم لقب «أكيليد».

لقد سألت الأميرة ديدون الرئيس البربري : هل ما إذا كان يقبل أن يبيع لها قطعة أرض صغيرة في مقابلة أي ثمن يطلب ؟ فسألها عن المساحة، فأكدت له أنها لا تعدو مقياس جلد عجل ! وهنا قبل الرئيس... وتقدم أحد رفاق ديدون فأخذ يقدد الجلد سيورا دقيقة جدا... بحيث كونت في الأخر ألاف الأمتار... ! وهناك أحاط بها قطعة من الأرض كانت ذات مساحة كبيرة ... ! وقالت ديدون : هذه هي القطعة التي اشتريت ! ولم يسع الرئيس إلا أن قبل... حيث رأينا قلعة محصنة تقوم هنا، ولم يلبث الملوك الذين خلفوا (ديدون) أن شيدوا حول القلعة مدينة كبرى أخذت إسم قرطاج.

وهكذا تابع القرطاجيون طريق الفينيقيين الأولين فمضوا في تجارتهم البحرية وأسسوا لهم مستودعات على الشاطئ في نقاط كان أسلافهم أصحاب صور، ربطوا في شأنها علاقات مع الأهالي...

لقد كان القرطاجيون ومن قبلهم يبيعون لهذه البلاد ما كانوا يصنعونه أو يجلبونه من جهات أخرى كالأقمشة والأواني الخزفية والمواد العطرية وأحجار مصر في مقابل البضاعة المغربية من ذهب وجلود للحيوانات : الأيل (بالياء) والسباع والفهود والفيلة... وريش النعام كما نقرأ عند سيلاكس... ولقد كان القرطاجيون يبيعون ذلك في الخارج حيث يحصلون منه على أرباح باهظة.

سنرى أن قرطاج اجتازت ثلاث فترات في تاريخها : كانت في بدايتها تابعة للعاصمة صور، وأصبحت بعد مستقلة، ولكن لتنهار في الأخير أمام ضربات منافسيها الرومان، فخلال قرنين ونصف تقريبا كانت تنفذ السياسة التي يخططها حكام صور، والتي كانت تهدف الى المحافظة على سيادة الفينيقيين على البحار الغربية وتنشيط الأساطيل، ولما سقطت العاصمة صور في

قضية البابليين سنة 574 ق.م. انتقلت السيطرة من فينيقيا الى قرطاج التي أسست لها أكبر قوة بحرية وتجارية بغرب البحر المتوسط.

ولابد من التذكير بإحدى الرحلات الاستكشافية التي أخذت قرطاج تشجعها من أجل البحث عن محطات أخرى للتخفيف عن قرطاج من التضخم الحاصل بها لكثرة الواردين عليها، ويتعلق الأمر بالرحلة الواسعة التي كان على رأسها القائد البحري حانون (Hannon) سالف الذكر في الفصل الأول، ولقد وصفت المذكرات التي سجلتها تلك الرحلة بمثابة «عقد ازدياد» لبلاد المغرب وهي كذلك كما نرى [1] !

وقد لوحظ على خط سير حانون عدم وجود بعض المواقع، كما لوحظ أحيانا بعض الغموض أو الخلط... الأمر الذي قد يكون باعثه - في نظرنا - تعمد إخفاء معالم الطريق على الذين يحاولون أن يتتبعوا خطى البونيقيين من اليونان والرومان... وإن الذين يعرفون عن الحاسة التجارية التي اشتهر بها الفينيقيون لا يستغربون هذا التأويل، وقد حكى أن أحد البحارة القرطاجيين فضل أن يغرق سفينته ويقتل نفسه عندما رأى من بعيد أن مركبا آخر يتقفى أثره لمعرفة الطرق التجارية المسلوكة...! إنها قصة تدل على مدى الإخلاص لسر المهمة والمهنة !

عندما واجهت قرطاج اليونان بمساعدة المغاربة

ولقد أدى التنافس بين الفينيقيين والقرطاجيين من جهة وبين اليونان في صقلية التي توجد على مقربة من قرطاج، الى احتكاكات دامت سنين عديدة كانت تتخللها هدنات قصيرة الأمد... بيد أن الإغريق استطاعوا أخيرا أن يوجهوا ضربة موجعة للقرطاجيين في سنة 480 ق.م.

لكن قرطاج لم تيأس من اكتساب موضع قدم في صقلية، وهكذا عادت آخر القرن الخامس، وبمساعدة المغاربة وبتحالف مع الفرس كذلك ففتحت ثلث الجزيرة وختمت المعارك بعقد هدنة بين قرطاج وأمير سرقوسة، لكن ثورات داخلية وخاصة «انتفاضة المغاربة» عام 396 وعام 379 التي

---

(1) Gsel : Histoire ancienne de l'Afrique du Maroc T.a P.472

G. Marcy. Notes Languistique autour de périble d'Hannon, Hesp. 1935; T.XX PP. 21 72 X1 carte.

قام بها المغاربة ضد قرطاج، كانت وراء استدعاء قرطاج لجيشها من صقلية وقبول عقد اتفاق يقضي بانسحاب قرطاج من جميع أطراف الجزيرة.

وبالرغم مما كان يحدث أحيانا بين المغاربة وبين الفينيقيين والقرطاجيين من احتكاكات فإن طول العشرة بين الجانبين جعل العلاقات تزداد تلاحما على مر الأيام...

إن ما كان يجمع بين قادة هؤلاء وقادة أولئك كان أكثر من رابطة... فقد قرأنا عن تأثر كل من الطرفين بالآخر في العادات والأعراف : رأينا أن المغاربة دأبوا على التحصن برسم كف اليد باعتباره يحمي من عيون الشر [1] وكذلك في المعتقدات حيث رأينا طائفة من المغاربة يقدسون معبودات قرطاج والعكس أيضا ملحوظ... إن هناك بعض الأشياء المحترمة عند المغاربة لم تلبث أن أصبحت هي بدورها محل عبادة من الآخرين : بعض الجبال والأشجار والكواكب : الشمس والقمر، بعض الحيوانات كالكبش !

وتبع بعضهم الديانة اليهودية التي وردت مع المهاجرين الأولين من المشرق منذ العهد الفينيقي في أعقاب حملة ملك بابل بختنصر الثاني على أورشليم (بيت المقدس) [2].

لقد كان المهم بالنسبة للقرطاجيين أن تنجح تجارتهم، وهذا الهدف بالذات لم يكن ليضايق المغاربة لأنهم فعلا كانوا يبحثون عمن يكفيهم متاعب التجارة!!

ويمكن أن نلاحظ أثر التفاهم بين الجانبين في الإقبال العظيم من جانب المغاربة على اللغة الفيفيقية حتى صاروا في بعض أطراف المغرب لا يتكلمون غيرها بل إنها أصبحت اللغة المتداولة... وأصبحت حروف الهجاء والأرقام هي نفسها التي يعتمدها المغاربة القدامى، وظهر ذلك على آثارهم ومعالمهم.

---

1) يلاحظ قول الشريف الادريسي في نزهة المشتاق إن لأهل زناتة معرفة جيدة في علم الكشف عن المغيبات، ولا ندري أن أحدا من الأمم أعلم من زناتة بعلم الكتف... النزهة، ص 88.

2) كانت الهجرة اليهودية الثانية للمغرب بعد هلاك الاسكندر على عهد بطليموس صاحب مصر حيث حاصر هذا الملك أورشليم وطرد اليهود منها فانتقل بعضهم إلى الشمال الافريقي هام 320ق.م، وكانت الهجرة الثالثة في عهد الامبراطور أدريانس... (1921-1948) HESP.

وقد اتخذ المغاربة أسماء لأبنائهم مقتبسة من أعلام فينيقية، وهو تعبير عن التقدير الذي كانوا يكنونه للقرطاجيين، وهكذا فهناك مغاربة كانوا يحملون إسم مستنبعل (Mastanabal) وأذربعل (Adherbal).

وإن مما يعبر عن هذا الامتزاج، تلك المصاهرات العديدة بين قادة هؤلاء وأولئك، تلك المصاهرات التي لا يخفى علينا أثرها على الجوانب السياسية... إن هناك لائحة طويلة للذين أصبحوا ينتسبون لقرطاج أو أمسوا ينتسبون للإيالات الأخرى المجاورة.

ولقد كان في جملة المبادرات التي قامت بها جمهورية قرطاج لدعم علاقتها الطيبة مع جارتها ماسيليا، أنها قامت باستدعاء ابن ملكها گايا (Gaia) : الشاب الأمير ماسينيسا لزيارة العاصمة، حيث أجريت له احتفالات كبيرة، وهناك تعرف على صوفونيسب (Sophonisbe) بنت الحاكم العسكري لقرطاج جنبعل... ولم يودع الأمير العاصمة إلا وقد خطب الأميرة ! وقد بلغت أخبار هذا التقارب الى القائد الروماني سيبيون (Scipion) الذي كان على حالة حرب ضد قرطاج الأمر الذي جعله يدخل في علاقات مع سيفاكس (Syphax) ملك (نوميديا الغربية) بقصد استمالته ! وسنري كيف أن (سيبيون) بعث لسيفاكس بقواد عسكريين يدربون جنده... وثاق سيفاكس بوعود القائد الروماني وأخذ يمني نفسه بالاستيلاء على المنطقة جميعها ! ولقد حاولت قرطاج عبثا تهدئة سيفاكس ولم يسلس لقرطاج القياد إلا عندما وعدته بزفاف الحسناء صوفونيسب التي كانت أصغر منه بأربع وخمسين سنة ! وكانت على ما قلنا خطيبة الأمير النوميدي الشاب ماسينيسا الذي سنراه يخضع لعرض «خدماته» من أجل استرجاع ما ضاع مما كان يتهم فيه قرطاج... !

لقد حدث أن أصبحت صقلية في فترة من الفترات في حالة فوضى وهنا طمحت قرطاج الى استعادة صقلية من جديد ! وانقسم الصقليون فريقين : أحدهما يناصر رومة وثانيهما يناصر قرطاج...

وأدت الحال الى نشوب ثلاثة حروب مهولة عرفت في التاريخ القديم بالحروب البونيقية : استمرت أولاها من سنة 264 الى 241 ق.م. واستمرت الثانية من سنة 218 الى سنة 202 ق.م. ودامت الثالثة من 149 الى 146 ق.م. وهي التي انتهت بدمار قرطاج.

ولا شك أن هذه الحروب شاهدت عقد عدد من الاتفاقيات الشفوية والمكتوبة كما كانت محكا لتحولات هامة في تاريخ العلاقات بين الملوك المغاربة فيما بينهم من جهة وعلاقاتهم بقادة قرطاج من جهة أخرى...

ونذكر هنا على الخصوص أنه أثناء الحرب البونيقية الثانية عندما عزم القائد القرطاجي حنبعَل على غزو الرومان في عقر ديارهم واجتاز جبال البيرني وبدأ محاصرته لروما، قرر القائد الروماني كسيبيون (Xipion) أن ينقل الحرب الى إفريقيا... وهنا وفي غداة انتصار الرومان بالأندلس تمكن من عقد اتفاق سري مع الأمير ماسينيسا عندما كان هذا الأخير بالأندلس يقاتل في صفوف القرطاجيين : تبادلا في هذا الاتفاق عبارات القسم، إن ما سينيسا لم ينس خصمه اللذوذ سيفاكس الذي انتزع منه غادته الحسناء صوفونيسب !!

وهكذا رأينا ماسينيسا – في خريف عام 206 ق.م. في طريق العودة للوفاء بما التزم به، وبما أن عليه أن يخترق أرض خصمه سيفاكس. فقد كان عليه أن يلتمس حماية ظهره من لدن ملك موريطانيا آنذاك : الملك باكا (Baga).

وهكذا يروي تيط ليف (Tite Live) أن العاهل المغربي وضع جيشا قوامه أربعة آلاف مغربي تحت تصرف ماسينيسا من أجل حمايته ابتداء من حدود موريطانيا الى مملكة ماسيليا[1]...

وكانت وقعة شنعاء على القرطاجيين سنة 203 ق.م. اضطروا معها لطلب الصلح، وعبثا كانت نجدة القائد جنعبل لقرطاج، فإن الخيالة المغاربة الذين وردوا مع ماسينيسا أرغموا قرطاج سنة 201 على توقيع اتفاقية صلح قاسية كان من موادها :

1- سراح الأسرى الرومان من غير فداء...
2- تسليم قرطاج مع جميع أفيالها للرومان
3- تسليمها للرومان جميع سفنها إلا عشرا

(1) S.Gsel : Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord T. 5,19.

4- يبقى لها ما تحت يدها من التراب ما عدا الجزر

5- تدفع لهم غرامة مالية منجمة قدرت بثلاثة آلاف قنطار فضة

6- تعترف بسلطنة ماسينيسا على ماسيليا وقاعدتها

7- لا تجند جنداً إلا برخصة من روما !

8- لتنفيذ هذه البنوذ تحتفظ روما بمائة من أبناء قرطاج رهنا !

لقد أصبح ماسينيسا مضرب المثل في الملوك المغاربة الذي كان لهم دور بارز في التاريخ... وقد وجد له صطيفان گزيل شبيها في السلطان يوسف بن تاشفين والخليفة عبد المومن والسلطان مولاي اسماعيل في الدولة العلوية الحاكمة... [1]



رسم للسلطان مولاي إسماعيل (عن التاريخ الدبلوماسي للمغرب تأليف د. عبد الهادي التازي المجلد التاسع صفحة 159)

1) ابن زيدان : المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف، تقديم وتحقيق د. التازي، الطبعة الثانية 1413=1993 مطبعة إيديال - الدار البيضاء ص 7.

الفصل الرابع

علاقات المغرب بالرومان

- بداية الحديث عن المملكة المغربية
- علاقة الملك بوكوس القديم مع يوغورطة
- بوكوس بين يوغورطة والرومان
- السفارة الرومانية الى بوكوس
- تنظيم المغرب على عهد بوكوس
- الحضارة المدنية

علاقات المغرب بالرومان

انتهت الحرب البونيقية الثالثة عام 146ق.م. بسقوط قرطاج ودمار آثار الفينيقيين، وهكذا أقدمت روما على تقسيم البلاد الى أربعة أقاليم :

1- إفريقية (Africa) وتشمل معظم البلاد التونسية، وكان الرومان يديرونها مباشرة...

2- نوميديا وتمتد من التراب التونسي الى قسطنطينة الحالية، وقد قسمت مقاطعتين : إحداهما شرقية (ماسيليا) والثانية غربية (ماسيسيليا).

3- موريطانيا، وهي مقاطعتان كذلك شرقية : حملت فيما بعد اسم القيصرية وغربية حملت إسم الطنجية.

4- ومن خلف هذه الأقاليم تأتي جيتوليا (Gétules) وهي منطقة الرحل من أهل الأقاليم المتصلة بالصحراء.

بداية الحديث عن المملكة المغربية...

لم تكن إفادة تيط (Tite-Live) عن مساعدة العاهل المغربي باكا (Baga) للأمير ماسيسينا أواخر القرن الثالث قبل الميلاد [1] هي الأولى مما يتصل بالحديث الأول عن المملكة المغربية، فقد ذكر المؤرخون الأقدمون أن «مملكة المغاربة» (Royaume des Maures) كانت

(1) Tite-Live, XXIX, 30, 1 : Gsel : Histoire. V. p. 91

موجودة منذ أواسط القرن الرابع قبل الميلاد، وهكذا قرأنا لدى جيستان (Justin) أن حانون (Hannon)، وقد ثار ذات مرة على قرطاج، طلب مساعدة ملك المغرب ! وربما كانت المملكة المغربية موجودة قبل هذا التاريخ، فقد أشار جيستان الى حروب شنها القرطاجيون ضد المغاربة حوالي أواسط القرن الخامس، وفي نهاية هذا القرن نفسه نسمع عن تجنيد قطع عند المغربة الحلفاء.

إن القرطاجيين الذين كانوا يتوفرون على محطات بشاطئ المغرب كانوا يتحدثون مع ملوك هذه الدولة حول العلاقات التي تربط بين الطرفين، وربما استمر هذا حتى نهاية الحرب البونيقية الثالثة.

علاقة العاهل المغربي بوكوس مع يوغورطة

وقد كان علينا أن ننتظر بعض الوقت لنسمع بوضوح عن مملكة المغاربة عندما كانت الحرب تدور رحاها بين روما وبين يوغورطة في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد حيث ظهر إسم الملك بوكوس (Boccus) كملك على سائر المغاربة [1] وبالرغم من أننا لسنا متأكدين من الصلة التي تجمع هذا الملك بالملك المغربي السابق باكا (Baga) فإننا نظن أنه منحدر منه...

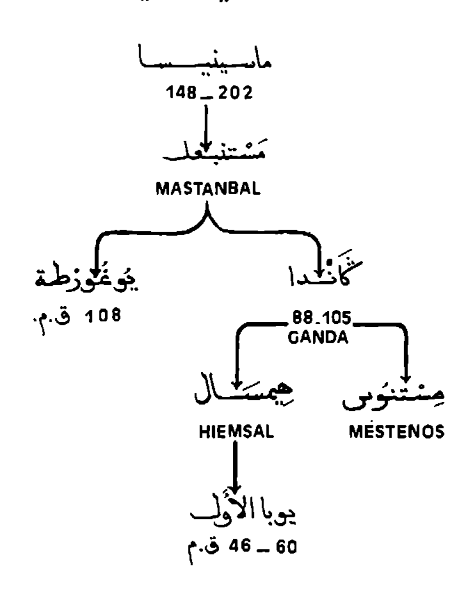
ويقدم لنا المؤرخ اللاتيني سالوست صورة عن هذا العاهل الموريطاني بوكوس، فيصفه بأنه كان من التواقين للحكم والساعين للمجد، وهكذا فحتى يدعم سلطته ويوسع دائرة حكمه، كان يبرم بعض الاتفاقيات ولكنه - كأي قائد سياسي آخر - لا يتردد في فسخها إذا ما أصبحت لا تتفق ومصالحه المباشرة !

ويذكر على سبيل المثال ما يتصل بجاره يوغورطة أمير نوميديا الغربية

عندما كان في أوج مجده قبل بوكوس أن يزوجه بابنته وشاركه في عدد من معاركه ضد الرومان، ولكنه، أي بوكوس، لم يلبث أن غير موقفه عندما أدرك حجم القوات الرومانية وتهافت الملك يوغورطة، ولأجل أن يضمن لنفسه حماية روما عرض «خدماته» عليها تماما على نحو ما كان بالأمس من الزعيم ماسينيسا... ولم يلبث أن وافق بوكوس على تسليم روما صهره بالأمس...!

S. Gsel V. p. 91. (1)

الممالك المغربية قُبيل ظهور الإسلام



موريطانيا

باڨا BAGA
كان موجوداً عام 206 ق.م

بوكوس الاول
81 ق.م

موريطانيا الغربية
بوكود الأول
49 _ 31 ق.م.

موريطانيا الشرقية
بوكوس الثاني
49 _ 31 ق.م.

توحيد موريطانيا
تحت بكوس الثاني

خلو العرش المغربي

يوبا الثاني
25 ق.م. 23 م

بطوليمي
40_23

المَمالك المغربيّة قُبيل ظهورِ الإسلام



عملة برونزية لماسينيسا حيث نشاهد تحت رسم الفيل اسم الملك ماسينيسا
الرسم عن مجموعة مازار رقم 17

وحتى تكافئه روما علي صنيعه تنازلت له عن مملكة ماسيسيليا التي كانت تمتد من نهر (ملوية) الى غرب سطيف... وأكثر من هذا عقدت معه معاهدة حلف وصداقة على ما سنرى.

بوكوس : بين يوغورطة والرومان

يعتبر يوغورطة حفيد ماسينيسا من الزعماء البارزين في تاريخ نوميديا الغربية... لكن طموحاته الى الحكم ورغبته في التوسع كانت بالغة الغاية، ومن ثمت قرأنا عنه عددا من المغامرات وسلسلة من التصرفات التي ذهب ضحيتها، على يديه، عدد من بني عمه وطائفة من أصدقائه : لقد أجهز على ابن عمه هيمصال (Hemsal) وعلى ما سيفا (Massiva)... الأمر الذي أغضب روما على الزعيم النوميدي وأخذت تخطط لتصفيته... وعندما رأى أن الأمر جد... وشاهد أن عاصمته قد سقطت، اتجه نحو الصحراء ليجمع قبائل الجيتوليين ويدربهم على الأعمال الحربية...

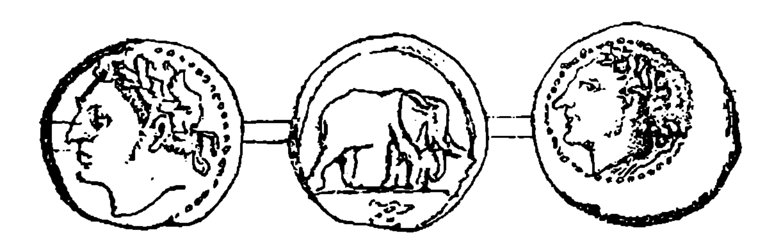
لقد تزوج الأمير يوغورطة بنت بوكوس عاهل الموريين [1] وأبرمت اتفاقية بين الجانبيين، كانت تهدف لتوحيد الموقف المغربي من الرومان، سيما بعد أن أخفقت سفارة كان بعث بها بوكوس الى روما يقترح عقد حلف معها.

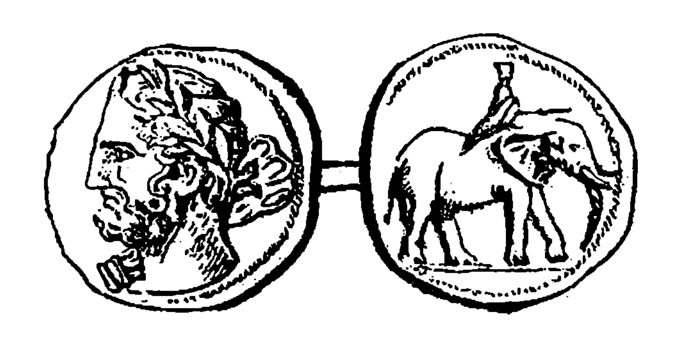
وقد اجتمع الجيشان في مكان اتفق عليه الملكان، وبعد أن أقسما الإيمان خطب يوغورطة : «إن الرومانيين شعب ظالم لا حدّ لأطماعه وهو عدو لجميع الجنس الإنساني... فاليوم، نحن الأعداء وبالأمس كان الأعداء هم القرطاجيين وفي الغد سيصبح عدوهم من يرونه منافسا لهم !»

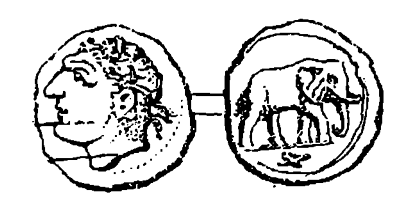
وفي هذه الأثناء أسندت روما القيادة العسكرية بولاية نوميديا الى القائد ماريوس (Marius) استعدادا لكسر اتفاقية بوكوس - يوغورطة...

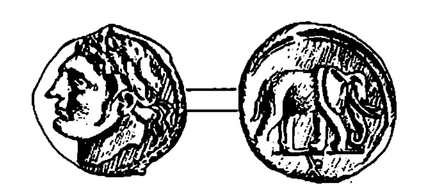
إلا أن بوكوس تجاهل تلك الحركة، وأملا في الحصول على شيء، بعث القائد الروماني الى الملك بوكوس ببعض المقترحات، فقبل الملك منها بعضا ورفض البعض، ومر الوقت في رسائل تبعث ويجاب عنها...

1) مثل هذا الزواج ولو أنه لا يعتد به عند النوميديين والموريين، الذين كانوا يعتادون تعدد النساء : إذ أن لكل واحد عشراً منهن أو أكثر، وللملوك أكثر وأكثر، ومع ذلك فإنه أي هذا الزواج كان يهدف إلي المزيد من أحكام العلاقات.









يوغورطة من خلال النقود

وأخيرا استعد القائد ماريوس أيما استعداد وكانت خطة يوغورطة وحليفه (بوكوس) أن يتفرقا ويتجه كل منهما الى ناحية رغبة تشتيت الجيش الرومان وتوزيعه ليسهل أخذه...

وكانت معركة (كبسا) [1] التي انتهت بنهب المدينة وإحراق معالمها من قبل ماريوس... ثم معركة قلعة نهر (ملوية) التي انتهت بفتح القلعة المغربية كذلك... !

وقد فقد الرومان في هذه الأثناء مراقبة العاصمة (سيرتة) فاقتحمها يوغورطة سنة 106 وانفصلت بذلك عن الرومان وعمد العاهل النوميدي وحليفه الماوري الى منع الإمدادات الرومانية من الوصول الى العاصمة !

وقد دخل ملك موريطانيا الى جانب النوميديين بصفة عملية إذ شعر هو الآخر ببعد الخطر الروماني سيما وقد عسكرت جنود ماريوس وقاتلت على حدود مملكته أيام حملتها على قلعة نهر ملوية، واقترب ماريوس من مملكة موريطانيا لإرهاب ملكها، لكن النتيجة كانت عكسية فقد كانت هذه المبادرة باعثا لبوكوس على المزيد من الاقتناع بأقوال يوغورطة الذي كشف عن نوايا روما حول الهيمنة على سائر أجزاء المغرب الكبير !

وقد كبد كل من يوغورطة في الجبهة الشرقية، وبوكوس في الجبهة الغربية، كبدا الجيش الروماني خسائر فادحة، ولكن مقاومة الرومان ويقظتهم تضاعفت، فحمل مشاتهم على ملك موريطانيا الذي اضطر للتراجع بينما حفت الفرسان بيوغورطة الذي لاذ بالفرار...

وقد سئم بوكوس بدوره الحرب الضروس التي كلفته غاليا دون ما نتيجة... ومن هنا أذن الملك بوكوس بإيفاد بعثة من الماوريين للاتصال بالقيادة الرومانية حيث اجتمعوا بماريوس... وأوعزوا إليه أن يرسل مبعوثين الى موريطانيا للاتصال بالملك بوكوس للنظر في إيجاد حل يناسب الملك ولا يعارض المصالح الرومانية.

---

1) يظهر أن القصد إلى قفصة التي كانت تحمل اسم قبصة؛ محمد فنطر : يوغورطة - الدار التونسية للنشر 1970 ص 234.

وهكذا بعث ماريوس سنة 108 قبل الميلاد بسفيرين الى الملك بوكوس، هما (سِيلا SYLLA) و(منليوس MANLIUS) لغرض مدارسة الوسائل الكفيلة بإنهاء حالة الحرب التي لم يعد من الممكن تحملها...

وفي خطاب مليء بالترغيب والترهيب اتجه سيلا الى الملك بوكوس ليقول له :

«أيها الملك إنه ليسرنا أن توحى الآلهة لرجل مثلك بإلهام يدفعه الى إيثار السلم على الحرب... وإن الشعب الروماني ما إنفك يؤثر أن يكون له أصدقاء... نحن بعيدون عنك، لكن ذلك لا يحول دون مساعدتك كلما دعت الحالة الى ذلك... وإذا كان لنا عبيد نشتريهم فليس لنا من الأصدقاء كفاية، فلم لا تكون لك مثل هذه العواطف نحونا ؟ وإن أمامك الآن عن الهفوات، فكن مقتنعا كل الاقتناع بما سأقوله لك : إن الشعب الروماني لم يسمح لأحد قط أن يتغلب عليه وقد عرفت قيمته العسكرية» [1].

ويذكر سالوست (Salluste) الذي أورد نص خطاب سيلا أن العاهل الموريطاني أجاب على تلك الكلمة بعبارات ملئها المصانعة والدفاع عن موقفه بأنه لم يحمل السلاح عداوة للرومان ولكن دفاعا عن مملكته، وذكر بأنه لم ينس يوما أرسل فيه سفراءه الى روما لإبرام حلف مع روما فلم يعرهم مجلس الشيوخ اهتماما وصرفهم كما لو أنهم لا يمثلون شيئا ! وأردف قائلا : إنه لا يريد إثارة الماضي ولكنه تعبيرا منه عن حس نيته من جديد فإنه مستعد لإرسال وفادة ثانية الى مجلس شيوخ روما إذا ما سمح ماريوس بذلك.

ويلاحظ أن ماريوس سمح فعلا للعاهل الماروي بإرسال سفارته الى روما لفتح مفاوضات مع شيوخها لكن بوكوس عدل عن فكرته بعد استشارة مجلسه بالرغم من أنه كان يشعر في قرارة نفسه بأنه لا سبيل في الظروف الراهنة - للتغلب على خصم يفوقه قوة ونظاما لا سيما وقد تجرع كأس الهزيمة كلما اشتبك مع القوات الرومانية...

1) محمد فنطر : يوغورطة ص 268 - محمد التازي سعود : حرب يوغورطة ص 188.

وهكذا أمسى الملك بوكوس موزعا بين اختيارين اثنين : فإما أن يذعن للتفاهم مع الرومان وفي ذلك إنقاذ لما يمكن إنقاذه... وإما أن يتمسك بصداقة يوغورطة الطموح والمتقلب بل والمنهار! وحينئذ سيتعرض بمملكته لنفس المصير الذي تعرضت له مملكة نوميديا...

وبالرغم من عدول الملك بوكوس عن إرسال سفارته الى روما فقد ظل الرومان ساعين الى إقناعه - بكل ما يملكونه من وسائل - بخطورة تمسكه بصهره يوغورطة، وإنه أي يوغورطة - لا يتردد لو حالفه النجاح - في الإجهاز على مملكة موريطانيا التي لم يحالفها إلا إيثارا لمصلحته الشخصية البحتة.. ! مؤكدين أنهم سوف لم يمسوا استقلال المغرب ولا كيانه بسوء... بل إنهم يتنازلوا لبوكوس عن أكثر مما وعده به يوغورطة في حالة انتصاره... وقد قرر الملك بوكوس في النهاية أن يتصل بالقيادة الرومانية قصد الوصول الى حل مناسب، وهكذا أوفد خمسة من أصدقائه المخلصين الى (ماريوس) للعمل - ما أمكنهم ذلك - على الوصول لحل مشكل يوغورطة وجعل حد لحالة الحرب...

ولم تلبث السفارة الموريطانية أن استقبلت من قبل القائد (ماريوس) الذي خصص لرسل الملك بوكوس استقبالاً فخماً في «أوتيك» (Utique) عاصمة الولاية الرومانية بإفريقية، دعا إليه حاكم المدينة وسائر الذين ينتمون لطبقة الأشراف الموجودين بإفريقية...

وفي حديث الوفد الموريطاني الى القائد ماريوس أعربوا عن موقف ملكهم تجاه الرومان وعن رغبته، على الخصوص، في إيقاف الحرب بعقد هدنة في المنطقة كلها، وفي أن يتمكن الوفد الموريطاني من السفر الى روما للاتصال بمجلس الشيوخ، وكان هذا الموقف يهدف دون شك للإبقاء على حياة يوغورطة ولكسب وقت جديد لإيجاد صياغة أخرى للوفاق وبذلك تحتفظ المملكتان النوميدية والموريطانية بكيانها معا في ظل حلف تعاون...

وقد أرضى طلب الوفد بالالتحاق بروما دون صعوبة لكنه اصطدم بمعارضة شديدة فيما يتعلق بإبرام الهدنة، من لدن بعض المتعصبين المتطرفين الذين أصروا على متابعة الحرب حتى لا يتمكن يوغورطة من تضميد جراحه وتعزيز صفوفه !

وإذا كان الوفد الموريطاني قد وصل في (أوتيك) الى النتائج التي كان يسعى للوصول إليها... فإنه سيجد في روما جوا آخر أكثر تصلبا وعنفا.

وهكذا لم نسمع حديثا عن أمر الهدنة التي كانت تهدف للتنفيس عن يوغورطة المنهوك القوى ولكننا أخذنا نسمع عن استعطاف مجلس الشيوخ لغض الطرف عن التورط الذي وقع فيه بوكوس... ! وأن الرومان لا يرون مانعاً في فتح صفحة جديدة مع ملك موريطانيا وإبرام حلف صداقة معه إذا ما برهن على أنه جدير بذلك !! وفور عودة الوفد الى الديار المغربية أطلع العاهل الماوري على جو المحادثات وعلى الانطباعات التي تركتها في نفسه مختلف اللقاءات التي كانت له مع أعضاء مجلس الشيوخ...

وهنا رأى العاهل المذكور أن يرسل تواً الى القائد (ماريوس) يسأله تسوية الوضع بصفة نهائية بين روما والمملكة المورية في إطار ضمان مصلحة الطرفين.

وقد اجتازت المحادثات ظروفاً في منتهى الخطورة ووجد العاهل الموريطاني نفسه تحت ضغط قوي من بعض رجال حاشيته ممن كانوا ينصحون إليه بالحفاظ على مملكته ويهونون عليه أمر التخلي عن (يوغورطة) الذي أمسى محكوما عليه !! وقد يكون بوكوس انخدع أيضا باتفاق سري مع مفاوضه الروماني بتنحية يوغورطة عن المسرح السياسي دون مسه بأذى... وهكذا تم الاتفاق على ما يبدو في شأن يوغورطة... وانطلق مبعوث ليوغورطة كان يتتبع سير المحادثات، انطلق ليخبر الملك يوغورطة الذي أكد عدم ثقته في تطبيقهم ما يتفقون عليه بل واقترح على بوكوس تنظيم لقاء ثلاثي يتمكن فيه يوغورطة من إلقاء القبض على قائد روماني وأخذه رهينة حتى يملي يوغورطة شروطه على روما !!

وبعد فترة أخرى من تردد بوكوس أذعن في صيف سنة 105 للموافقة على التخلي عن يوغورطة الذي أمسى بالفعل مصدر متاعب لسائر القبائل الإفريقية، وأمسى أمر اختفائه عن الميدان السياسي ضرورة ملحة إذ كانت طائفة من الأفارقة ترى أن من السياسة الاحتفاظ على ما تبقى لها من سيادة دون أن تقع بأجمعها تحت نير السلطة الرومانية !

مهما يكن فقد سبق القائد المغربي الى روما وهو يرسف في قيوده وأغلاله حيث طيف به في شوارع العاصمة غرة يناير 104 ق.م. محفوفا بإثنين من أبنائه... ولما انتهى الحفل زج به في السجن حيث ظل يصارع الجوع الى أن أمر القائد الروماني ماريوس بإعدامه خنقا !

لقد أمسى بوكوس بعد نهاية يوغورطة ملكا على القسم الشرقي من موريطانيا إضافة الى مملكته القديمة موريطانيا الغربية وظل الأمر هكذا الى أن توفي حوالي سنة إحدى وثمانين قبل الميلاد.

لقد ظهرت المملكة الماورية طوال ملك بوكوس منظمة كأحسن ما يكون التنظيم وكانت تتمتع بما نسميه اليوم «هيرارشية» متميزة، لا يتجاسر فيها الموظف الصغير على كبيره، وعلى رأس الدولة جميعها الملك الذي يصير إليه الحكم عن طريق وراثي، وقد كان يتمتع بسلطة مطلقة ولذلك نراه هو الرئيس المباشر للجيش، وهو الذي ترجع إليه وحده الشؤون الدبلوماسية فيختار السفراء الذين يبعث بهم الى المهمات سواء داخل الرقعة المغربية أو خارجها وهو الذي يستقبل البعثات السياسية التي ترد عليه سواء من الممالك المغربية المجاورة له أو كذلك من زعماء ورؤساء الإمبراطورية الرومانية على ما رأينا...

وقد لاحظنا أنه كثيرا ما يعهد بالمهمات الكبرى الى المتقربين إليه حتى يكون على اطمئنان تام مما يتصل بتلك المهمات.

وقد كان الجيش هو الجهاز الذي تعتمد عليه سلطة الملك، وكان يتألف من المشاة والفرسان المغاربة والجيتوليين الذين يجندون من لدن القادة العسكريين الموظفين في الدولة...

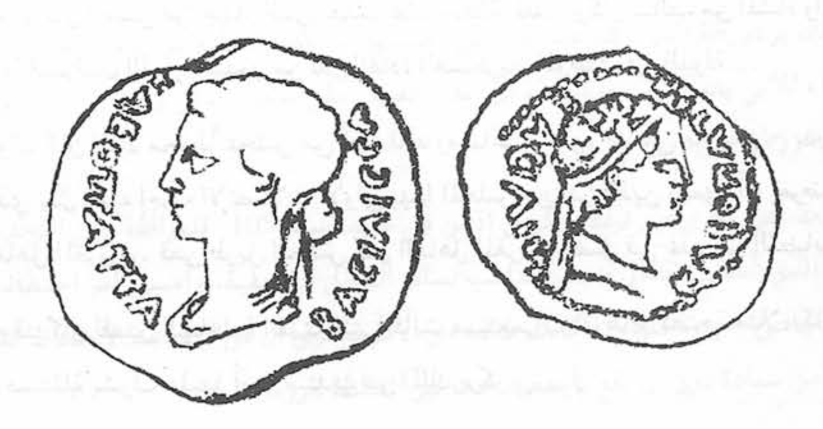
وقد كان الملك محاطاً بمجلس من أصدقائه ومساعديه يقوم - على ما يبدو - بدور هام، الأمر الذي يدل عليه إجراء الاتصالات الأولى بهذا المجلس من لدن الذين يهمهم أن يعرضوا أمرا على العاهل المغربي.. فعن طريق المجلس كان العاهل المغربي يفصل في عدد من القضايا...

وقد كان للمدن الساحلية القديمة التي كانت مستعمرات لقرطاج كطنجة مثلا، كانت لها حكومة مستقلة يشرف عليها أمير منتدب عن الملك بوكوس...

أما القواعد الداخلية الهامة كمدينة فولُوبيليس فإنها كانت تتوفر على نظام بلدي وعلى رأسها قاضي على نحو ما تشهد به المسلة الشهيرة في هذه المدينة.



فسيفساء فوليبليس هدية من : J.D. Moyes, University of Western Australia



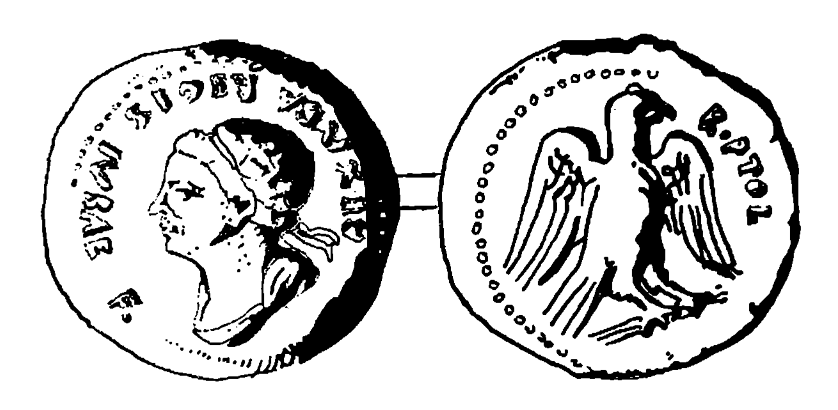
يوبا الثاني وكليوباطرة سيليني
أول عملة تحمل رسم ملك مغربي مع زوجته !

الحضارة المدنية

وإن الحضارة التي ظهرت لحد الآن من خلال المواقع الأثرية المغربية القديمة، والتي يرجع تاريخها الى القرن الثاني وبداية القرن الأول قبل الميلاد، لتكشف عن مدنية متقدمة جدا حيث نجد التأثيرات البونيقية والإغريقية واضحة المعالم.

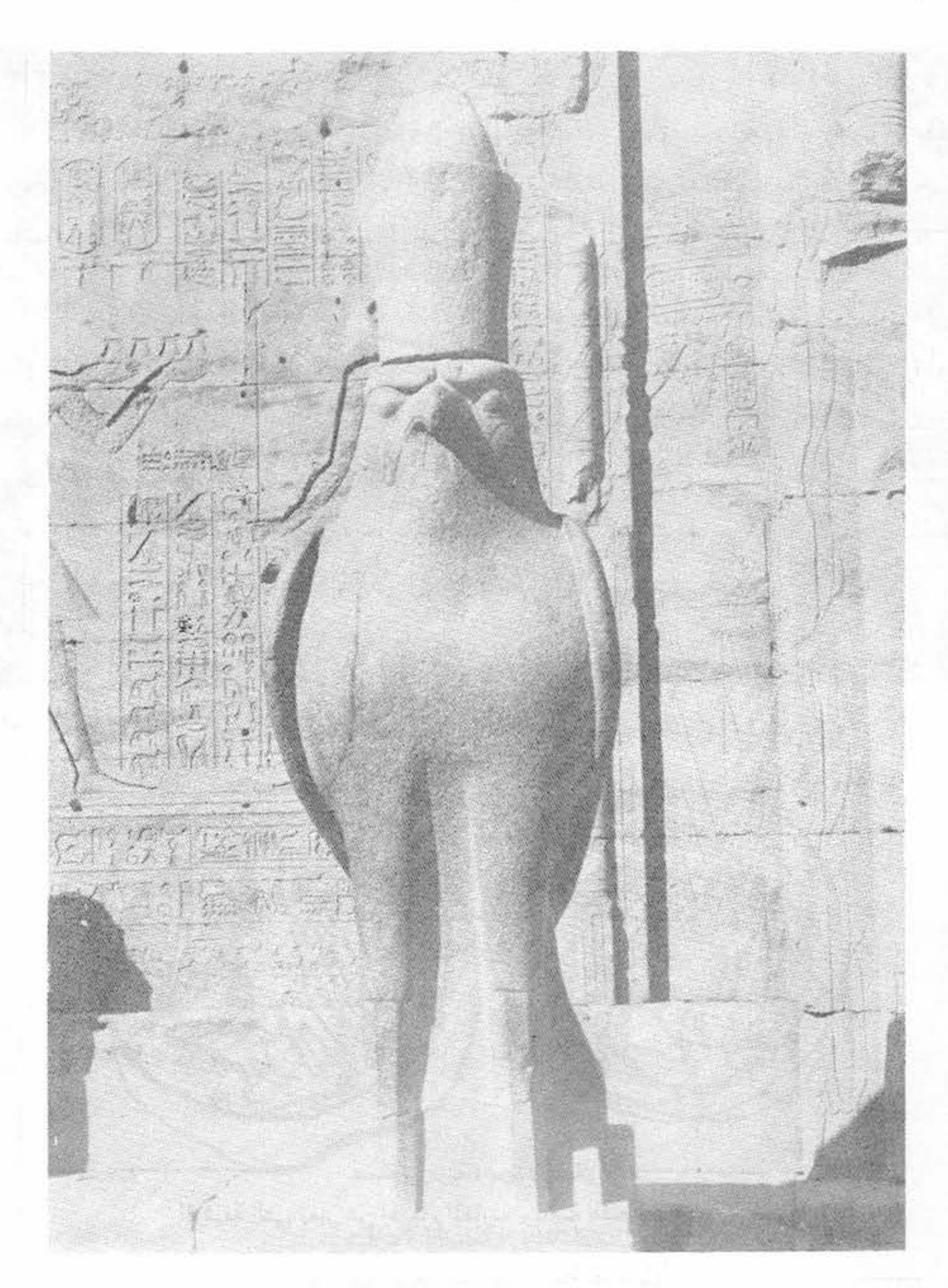
إن مدينة ثمودا التي أسست عام 150 ق.م. وهدمت عام 40 بعد الميلاد كانت مرتبة على شكل تصميم ذي مربعات منسقة، مع ساحة ذات بعد كبير كانت تستعمل إما كسوق للتجارة أو كمجلس نيابي، على ما هو معهود في القواعد الإغريقية، وإن الجدار المحيط بالمدينة وكذلك البيوت، كل ذلك بني من حجارة مصنوعة، وإن المواد الخزفية المجلوبة على هذا العهد : عهد الملك بوكوس مع المنتوجات المحلية، كل ذلك يترجم عن نوع المبادلات التجارية المربحة سواء مع شبه الجزيرة أو مع المدينة الإيطالية لاكامباني (La Campanie).

كل هذه الشواهد الأثرية تمكننا من تصور مدى الرخاء، ومدى الأمن الذي كانت تنعم به – في تلك الفترة – المملكة الموريطانية [1].



عملة برونزية : يوبا والصقر
الوثيقة التي تعبر عن اهتمام المغاربة برياضة القنص بالصقور ...

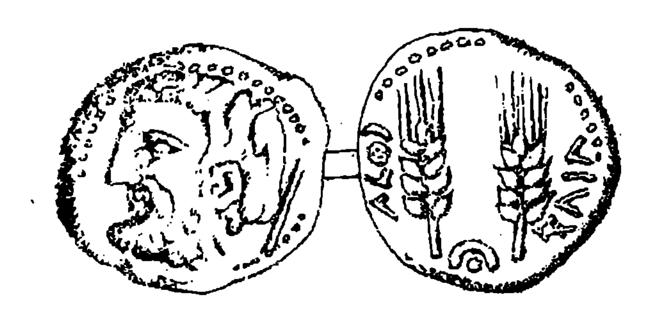
(1) Naima Eljhatib-Boujibar : Les royaumes berberes Mémorial du Maroc T. I. p. 151:



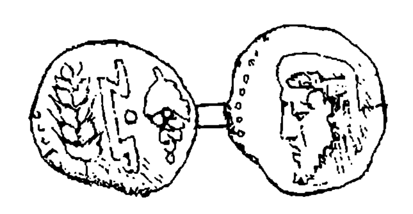
دخلت رسوم الصقر (Horus) إلى المغرب مع اقتران يوبا الثاني بالأميرة المصرية ! حيث نجد الصقر في العملة المغربية وإن كلّ الذين يزورون في صعيد مصر، معبد إدفو (Edfou) الذي قدم إلى الاههم حوروس (Horus) وزوجته حاثور ليمكنهم الوقوف على هذه التماثيل.

الصورة من أرشيف الرحلة الدراسية التي قامت بها الأميرة لالة مريم بنت الملك الحسن II إلى صعيد مصر يناير 1983

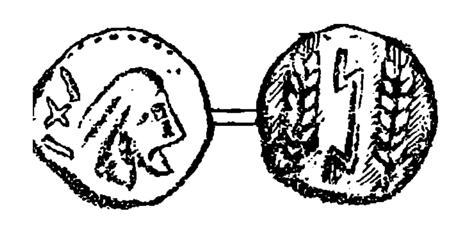
نماذج من عملات ضربت في مراكز مغربية



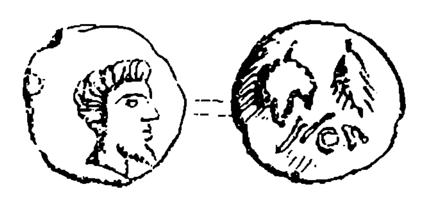
عملة ضربت بطنجة

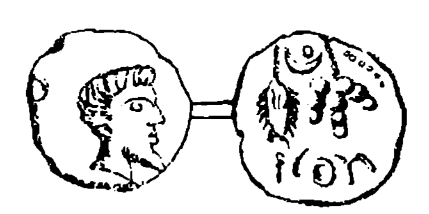


ضربت في ثمودا



ضربت في روسادير





عملات ضربت في شالة

الفصل الخامس

الوضع في المغرب
أيام التنافس على الحكم في رومة

- آثر الصراع بين الجمهوريين والملكيين في روما على المغرب
- انقسام الرومان بالمغرب حول الموضوع
- بوكوس الثاني يعزز الملكيين بينما يوبا الأول مع الجمهوريين !
- نزول القيصر لبلاد المغرب وانهزام يوبا الأول
- التبادل التجاري مع الخارج
- فترة خلو العرش المغربي من الملك

الوضع في المغرب
أيام التنافس على الحكم في رومة

لقد كانت الاضطرابات في رومة، بين الجمهوريين والملكيين، تعكس بآثارها على القادة في المغرب، فكان من أولئك من يقف الى هذا الجانب أو ذاك...

وقد كان من أبرز هذه المواقف، الموقف الذي اتخذه يوبا الأول عندما ناصر (بومبي Pompée) الذي كان يميل للجمهوريين ضد جيل قيصر... (jules César).

لقد كان يوبا يعتقد أن في استطاعته أن يستفيد من ذلك الصراع للحصول على مكاسب وطنية في حالة انتصار الجمهوريين، وهكذا زود المقاتلين بفرق من جيشه الذي يتكون من العناصر المغربية علاوة على عدد من المرتزقة والموتورين من الإسبان وبلاد الغال... هذا الى بعض ما كان يتوفر عليه من الخيول والأفيال...

لقد كان يوبا مضرب المثل في شجاعته وجرأته، وقد بلغ من استعلائه أن سيبيون (Scipion) - وهو القائد الروماني الذي رشح لتعويض بومبيوس عندما تغلب عليه قيصر - جاء عند يوبا يوماً لابساً لحلة أرجوانية مطرزة بالذهب وكانت من شعار الملوك على ما نعرف، جاء كذلك ليظهر ليوبا عظمته فأمره هذا بانتزاع الجبة احتراما لقانون التشريفات الذي لا يسمح بارتداء تلك الجبة إلا للأمراء، ولم يسع سيبيون إلا أن امتثل... !





رسوم من ليكسوس...

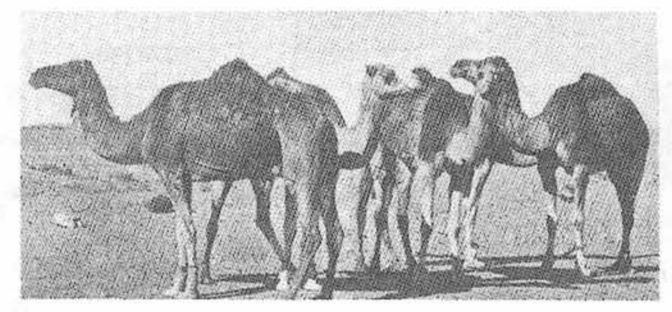
فسيفساء فوليبليس هدية من : J.D. Moyes, University of Western Australia

وعندما بلغت تلك الأخبار الى روما... تحرك القيصريون الى افريقيا، وهنا نجد أصداء لعدد من المراسلات التي تمت بين قيصر وبين بوكوس الثاني ويوبا الأول حتى يساعدا روما في صراعها مع خصومها السياسيين في مقابلة الوعد بتوسيع مملكتهما...

ولما نزل القيصر على الشاطئ الإفريقي، حدث أن تعثرت رجلاه فهوى على الأرض ولكنه عوضا أن يتشاءم أظهر للحاضرين أنه تعمد أن يمس الأرض بيده ليقول : «إفريقيا ! قد قبضتك...!».

وهنا جد الفريقان في تقوية الصفوف حيث وجدنا أن يوبا الأول يزود حلفاءه الجمهوريين بعدد كبير من الخيول وما يناهز مائة وعشرين فيلا.

ومن الطريف أن نجد هنا نصا يشير الى أن قيصر استولي في بعض حملاته على اثنين وعشرين جملا كانت على ملك يوبا الأول، وهذه أول مرة يظهر فيها الحديث عن هذا الحيوان المشرفيّ الأصل في تاريخ شمال افريقيا [1]...



متى وصل الجمل إلى المغرب ؟ يقول ابن حوقل : بلغ عدد الجمال بالمغرب ما في الجزيرة العربية كلّها!

لقد شاهدت المنطقة عددا من المعارك، جرت أولاها على ما يذكر في خريف عام 47 ق.م. وهنا وجدنا ابن بومبي يتوجه، على رأس ألفي جندي، يقلهم أسطول من ثلاثين قطعة[1] نحو بوكوس الثاني ليصرفه عن حلفه مع قيصر بل ليحصل منه على التزام بإشغال يوبا الأول، لكن نظر بوكوس كان معاكسا لنظر القائد الروماني المتمرد، وهكذا فبعد اشتباك بين الطرفين انهزم ابن بومبي.

1) جرى حديث طويل عن تاريخ ظهور الجمل بافريقيا الشمالية، وقد كان مما حير المهتمين عدم وجود نقش للجمل على الصخور مثل ما كان بالنسبة للفرس، ونحوه ... كذلك سكوت بلين القديم عن هذا الحيوان وعدم وجود اسم له خاص في اللغة البربرية... وإن النص الذي أوردناه يعتبر منطلقا للحديث حول الموضوع.

Stephane Gsel : H. Anc. de l'Afrique du nord T.1. p. 59-60. 112-113

1) راجع افادات بلين القديم: حديث عن الاسطول أيام سيبيون.

وعلى العكس من هذا وجدنا صلات القيصر تتجدد مع بوكوس الثاني وبوكود اللذين ساعداه على التغلب على خصومه السياسيين.

وتتابعت المعارك التي انتهت بفوز القيصر وفرار زعماء حزب بومبي... وهنا أظلمت الدنيا في وجه يوبا الأول فصنع وليمة أكثر فيها من الأكل وشرب الخمر ثم تحامل على سيفه ولكنه لم يستطع أن يحكم القبضة على السيف لغلبة الخمر عليه فأمر أحد عبيده بأن يتولى قتله! وما كان من العبد إلا أن يمتثل!!

توحيد موريطانيا تحت حكم بوكوس الثاني

وعلى نحو ما قلنا فإن الحالة الداخلية في روما ظلت تعكس بآثارها على بلاد المغرب، وهكذا رأينا أن بوكوس الثاني وبوكود الأول يشاركان معا في الأحداث التي عرفتها روما بعد اغتيال القيصر عام 44 ق.م. وتوزيع أوكتاف (Octave) وأنطوان (Antoine) حكم الإمبراطورية معا!

وجدنا بوكود يختار الوقوف الى جانب أنطوان بينما اختار بوكوس الوقوف الى جانب أوكتاف.. وكانت النتيجة أن فازت أوراق هذا الأخير الذي سيصبح إمبراطورا لروما تحت لقب أوغيستان... هنا أبعد بوكود عن الملك من لدن بوكوس...

وهكذا توحدت من جديد موريطانيا الشرقية والغربية تحت عرش بوكوس الثاني الذي لم يتجاوز حكمه أكثر من خمس سنوات.

التبادل التجاري مع الخارج

وطوال هذه الفترة وجدنا أن التجارة تتكثف بين المغرب والرومان بواسطة التجار الطليان، وقد أمكننا أن نعثر في بعض المواقع المغربية القديمة على قوارير مجلوبة من الخارج كانت تصلح لتخزين الخمور والزيوت...

وقد شيد الملك بوكوس معملا لضرب السكة في ليكسوس وأصدر قطعا من البرونز يحمل بعضها عبارة بالبونيقية الجديدة... ولقد عثر رجال الآثار على أوسمة له كان يمنحها لرجال الكفاءة

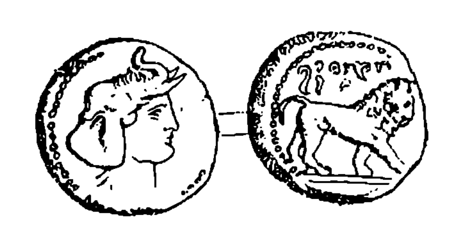
والأعمال الكبرى نقشت عليها صورته راكبا على فرسه وهو مجد في عدوه وبيمينه قضيب يسير به فرسه وبشماله آلة للرمي.

فترة خلو العرش المغربي من الملك 25/39 ق.م.

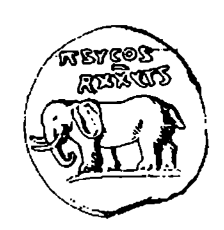
لم يترك بوكوس وارثا للعرش، وهكذا وجدنا أوكتاف ينصب في موريطانيا حكومة خاصة تحت سلطة واليين إثنين وأسس بعض المستعمرات التي نذكر منها زيليس (Zilis) وباباكا مبيسطريس (Baba Campestris) وفالانتيا باناسا (Valzntia Banasa).

وقد أقام في هذين الموقعين المغربيين القديمَيْن جنودا رومانيين ورأى من واجبه أن ينقل سكال زيليس الى إسبانيا...

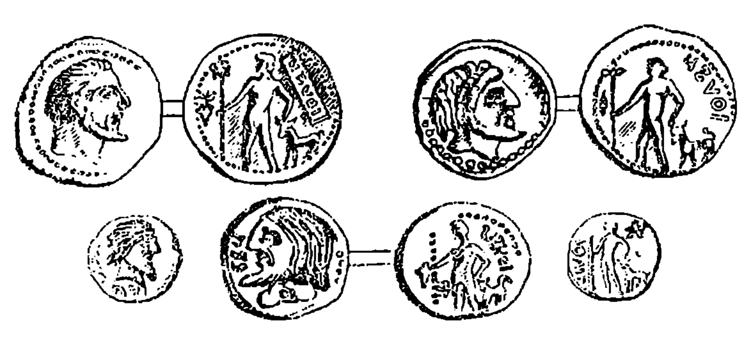
ومنذ هذه الفترة أخذ المغرب ينفتح على التأثيرات الرومانية وظهرت الحروف اللاتينية الى جانب الحروف البونيقية في القطع النقدية.





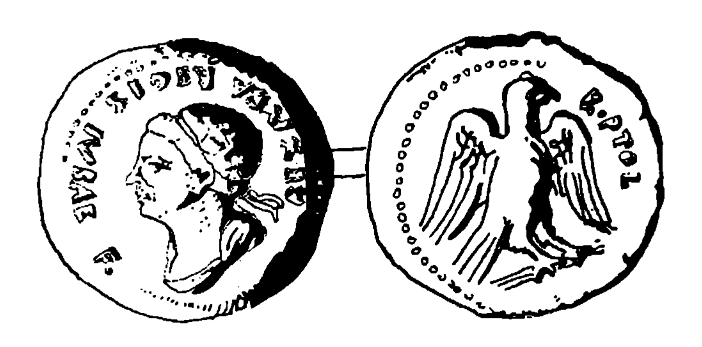


يوبا الأول من خلال النقود



بوكوس الثاني من خلال النقود

عملات يوبا II



يوبا الثاني، عملة برونزية



عملة برونزية أيضا ليوبا الثاني

الفصل السادس

يوبا الثاني وعلاقاته الخارجية

- يوبا الثاني وتكوينه
- الزواج بالأميرة المصرية كليوباطرة سيليني
- يوبا الثاني الملك العالم
- إرسالياته من أجل البحث العلمي ومؤلفاته
- العمل الاقتصادي ليوبا الثاني
- الحضارة المدنية

يوبا الثاني وعلاقاته الخارجية

وفي سنة 25 ق.م. قرر (أوكتاڤ) أن يعيد إنشاء المملكة الموريطانية وأن يعهد بحكمها الى أمير شاب كان أصلا من نوميديا، ولكنه تربية ونشأة روما... فمن يكون هذا الشاب ؟

لقد كان بالذات هو ولد يوبا الأول حفيد ماسينيسا. وكان قد نقل الى روما في أعقاب انتحار والده على ما أسلفنا.

لم يكن عمر يوبا الثاني يتجاوز الخمس سنوات عندما أخذه القيصر كرهينة على نحو ما سنقرأه، بعد نحو من خمسة عشر قرنا، عن الأمير محمد الوطاسي الذي أخذ الى البرتغال كرهينة فأصبح يحمل لقب البرتغالي !

لقد عهد الإمبراطور بتربية الفتى الى أوكطاڤي (Octavie) أخت الإمبراطور أوكسيت، وهناك نشأ نشأة الأمراء الرومان الأرستقراطيين، وقد عرف كيف يكسب عطف الذين ربوه بين الأمراء الآخرين، وحيث إنه تميز بسلوكه أثناء الحملات التي كان يقوم بها الإمبراطور، فقد كافأه هذا بتزويجه بالأميرة كليوباطرة سيليني (Séléné) بنت كليوباطرة الكبرى وأنطوان... أكثر من هذا قدم له هدية ثمينة بهذه المناسبة لم تكن غير حكم المملكة المغربية !

وقد أقام يوبا عاصمتين له : إحداهما في بول التي أطلق عليها اسم (قيصرية) تكريما للإمبراطور قيصر، والثانية في فولوبيليس (وليله).



تمثال يوبا الثاني في أثينة

لقد عرف أهل أثينة بقدر الملك يوبا الثاني فصنعوا له تمثالا تعمدوا أن يجعلوه إلى جانب الخزانة العلمية التي يغشاها عادةً رجال الفكر الإغريق، وفي نفس المجمع الذي يحمل إسم بطوليمي.



كانت النقود المغربية التي ضربت في ليكسوس تحمل رسماً لقائد ؟ يجعل على رأسه شاشيةً مخروطة الشكل، وقد رُبطت بأعلاها شوشة تنزل خلف الرأس... وهذا يفيد أن لبس الشاشية بالمغرب من العوائد الضاربة في القدم.

كل المؤرخين الذين تحدثوا عن يوبا الثاني أجمعوا على إبراز الصفات الرفيعة لهذا الملك الذي كان يخصص أوقات فراغه للاشتغال بالعلوم والآداب والفنون، لقد نال سمعة ذائعة الصيت، وعرف على أنه عالم وكاتب أكثر مما عرف على أنه ذو ملك واسع على حد تعبير بلين سالف الذكر...

لقد كان يهتم بعدد كبير من الموضوعات الطريفة، فيها التاريخ وفيها الجغرافية وفيها الفن وفيها فقه اللغة... وكان يتوفر على خزانة رفيعة، وعلى عدد من الوراقين ينسخون له عيون المخطوطات، لقد كانت معظم كتبه باللغة اليونانية علاوة على المخطوطات اللاتينية البونيقية.

لقد استغرب الكاتب اليوناني پلوتارك (Plutark) من هذا «الباربار» الذي يتقن اليونانية أكثر من اليونانيين [1].

لقد نظم يوبا الثاني عددا من الإرساليات التي عهد إليها بالبحث حول أصل بحر النيل وحول أرخبيل كناريا [2]...

والى جانب بحوثه تلك نجد أيضا محاولاته حول «الجزائر المحظوظة» أو «جزائر السعادات»، كما ينعتها ابن سعيد المغربي.

وتوجد في هذه الجزائر كمية من النخيل المثمر... والصنوبر... وفي الأودية ينبت البردي (Papyrus) على ما تقول تلك الإفادات، الأمر الذي يجعلنا نتساءل : هل ما إذا كان البردي معروفا بهذه المنطقة على ذلك العهد [3] ؟

1) Marcel Benabou : Juba II, les Africains. Jeune Afrique T.9 p. 151

2) S. Histoire Ancinne de l'Afrique du Nord. Istituto Universitario Orientale, Napoli 34

الادريسي : نزهة المشتاق، ص 32-33. رحلة ابن بطوطة تحقيق د. التازي (مصدر سابق)

3) وقفت على تعليق كتبه دوسلان (De Slane) عند حديث البكري عن زهاد جبل أدار الذين يلبسون البردي، قال فيه : إن البردي لا يوجد إلا بمصر والكونكو ومصب زابير وصقلية قريبا من سيراكوزة، وأضاف أن البردي لا يصنع منه الكاغد فحسب ولكن تصنع منه القلاع والحبال وأغطية الفراش واللباس.

وإن التأليف الذي يأسف المؤرخون لضياعه هو الذي كتبه يوبا بعنوان ليبيكا (Libica) حول تاريخ المغرب : ثلاثة أجزاء على الأقل تحتوي على الجغرافيا والتاريخ الطبيعي...

وفي هذا الكتاب كان حديثه عن الأفيال التي كانت تكثر من حواليه في موريطانيا حبها، طبعها، ذاكرتها... ذكاؤها... معرفتها بعلاج جروحها : إن الفيل من الحيوانات الحية التي لا تقوم بعملها الجنسي أمام الغير. إن الفيل لا يصل الى الفيلة إلا على رأس السنتين ! وطوال أيام خمسة من المغازلة تنتهي بالاستحمام ! وكم مرة وقع الفيل في حب إنسان ما من الأناسين ! وليس الحب منه ناشئا عن ارتجال أعمى ولكنه يحب بعد درس وترو وفكر. لقد أحب الفيل ذات يوم شابا كان في جيش بطوليمي ابن يوبا الثاني هذا، كان يرفض أن يأكل إذا لم يكن ذلك الشاب حاضرا... وتظهر بوادر حبه في اللعب بخرطومه. إن الفيل يتمتع بقوة الذاكرة فهو لا ينسى الإهانة التي تلحقه، ومن هنا كان المثل «إن فلانا له ذاكرة الفيل».

وظهر اهتمام يوبا الثاني في هذا الكتاب بعلم النبات، ومن هنا نجد له مكانا ممتازا، هنا أيضا أصل الحديث عن التفاح الذهبي (الليمون أو البرتقال) الذي جنى من حقل المغاربة (Héspérides). إن علينا – حتى لا نخرج عن موضوعنا – أن نعود الى المصادر القديمة التي تحدثت بتفصل عن ميادين نشاطه الأخرى سواء في الهندسة العمرانية أو في الموسيقى كذلك[1]...

لقد جلب لعاصمته الشرقية العلماء والشعراء والفنانين والمعماريين والنحاتين من مصر واليونان، فشيدوا فيها من القصور والهياكل والمعالم ما جعله وقتئذ محل أنظار الملوك والأمراء.

ويتساءل المرء عن السر في إقبال العاهل المغربي على اللغة والحضارة اليونانية... بل وعدم نسيانه اللغة والحضارة البونيقية وقلة اهتمامه باللغة اللاتينية مع أنه نشأة روما... لقد سمى ولده بطليموس لكثرة شغفه بالإغريق... فهل لأن اليونانية كانت آنذاك ذات شهرة أوسع ؟ أم أنها ظاهرة رفض تعبر عن عزوفه عما يأتي من الحاكمين المهيمنين ؟

---

2) S. Gsel : L'Afrique du nord, T. VIII p. 264

العمل الاقتصادي ليوبا الثاني

ويمكن أن نتصور أبعاد النشاط الاقتصادي لهذا الملك العالم إذا ما عرفنا أن الأساس في أية نهضة، وخاصة منها الاقتصادية يعتمد على العلم فحيثما كان العلم كانت الصناعة... وحيثما اختفى كل شيء معه !

وهكذا رأينا يوبا الثاني يهتم بالازدهار الاقتصادي لبلاده، وينشئ عددا من المصانع وعددا من المعامل للنسيج الأرجواني في جزيرة (موكادور).

هذا الى تطوير يوبا وتنميته لمعامل تمليح السمك في ليكسوس وقد استغل الأراضي المجاورة للمدن أحسن الاستغلال.

وقد كانت المدينتان المستقلتان : ليكسوس وطنجة تنقشان كشعار على عملتهما سنابل القمح وعناقيد العنب وأزواج السمك باعتبار أن القمح والسمك والخمر تكون الوجبة الأساسية للإنسان آنذاك !

هذا الى تزايد عدد المستوردين للمواد الإيطالية حيث أمكننا أن نشاهد نماذج من المواد المجلوبة ذات الطابع الرفيع مثل القطعة الخزفية الجميلة المنسوبة لمدينة أريتْزُو (AREZZO) في طوسكانيا.

ولا ننسى أن نذكر هنا بما تحدث به سطرابون عن صادرات المغرب الى الخارج من الخشب... إن كل الكتاب الذين تحدثوا عن هذه الفترة مجمعون على الإشادة بثروة المغرب التي انعكست آثارها على نفس القطع النقدية التي كانت تروج في عهد يوبا الثاني، سواء أكانت من البرونز أو الفضة أو الذهب...

الحضارة المدنية

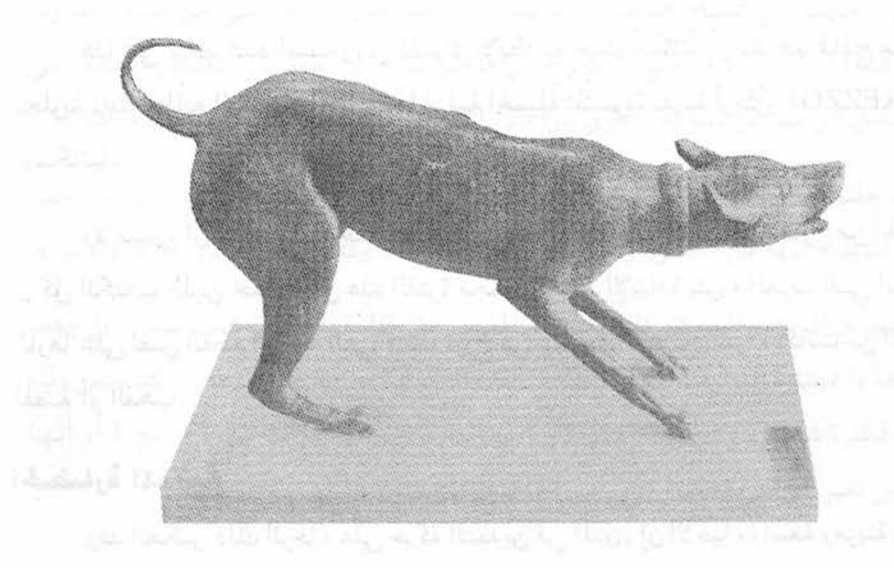
وقد انعكس ذلك الرخاء على حركة التمدين في المدن، إن الأحياء واسعة ومزينة بعدد من المعالم ذات التقاليد الإغريقية : ليكسوس يحيط بها جدار يحصنها كان يتألف من قطع كبيرة من الصخر، وقد بنيت مقبرة كبرى في وسط القلعة (Acropole) وقد أنشئ مدرج لمسرح لتسلية العمال الذين يشتغلون في معامل التمليح.

هذا الى أن هناك عدداً من المعابد ذات الطابع البونيقي تظل الى الآن ملاحظة في مدينتي باناصا (Banasa) وسلا (Sala) هذا الى بعض الاعتقادات المصرية التي دخلت تحت تأثير الأميرة كليوباطرة سيليني التي لم تفتأ تذكر بأصولها البطوليمية في القطع النقدية.

وإن المعالم العامة والبيوت الخاصة تتزين بعدد من التماثيل المرمرية والقطع الفنية البرونزية من النوع الجميل الرفيع، على نحو ما نرى في الفتى الساقي والشيخ الصياد في فولوبيليس.

وإذا ما رجعنا الى تيط ليف (Tite-Live) فإننا سنجد أن بعض التجمعات، تحضرت حتى قبل وصول الفينيقيين، وكانت تغرس الزيتون وتربي النحل وتزرع الفول والقمح على ما تشهد به الأدوات الفلاحية، وكذا الحبوب والبذرات المكتشفة في المقابر المجاورة لطنجة، إن هندستهم المائية كانت غير فينيقية وغير رومانية...

وإن الاحتفالات التي كانوا يمارسونها كانت ترتكز على الفصول الفلاحية، كما أن المعتقدات كانت تعتمد على الطبيعة، فقد كانوا ينذرون لعيون الماء وللأشجار والجبال.



كلب وليلي، يقال إنه كان في ملكية ماركوس فالروس سفروس، القائد العسكري لوليلي في عهد الإمبراطور كلوديوس وللكلب علاقة جد قديمة بالإنسان ...

الفصل السابع

علاقات بطوليمي ملك المغرب مع الرومان

- إجهاز الامبراطور على العاهل المغربي أثناء زيارته لروما !
- الرومان يعهدون بإدارة المغرب الى "البروكونسيل"
- نظام الحكم المباشر
- ظهور المسيحية واعتناق المغاربة لها أملا في التحرر
- المغاربة ينضمون الى حركة الأسقف دونات
- إنهيار الحكم الروماني
- التأثير الروماني في المغرب

علاقات بطوليمي ملك المغرب مع الرومان

بطوليمي والرومان 40/23 بعد الميلاد

إن تلك الحياة التي عرفها المغرب على عهد يوبا الثاني لم يقدر لها أن تستمر في عطائها وفي رخائها أيام الملك بطوليمي، وهكذا فإن ذلك الاقتصاد المزدهر أثار جشع الإمبراطور كاليكولا (Caligula).

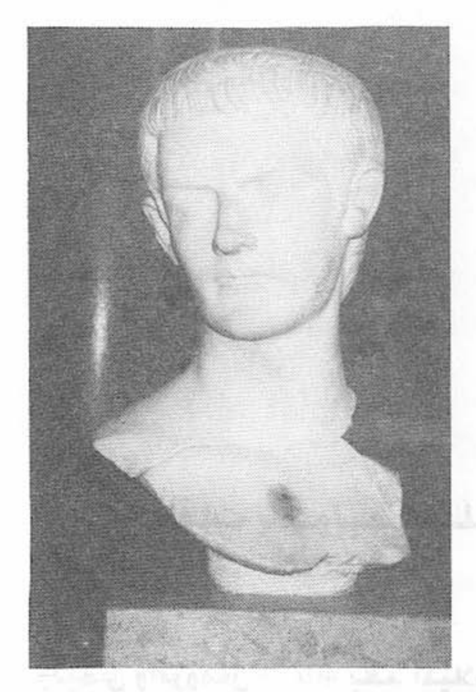
ولم تكن هذه المشاعر من كاليكولا لتخفى على الأفارقة، لكنهم كانوا متفرقين، على العادة التي عهدنا منهم منذ أيام ماسينيسا الذي عرض خدماته على سيبيون.

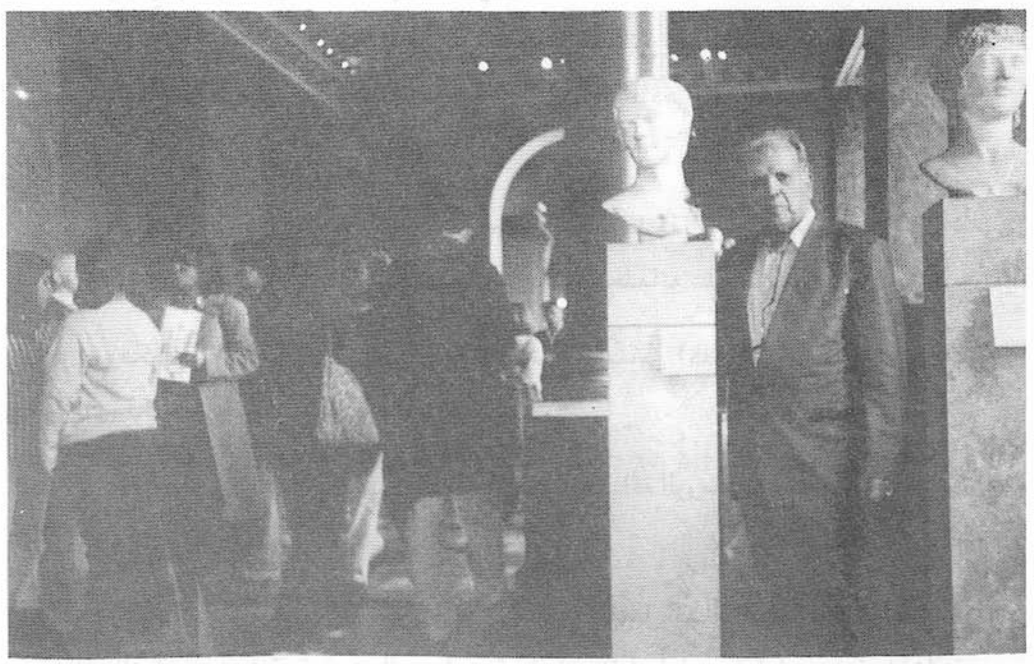
وهكذا ثار في نوميديا زعيم يحمل إسم تاكفاريناس (Tacfarinas) أملا في إقصاء الرومان، لكنهم نجحوا في الإجهاز عليه...

وبالرغم من أن الملك بطوليمي ظل يحافظ على صداقة الرومان يساعدهم فيما يبتغون إلا أن هؤلاء لم يعودوا يقنعون بمثل تلك المجاملات.

وهكذا دبر الإمبراطور كاليكولا المؤامرة الدنيئة للعاهل الشاب تمهيدا لمحو الكيان المغربي من هذه الديار... ومن ثمت توجه إليه بالدعوة عام أربعين لزيارة روما لحضور بعض الحفلات...

لكن الإمبراطور - وقد رأى الأمير المغربي يحضر المسرح بثوبه الملكي الأرجواني الجميل -



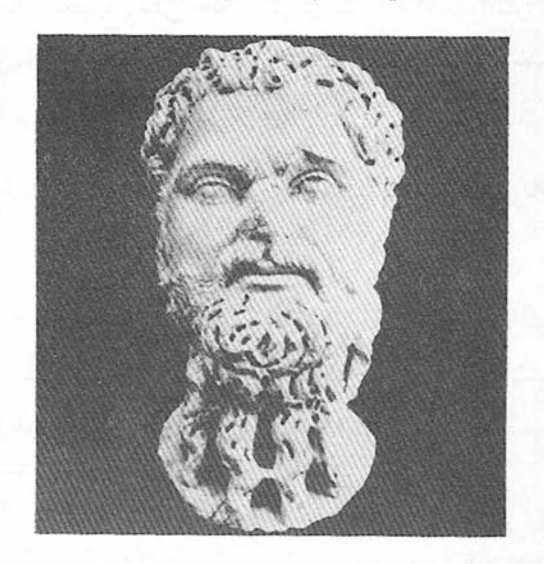


الامبراطور كاليكولا في متحف اللوفر
يُرى مؤلف هذا الكتاب إلى جانب التمثال
تصوير AWS صيف 1999

نماذج من نقود بطوليمي ابن يوبا الثاني الذي تآمر عليه الامبراطور كاليگولا



بطوليمي : رسوم النقود عن مازار Mazard



سبيتيم سيفير S. SEVERE ممن زاولوا الحكم بالمغرب والذي اتخذ شعارا له :
"أعطوا المال للجند واستخفوا بالباقي" !!

غار منه ! وهكذا ورد الهاجس الأسود الذي أوحى إلى هذا الامبراطور الشاب المتهور الطائش باعتقال ضيفه وقد قطع عنه الماء والطعام الى أن لقي حتفه عام إحدى وأربعين!

وقد كان هذا العمل الشنيع سببا في عدد من الثورات العنيفة التي قام بها أحد عبيد بطوليمي المحررين، كان يحمل إسم إيدمون (Aedemon)، تلك الثورات التي استمرت طوال سنوات طويلة اقتضت التدخل المباشر للقوات الرومانية في البلاد مستعينة بالقوات المساعدة [1].

ومن هنا عهد الرومان بإدارة الشؤون في البلاد الى حاكم يحمل لقب البروكونسيل (Proconsul). كانت مهمته الأساسية العمل على جمع الضرائب المفروضة على السكان بما فيها الضرائب الشخصية والفلاحية.

لقد كان (البروكونسيل) يستعين على القيام بمهمته بمجلس مزدوج من الرومان وبعض أعيان البلاد.

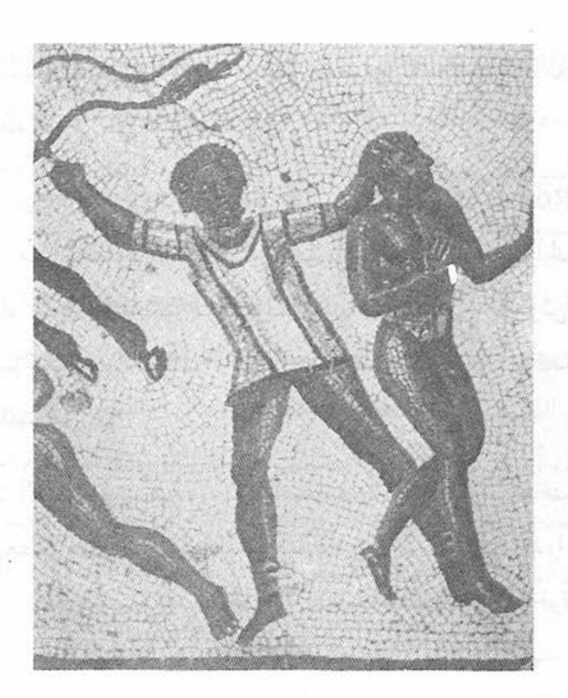
وكان يعين في وظيفته لمدة سنة واحدة بصفة مبدئية ولو أن المدة أحيانا كانت تمدد لسنة ثانية وثالثة حسب نجاحه في المهمة التي عهد إليه بها...

وقد كان الرومان يقتصرون على احتلال المراكز التي لها أهمية استراتيجية، وكثيرا ما كانوا يختلطون بالسكان ويختار الجنود منهم المقام بالناحية التي أدوا فيها خدمتهم العسكرية وربما تزوجوا أحيانا من مغربيات...

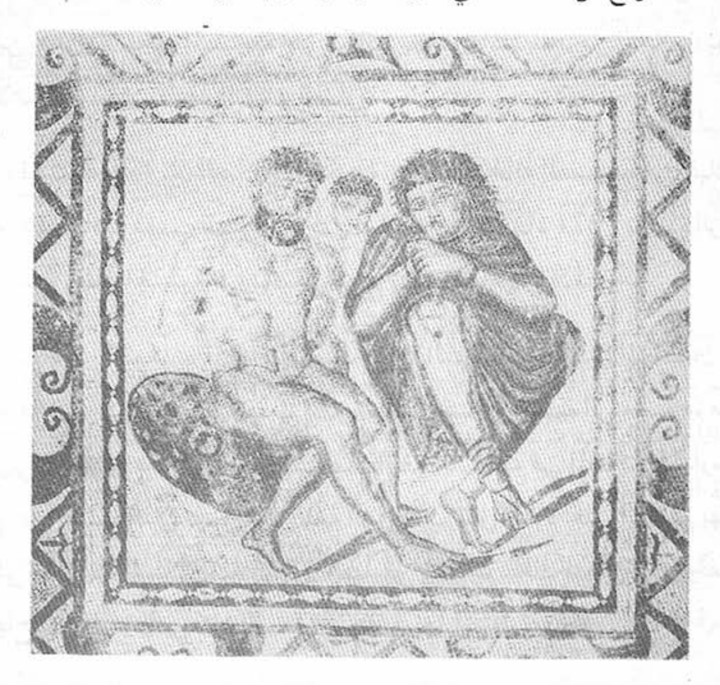
وبهذا ندرك ما تتركه مثل تلك الاتصالات من تأثير ليس فقط من ناحية اللغة والمصطلحات فحسب، بل كذلك من ناحية المعتقدات كذلك.

وقد قام الجند - بتكليف من الحكومة الرومانية - بأعمال إنشائية كبرى كمد الطرقات وحفر الآبار ووضع السقايات وجلب الماء الى المدن وبناء الحمامات والملاعب والمسارح والقناطر والهياكل ولو أن جل هذه النفقات كانت من الضرائب التي كان يستخلصها الرومان من الوطنيين

1) مصطفى أوعشي : موريطانيا الطنجية Memorial V 1 p. 215



نموذج من المعاملة التي كان الأفارقة يعانونها من المحتلين لبلادهم



فسيفساء تمثل بعض الأسرى المغاربة

المغاربة، وأحيانا من المبالغ التي كان الأغنياء منهم يقدمونها للحكومة طلبا للشهرة والجاه، ولأنهم هم المستفيدون بالدرجة الأولى من تلك المنشآت.

لقد غدت إفريقيا مخزنا لروما على حد تعبيرهم أنفسهم (Graniarum Romae) تمد العاصمة بالقدر الوافر من المحصولات الزراعية كالحبوب والفواكه المجففة والخمور والزيوت وكذلك الثروات الحيوانية كالمواشي ومشتقاتها من صوف وجلد... والخيول والوحوش الضارية التي كانوا يحتاجون إليها لتنظيم الأعياد والحفلات الكبرى، هذا أيضا الى تصدير الأقمشة الغليظة والأواني الطينية والمصابيح والقناديل...

وعندما ظهرت الديانة المسيحية ووصلت أصداؤها لأنحاء المغرب تهافتت طائفة من السكان عليها، والملاحظ أن بعض المغاربة اعتنقوا المسيحية بادئ الأمر لما أنهم وجدوا فيها أملا لتحريرهم من ربقة القهر والظلم الواقع عليهم، فقد سمعوا أن الديانة الجديدة تأمر بالأخوة والمساواة ولا تسمح للإنسان، أي إنسان أن يُهينَ إنسانا أي إنسان، ويستعبده أو يتسلط عليه.

وقد شعر الرومان بالباعث الذي حدا بالأهالي الى الترحيب بهذا الدين الجديد فأخذوا يحاربون الذين يدعون لانتحال المسيحية حتى لكانوا يجلدون المتدينين من الأهالي، بل ويجمعونهم في سوح الملاعب ويرسلون عليهم السباع الضارية.

وهنا وقعت المجابهة بين السكان والحكومة، وساءت الحالة السياسية في البلاد، وتبع ذلك تدهور الحالة الاقتصادية فعمت الثورة في طول البلاد وعرضها عام 371 م بقيادة الزعيم فيرموس (Firmus) الذي رفض الجنسية الرومانية وأصبح ينظم المظاهرات ضد روما...

وزاد في تدمر السكان، الموقف المتعنت لروما التي أخذت تجبر المواطنين على الخدمة العسكرية للدفاع عن كيانها، كما أخذت تشجع على اعتناق الجنسية الرومانية مؤملة بذلك إذابة العنصر المغربي، وتَعَدَّى هذا الى فرض استعمال اللغة اللاتينية في المحاكم والمدارس القائمة في المدن الكبري في الوقت الذي تهمل فيه اللغة التي دأب أهل البلاد على التفاهم بها، وهي اللغة البونيقية التي تعلق بها السكان منذ الوجود الفينيقي ببلادهم، ذلك التعلق الذي وقف عرقلة كبرى في طريق نجاح الأساليب التي كان الرومان يستعملونها لبسط نفوذهم.

ولقد توالى ذلك الاضطهاد الى أن استتب الأمر للإمبراطور قسطانطان (Constantin) الذي أعلن المسيحية ديانة رسمية للدولة بعد انتصاره على الإمبراطور ماكصانس (Maxence) وبعد نقل كرسي الأمبراطورية من العاصمة روما إلى بيزنطة (Byzance) حيث حملت عام 330 إسم القسطنطينية نسبة إليه وأصبحت العاصمة الشرقية...

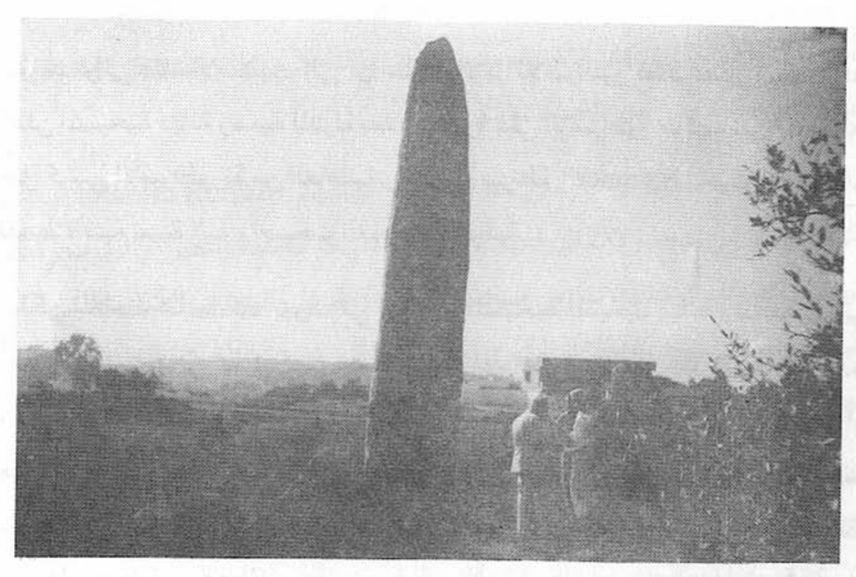
لكن الملاحظ أنه ما كاد يعرف في البلد أن المسيحية أصبحت ديانة رسمية للمتسلطين حتى أخذ المواطنون يهجرونها ! ونحن نعلم أن اعتناقهم لها بادئ الأمر إنما كان - كما أسلفنا - وسيلة للتخلص من الهيمنة الرومانية فلما أمسى الرومان أنفسهم يعتنقونها أصبح على المغاربة أن يبحثوا عن وسيلة أخري ليعبروا عن رفضهم ... وكان الوسيلة هذه المرة استغلال خلاف نشأ بين المعتنقين للدين المسيحي أنفسهم ! وهكذا اغتنم المغاربة فرصة النزاع حول تسمية خلف للأسقف الذي يمثل المسحيين في بلاد المغرب فانضموا الى الأسقف دونات (Donat) (تـ 355) زعيم المعارضة.

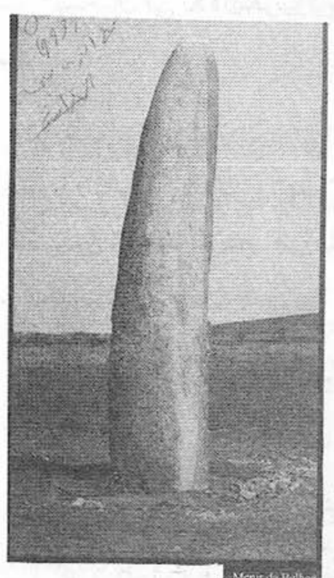
ولم يلبث هؤلاء الدوناتيون أن اتخذوا مذهبًا اجتماعيًا لهم مرددين أنهم يريدون أن يقروا مبدأ المساواة التامة بين الناس وأنهم لا يعترفون بأية سلطة، وقد ظل أغلب الدوناتيين من أبناء البلاد يتصيدون الفرصة للانقضاض على خصومهم متقمصين الحركة الدينية درعا يخفون وراءه حركتهم السياسية...

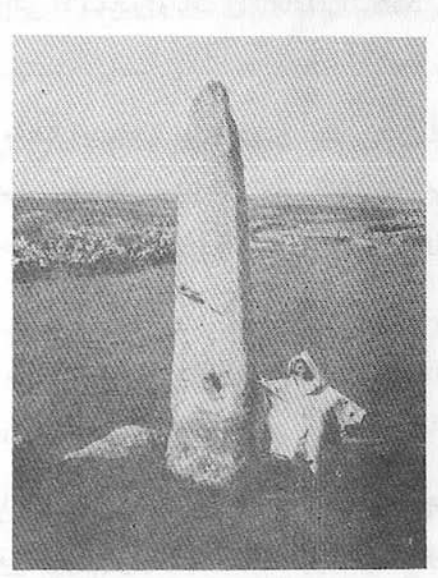
وهكذا انهار الوجود الروماني بالمغرب بعد ستة قرون من الحكم الغير المباشر حينا والمباشر حينا آخر.

وقد سجلت البلاد خلال هذه الفترة عددا من أسماء الملوك الرومان الذين يصح أن نعدهم ممن زاولوا الحكم بديارنا ! وأذكر من هؤلاء علاوة على من سبقت الإشارة إليهم الامبراطور كلود (Claud) الذي يذكر أنه مؤسس مدينة طنجة... والذي يذكر أنه زار وليلي، حيث زينت بسبب ذلك الساحة العمومية.

كما كان منهم الإمبراطور كاراكلا (Caracalla 198-217) الذي زار بدوره وليلي حيث بني على شرفه قوس النصر...







من الآثار الرومانية في مزورة – عمالة العرائش

كان مما لفت نظر علماء الآثار منذ أواسط القرن الماضي : أرثر بروك عام 1836 وتيسو (Tissot) عام 1878 مايوجد في عمالة العرائش في الطريق المؤدي إلى أصيلة وبالذّات في ناحية (مزورة) هذا النوع من "المسلات" إذا صح التعبير : شكل عمودي يطلق عليه في اللغة الفرنسية اسم (منهير –Menhir) : في طول يتجاوز خمسة أمتار. وإنه لواضح أن هذه الأحجار بما تتميّز به، لشاهد على وجود حضارة متقدمة في هذه المنطقة. وقد وقفتُ على أشباه لهذه "المسلات" في البرتغال أوائل التسعينات كما وقفتُ على آثار مزورة أواسط يوليه 2000 بمساعدة السلطات المحلية التي نجدّد الشكر لها.

هذا الى الإمبراطور ديوكليتيان (Dioclétien 284-305) الذي أصبحت موريطانيا في عهده تابعة لأسقفية إسبانيا، ثم الإمبراطور قسطنطين (Constantin 306-337) حيث صارت موريطانيا تابعة لمقاطعة الغال من الناحية الإدارية...

التأثير الروماني في المغرب

ومع كل ذلك الاتصال الطويل نرى أن الرومان لم يتجاوزوا في معظم الحالات مناطق محدودة تمتد من نهر أبي رقراق الى نهر ملوية... وأنهم لم يتوغلوا في البلاد إلا في ظروف عابرة حيث ظلت أغلب أطراف البلاد في منأى عنهم محتفظة باستقلالها وأنظمتها ومجالسها وجماعاتها التي عرفتها قبل الرومان بزمن طويل على ما أسلفنا...

وبالرغم من أن الاحتلال كان عسكريا واقتصاديا إلا أنه مع ذلك ترك آثاره في الميدان المعماري والفلاحي...

أما على الصعيد الفكري فإن التأثير قليل إذا ما قارناً له بالقرون الستة التي قضوها بالبلاد ولو أننا سجلنا استمرار المغاربة في استعمال أسماء الشهور الفلاحية واحتفاظهم ببعض المصطلحات الزراعية... هذا الى اعتناق بعضهم للدين المسيحي بعد أن كانوا يهوداً أو وثنيين...

الفصل الثامن

العلاقات بين المغرب والوندال 439/534

- إقبال المغاربة على الواندال في بداية ظهورهم.
- تصدي الإمبراطورية الشرقية (بيزنطة) للواندال.
- إتفاقية عام 435 بين الإمبراطور والواندال لتوزيع بلاد المغرب !
- إتفاقية التسوية لعام 442.
- الواندال وموريطانيا...
- المغاربة يعلنون التمرد على الواندال.

العلاقات بين المغرب والوندال 439/534

لقد كان مما ساعد على التعجيل بنهاية وجود الدولة الرومانية بالمغرب أن أقدم الوالي العسكري الروماني على المغرب (الكونت بونيفاس) - بدافع من طموح طائش، على القيام بحركة إنفصالية عن دولته للاستقلال بالمغرب مستعينا - لتحقيق ذلك بأصهاره الواندال الذين أسسوا بجنوب إسبانيا مملكة حملت إسمهم أندلوسيا (الأندلس).

ولم يكن غريبا علينا - وقد عرفنا عن موقف الرومان من المغاربة - أن نشاهد إقبال هؤلاء على الواندال بمجرد ما وطئت أقدامهم أرض موريطانيا الطنجية بقيادة جيسريك (Geiserie).

وقد كان المغاربة ينتظرون خيرا من هؤلاء، بيد أن آمالهم لم تلبث أن خابت بمجرد ما استتب الأمر للوندال الذين انقلبوا وحوشا ضارية، يفتكون بالناس ويأتون على الغابات التي أسهم في زرعها الفينيقيون، وعلى معالم الآثار التي خلفها الرومان...

ولما كانت روما عاصمة الإمبراطور الغربية على حال من الضعف لا تسمح لها بمقاومة تيار الوندال، فقد تصدت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الشرقية (بيزنطة) للمقاومة واستطاعت أن تحصل على توقيع ميثاق عام 435م، يقضي بتوزيع إفريقيا الشمالية : حيث يحتفظ الإمبراطور بقرطاج وأقاليمها الشرقية، في مقابلة احتفاظ الوندال بموريطانيا القيصرية... والسطيفية ونوميديا، وبمقتضى اتفاقية عام 442م وقعت تسوية جديدة أعطت للوندال قرطاج وشرق افريقيا في مقابلة الأقاليم الغربية التي احتفظت بها الإمبراطورية الرومانية، بيد أن إفريقيا الشمالية لم تلبث أن أصبحت كلها تابعة للواندال ...



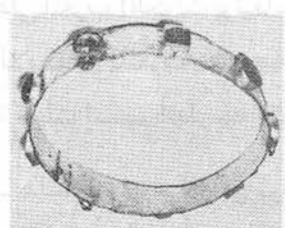


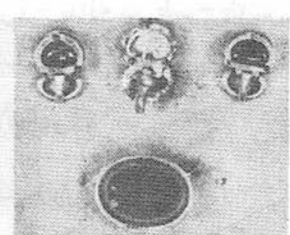
الوجه الأول : رسم الملك الواندالي مع تعليق، والوجه الثاني يحمل شعار D.N، كما تقدم

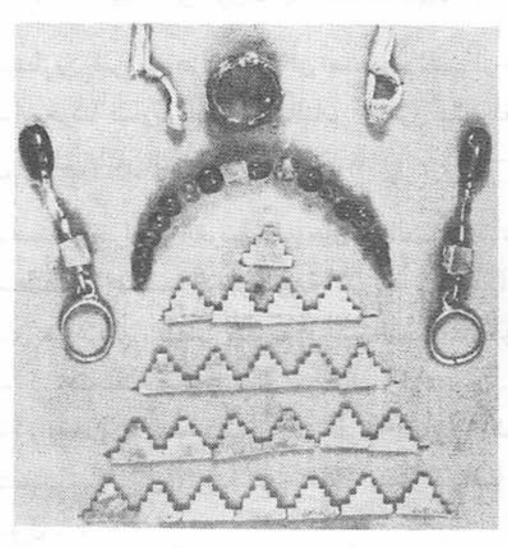




الوجه الأول : رسم الملك كذلك وفي الوجه الثاني رسم لأنثى تحمل سنبلتين...







آثار ومجوهرات الواندال

الوندال وموريطانيا

وفيما يتصل باحتلال الواندال لموريطانيا الطنجية فإنه مما لم يتأكد الى الآن، حسبما ظهر من إشارات، ذكر موريطانيا الطنجية من خلال سطور الاتفاقيتين المشار إليهما : اتفاقية 435 واتفاقية 442... فهل إن ذلك كان لأن موريطانيا الطنجية كانت ما تزال تابعة إداريا لأسقفية إسبانيا أو تابعا لمقاطعة الغال ؟ وأن المفاوضات كانت تتعلق فقط بالمناطق التي كانت من الوجهة الإدارية إفريقية ؟ أم إن أهمية موريطانيا الطنجية على ذلك العهد كانت محدودة أم إنها كانت إداريا مندمجة [1] في موريطانيا القيصرية ؟

ومهما يكن فقد آل حكم إفريقيا بكاملها الى الواندال، وهكذا تم لجينسريق إنشاء مملكة واسعة الأطراف، وأمسى الواندال يؤرخون بأيام ملوكهم وصاروا يرسمون صورهم على النقود وهم واتخذوا لهم أسطولا عظيما خاضوا به عباب البحر المتوسط، وهم في كل هذا يحاولون أن يستميلوا سكان البلاد...

ولقد كان يمكن لمملكة الواندال أن تدوم طويلا لو أن الذين ورثوا الحكم من بعد جينسريق أحسنوا التصرف ولم يستسلموا للبطش بالناس، لقد بلغ من أمر هنريق أن أحرق أمام الناس أسقفا ورد عليه من قرطاج ليعظه ! كما استسلم الواندال لحياة «الأبهة» و«البذخ» التي قتلت فيهم روح الفحولة والرجولة، الأمر الذي تحسس منه المغاربة انهيار الواندال وانهزامهم...

وهكذا لم يلبث المغاربة أن تحركوا للقيام بتنظيم التمرد وإثارة المشاكل في وجه الحكام الواندال الذين أمعنوا في اضطهاد الناس وخاصة منهم الأرثودوكس... واعتصم السكان بالجبال وأخذوا يوجهون منها الضربات للواندال... وقد كان في صدر الزعماء الأفارقة، من الذين أعلنوا الثورة ضد الواندال القائد كالبيون (Galbion). وقد ساعدت كثرة أخطاء الوندال على المزيد من تألب هذه الأخيرة، وانتهى الأمر بالحملة الهائلة التي شنها الإمبراطور جوستينيان (Justinien) في صيف 533 تحت قيادة الجنرال الروماني (Bélisairc) تلك الحملة التي انتهت بانهيار دولة الواندال على ما سنرى...

---

(1) Aomar Akerraz : le Maroc Post-Romain, le Memorial du Maroc V. 1, p. 263

لقد ألهب بيليزير (Bélisaire) الجيش الروماني بهذه الكلمات «اعلموا أنني ما أتيت لهذه البلاد إلا لأخذ الحق من الظالم وإرجاعه الى المظلوم، ولست أضمر عداوة للأهالي أو الواندال أنفسهم، لكن مهمتي تنحصر في الأخذ بالثأر من القائد جيليمير (Gélimer) وحده».

لقد كان الأمير الواندالي (Hildéric) حفيد جينسريق اعترف بسيادة الإمبراطورية الشرقية لكي يعزز مركزه، فلقي هذا الموقف معارضة من قبل رعيته الواندال منتقدين عدم ثقته بنفسه، وكان من نتائج هذا، إنقلاب القائد جيليمير (Gélimer) علي هيلديريك، فكتب الإمبراطور الشرقي جوستينيان (Justinien) يطلب الى جيليمير أن يسمح لهيلديريك بالالتحاق بالقسطنطينية صحبة أسرته، فرفض جيليمير معنفا على الإمبراطور تدخله في الشؤون الداخلية للبلاد، قائلا: «إن الإمبراطور الذي نحكم بحكمه هو الذي يهتم بتدبير أموره ولا يحول نظره الى خارج مملكته !!

وقد التف أمراء البربر وقادتهم حول الجنرال (بيليزير) من شتى أنحاء المغرب... وانظم إليهم بعض الرومان الموتورين ولم تلبث البلاد أن سقطت بين يدي (بيليزير)، وعمت الفرحة عندما أقر القائد الرّوماني زعماء البلاد في مناصبهم وقدم لهم الصلات والخلع... وهكذا تنتهي أيام الواندال بالمغرب بعد حكم استغرق قرابة القرن.

أما عن آثار الوندال في البلاد، فإنه، بالرغم من خذلان المصادر التاريخية التي تجعل كل أقوالنا افتراضية... لمّا يصعب علينا أن نعمم الحكم على الواندال بأنهم إنما كانوا عناصر هدم وتخريب لا سيما مع ما سمعناه عن عملتهم التي كانت تضرب في قرطاج وما سمعناه عن تقسيم الأراضي الفلاحية الى مناطق، وممارستهم للحياة الزراعية... إن معظم الذين أرخوا للواندال كانوا من خصومهم، وويل لأمة يكتب تاريخها أعداؤها...!

الفصل التاسع

المغرب والامبراطورية الشرقية (بيزنطة)

- تقسيم بلاد المغرب الى ستة أقاليم لإحكام السيطرة عليه !
- العناصر التي يتكون منها الجند البيزنطيون.
- المواقع التي اقتصر البيزنطيون على احتلالها.
- سياسة الروم البيزنطيين مع الأهالي.
- تدهور الحكم البيزنطي بالبلاد.
- وصول أصداء الإسلام الى المغرب.
- المغرب القديم من خلال بعض النُّصوص العربية

المغرب وبيزنطة

بعدما تم القضاء على القائد الواندالي جيليمير (Gélimer) سالف الذكر عين الأمبراطور جوسيتينان (Justinien) ابتداد من عام 534 حاكما على البلاد يقيم في قرطاج، كانت له السلطة المطلقة في الشؤون الإدارية والمالية والقضائية، وقسمت بلاد المغرب الى خمسة أقاليم أملا في إحكام السيطرة على البلاد الإفريقية... كان الإقليم الخامس هو موريطانيا الطنجية وهي المغرب الأقصى وعاصمتها سبتة.

ولقد جعل حاكم قرطاج على كل إقليم عاملا يدبر شؤونه... وكان الجند المرابط في الشمال الإفريقي يتألف من عناصر ثلاثة : البيزنطيون، البربر، والمرتزقة.

هذا ويلاحظ، منذ البداية، أن نفوذ البيزنطيين على المغرب الأقصى كان ضعيفا لا يشمل سوي المنطقة الشمالية وخصوصا مدينة سبتة نظرا لموقعها بين البحرين : المتوسط والمحيط، سيما وهي على بضعة أميال من الأندلس... أما باقي المغرب فقد ظل تحت سيادة أهله.

لقد كانت سياسة الروم البيزنطيين بالنسبة للرومان المقيمين بالمغرب تقصد الى الملاينة... أما مع سكان المغرب فإن سياستهم كانت تعتمد على استمالة الرؤساء والتفريق بين المواطنين على عادة الدخلاء ! وهكذا كانوا يستدعون بعض رؤساء البربر لزيارة قرطاج ويضفون عليهم هناك من ضروب التكريم ما يجعل ألسنتهم رطبة بالحديث عن البيزنطيين.

وقد أصيبت الكنيسة في المشرق بداء لم يلبث أن تسرب للكنيسة الإفريقية، وهذا الداء هو داء المناقشات الجزئية التافهة المعروفة بالمناقشات البيزنطية ! فاتسع الخلاف بين القسيسين والرهبان وشاعت مذاهب وقفت حجر عثرة في سبيل تقدم الكنيسة، بل كانت السبب في تفكك أوصال الإمبراطورية البيزنطية بالمغرب...

أضف الى هذا إثقال الروم لكاهل الشعب المغربي بالضرائب الفادحة وتفشي داء الرشوة في المعاملات، الأمر الذي شجع على اتساع الهوة بين المغاربة والروم بل والى قتل الوالي البيزنطي سليمان عام 545، بعد فشل المفاوضات والمقابلات والوفادات بين الأهالي ورجال الحكم.

وقد توالت الثورات الوطنية ضد الحكام البيزنطيين وزاد من سوء حظ الحاكمين الأجانب إنهم حاربوا سائر الديانات والمذاهب...

وقد جددت المحاولات للأخذ بناصية الأمور سواء بالطرق السياسية أو الطرق الأخري وكان من تلك المبادرات إرسال حاكم خبير بأحوال الأهالي جان طروكليطا (Jean Troglita) الذي عرف - لبعض الوقت - كيف يوهم الوطنيين أنه يقصد فقط ضرب عناصر الشغب حتى إذا ما أعانوه تنكر لهم ! فانقلبوا عليه من جديد وبشكل أعنف وكأن المغاربة صمموا عن بكرة أبيهم على رفض منح ثقتهم لأية تجربة تعرض عليهم من قبل بيزنطة.

المغرب القديم من خلال بعض النصوص العربية

وردت طائفة من الإفادات في عدد من المصادر العربية الأصيلة تتضمن بعض اللقطات الطريفة التي من شأنها أن تكمل تصورنا لمغرب الأمس.

وهكذا قرأنا في كتاب «المالك والمسالك» للأصطخرى (ص. 44) حديثا عن أصناف البربر... ونفس الموضوع وجدنا الحديث عنه في المسالك والممالك لابن حوقل، ص. 71، وفي مروج الذهب للمسعودي 1، 258/259 حديث عن خشخاش الذي كان في صدر من حاول اكتشاف ما وراء المحيط الأطلسي... كما تحدث المسعودي (375,2-376) عن القنطرة التي كانت تربط بين الأندلس والمغرب...

وتحدث الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق عن المغرب والبحر المتوسط ...

وقد أورد ابن خلكان في وفيات الأعيان أخباراً عن صراع اليونان والفرس بالمشرق وانتقال الأولين الى الأندلس...

وقد وردت إفادات جليلة حول المغرب القديم في تاريخ ابن خلدون : حديثه عن سكان المغرب الأولين، وعن الروم، وعن الواندال...

وتحدث ابن الوزان في كتابه «وصف افريقيا عن النقوش التي توجد على بعض الحجارة والتي لا يفهمها إنسان، وعن مدينة وليله... وعن بعض الجدران التي تقرأ فوقها كتابات لاتينية... وعن الأبنية الرومانية وعن الأصنام...

وتحدث الحسن اليوسي في كتابه المحاضرات عن الخصائص الثلاث للمغاربة قائلا : «لو عرف أرسطو قدر البرنس في اللباس والكسكسون في الطعام والحلق للرأس بالموسى لأعترف للبربر بحكمة التدبير الدنيوي وأن لهم قصب السبق في ذلك...

الباب الثاني

مغرب ما بعد ظهور الإسلام

- المغرب وظهور الاسلام
- علاقة المغرب بالمشرق في عهد الولاة
- نحو القارة الأوروبية
- نشأة الإمارات المستقلة في المغرب !
- مقدم الإمام إدريس وظهور دولة الأدارسة
- العلاقات الخارجية للأدارسة بالعباسيين
- سفارتهم لدى شارلمان؟
- علاقة المغرب بالعُبَيْديين
- سياسة الأمويين بالأندلس مع الإمارات المستقلة في المغرب
- ملحمة الأدارسة ضد تسلّط الأمويين !
- علاقة الزِّيريين في المغرب مع الأمويين بالأندلس

الفصل الأول

المغرب وظهور الإسلام

- ماذا عن الوفادة المغربية على النبيﷺ بمكة ؟
- خطابه الى قيصر ملك الروم، وعلاقة المغرب بهذا الخطاب !
- صحيح البخاري ومسلم كمصدرين من مصادر التاريخ الإسلامي.
- مضمون الخطاب النبوي وصداه لدى العالم المسيحي.
- الخطاب النبوي في الرسائل الدبلوماسية التي بعثها ملوك المغرب الى فرنسا
- مصير نص الخطاب النبوي.

المغرب وظهور الإسلام

لعل من الطريف أن نسمع عن وصول وفد مغربي، منذ الأيام الأولى لظهور الإسلام، الى مكة للاجتماع بالنبي صلى الله عليه وسلام، والاستماع إليه قبل أن يهاجر الى المدينة المنورة، ويتعلق الأمر بجماعة تتألف من «سبعة رجال» من قبيلة رجراجة : أشراف قبائل مصمودة، كان سيدي شاكر بن يعلي بن واصل على رأسها، وعن طريقها سمعت بلادنا بالإسلام أول الأمر على ما يرويه الإمام ابن سعيد السوسي المرغيتي[1].

خطاب النبيﷺ الى قيصر عظيم الروم وعلاقة المغرب بهذا الخطاب

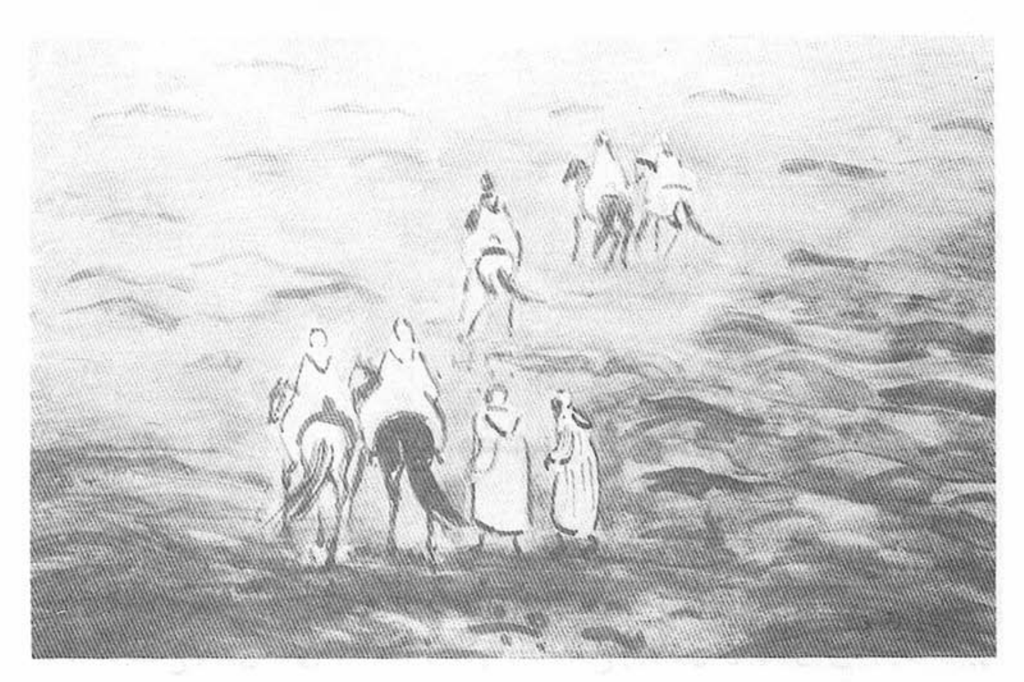
وقد تجلى الاتصال واضحا عندما قام النبي عليه الصلاة والسلام بثاني حركة ديبلوماسية بعد إرسال الضمري للحبشة، ويتعلق الأمر بالسفارة التي راحت برئاسة دحية الكلبي في مطلع السنة السابعة من الهجرة (مايه 628) الى هرقل امبراطور الدولة الشرقية البيزنطية.

ومعلوم أن بلاد المغرب على هذا العهد كانت ضمن الأراضي التابعة لهيراكليوس، وهكذا فإن الأمر كان يعنينا نحن المغاربة ! ومن هنا جاز لنا أن نستهل العلاقات الخارجية للمغرب في العهد الإسلامي، بالحديث عن هذه الرسالة النبوية التي أورد نصها الإمامان البخاري ومسلم.

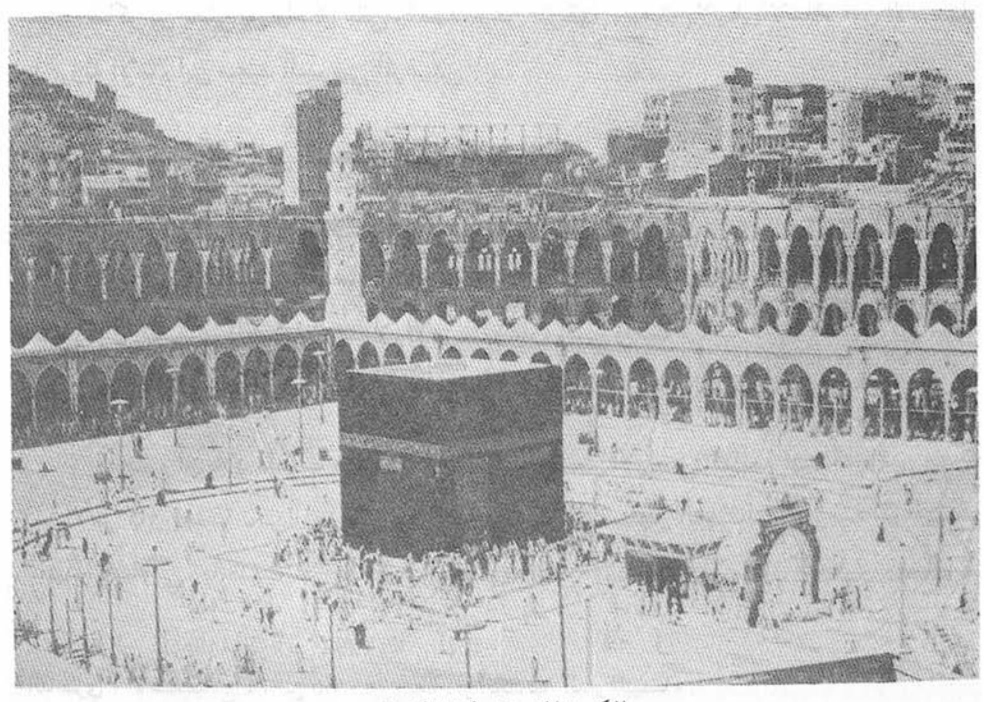
---

1) الاوفراني : نزهة الحادي (ص 292)

الناصري : الاستقصا ج 1، ص 65/66، طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء



القافلة المغربية نحو مكة بريشة حسن الگلاوي



الكعبة المشرفة بمكة المكرمة

وهذا نص الرسالة النبوية الى هرقل :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم : «سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين «ويأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

لقد كان قيصر يعاني محن الهزيمة والغلب من لدن منافسه كسرى عظيم الفرس الذي خرب، طوال ثمان سنوات، الكثير من الممالك الرومية وهدد العاصمة نفسها، ولكن الظروف لم تلبث أن تغيرت لصالح قيصر عندما حالقه أمير جيش الفرس في أعقاب جفوة وقعت بينه وبين سيده كسرى الذي كان يعتزم استبداله، وقد كان انتصار قيصر على كسرى في معركة (نيقيه) الحاسمة على مقربة من القسطنطينية في أبريل 628 باعثاً لهرقل على أن يقوم راجلا الى حج بيت المقدس شكرا لله، تقريبا في نفس الوقت الذي كان يعود فيهﷺ من الحديبية الى المدينة، وهكذا مشى هرقل من القسطنطينية الى إيلياء حيث استقبل هناك دحية الكلبي كسفير رسول الله ﷺ [1].

لقد كانت أصداء موضوع السفارة النبوية قد وصلت الى رحاب القيصر، فأمر رجاله بإحضار من يستطيع أن يقدم معلومات عن هذا الذي «جرؤ» أن يبعث إليه بخطابه ! وهنا تم الاتصال بأبي سفيان الذي كان في ركب من قريش في رحلةٍ تجاريةٍ ببلاد الشام أثناء فترة هدنة الحديبية...

وقد مثل التجار بين يدي هرقل، وهنا سأل - بواسطة ترجمانه - هل ما إذا كان بين الحاضرين من يمت بصلةٍ عائليةٍ الى ذلك الذي يزعم أنه نبي، فتصدى أبو سفيان باعتباره ابن عم رسول الله.

1) ايليا هي المقصود عند بعض المفسرين «بالقرية التي كانت حاضرة البحر»

وكانت الأسئلة الأحدى عشرة التي أوردها الإمام البخاري...وكان حديث هرقل عن انطباعاته حول الأجوبة التي قدمها رجل لم يكن قد انتظم بعد في سلك المسلمين...

ويتجلى أن كتاب الرسول الى هرقل أثار ضجة كبرى ليس فقط في دولة الروم البيزنطية، ولكن صداه وصل أيضا الى دولة الروم الغربية...

وإن الرواية الإسلامية لتطبق جميعها على أن هرقل عني بالكتاب وحفظه، ومن هنا نرى اهتمام المؤرخين بمصير الخطاب النبوي.

وقد تحدث ابن أبي زرع في كتابه الأنيس المطرب بإسهاب عن السفارة التي بعث بها الفونسو الى العاهل الموحدي الناصر بن يعقوب عام 608=1211.

وكان الشاهد عندي في (الأنيس المطرب) هو المقطع الذي يتعلق بتقديم خطاب النبي (ص) لهرقل، الى الخليفة الناصر توسلا وتشفعا الى آخر المرويات [1].

ويختفي الحديث عن خطاب الرسول (ص) الى هرقل قريبا من أربعة قرون، ولكن ليثار من جديد، على المستوى الدولي وبواسطة الرسائل والسفارات المغربية.

ولم يكن ذلك الذي أثار الحديث غير السلطان المولى اسماعيل جد الأسرة العلوية الذي أبدى اهتمامه بالموضوع حيث نجده يخاطب الملك لويز الرابع عشر بتاريخ 2 رمضان 1092 = 15 أكتوبر 1681 بأنه «وقف في بعض المؤلفات على أخبار رسالة بعث بها نبينا الى جدكم هرقل يطلب إليه فيها الدخول في الإسلام»، ويسأل العاهل الفرنسي : هل ما إذا كانت تلك الرسالة توجد في حوزته ؟!

وهذا أيضا ما تؤكده رسالة المولى اسماعيل الى جاك الثاني ملك بريطانيا اللاجئ بفرنسا. وكانت تحمل تاريخ 15 شعبان 1109=26 يبراير 1698 [2]...

1) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج3، ص 237 وما بعدها

2) S.I.H.M. Frances T.IV.P.577

ومن المطرف الممتع أن نجد أنفسنا اليوم أمام عنصر جديد في الموضوع، فعلى إثر الأصداء التي ترددت عن وجود الرسالة المذكورة مكتوبة على رق غزال في حوزة أميرةٍ عربية آلت إليها من ذويها الذين أوصوها أن لا تسلمها – عند الحاجة – إلا لحاكم مسلم... وعلى إثر الاختبارات التي جرت سواء في لندن أو في الكويت أو في أبو ظبي، حول جلدها وخطها ومتنها... على إثر ذلك كانت المفاجأة، عندما تقدم العاهل الأردني الراحل الملك حسين رحمه الله أمام الشاشة الصغيرة ليزف البشرى لشعبه (بمناسبة اليوبيل الفضي لعيد جلوسه على العرش) ويقدم هذه الرسالة تحية منه الى العالم الإسلامي، ويؤكد أنها كانت أعز ما تركه جله الملك عبد الله بن الحسين الذي أودعها يدا أمينة وأوصى أن تسلم الى من يقدر أهميتها ويدرك قيمتها [1].

---

1) وقفت على هذه الصحيفة صباح عيد المولد النبوي (1398- 1978/2/19) في قصر الهاشمية بضواحي عمان، وقد كانت قطعة من رق الغزال من طول 33 سنتيما على 24 عرضا، أو 32 تقريبا على 23، غير تامة التربيع...

الفصل الثاني

علاقة المغرب بالمشرق في عهد الخلفاء والولاة

- عمرو بن العاص في اتجاه الديار المغربية.
- عثمان بن عفان يأمر بفتح بلاد المغرب.
- أول صلح بين العرب، وبين الروم في إفريقية.
- أثر الخلافات بين القادة في المشرق على الوضع في المغرب.
- إنشاء الدولة الأموية بالمشرق واستئناف الاتّصال بديار المغرب.
- عقبة بن نافع وتأسيس القيروان ثم وصوله الى المحيط.
- دور عقبة بن نافع في تعريب البلاد.
- اغتيال عقبة وهو في طريق العودة الى القيروان.
- زهير البلوي في حملة تأديبية واغتياله بإيعاز من جوستينيان
- حسان بن النعمان يعيد الهيبة للجيش الإسلامي ويصطدم بالكاهنة شرق المغرب الأوسط.
- تعيين موسى بن نصير والياً على افريقية...

علاقة المغرب بالمشرق في عهد الخلفاء والولاة

اتجهت الكتائب بقيادة عمرو بن العاص نحو الولايات الإفريقية التي كانت تخضع للبطريق جرجير والي هرقل على المنطقة الممتدة من طرابلس الى طنجة...

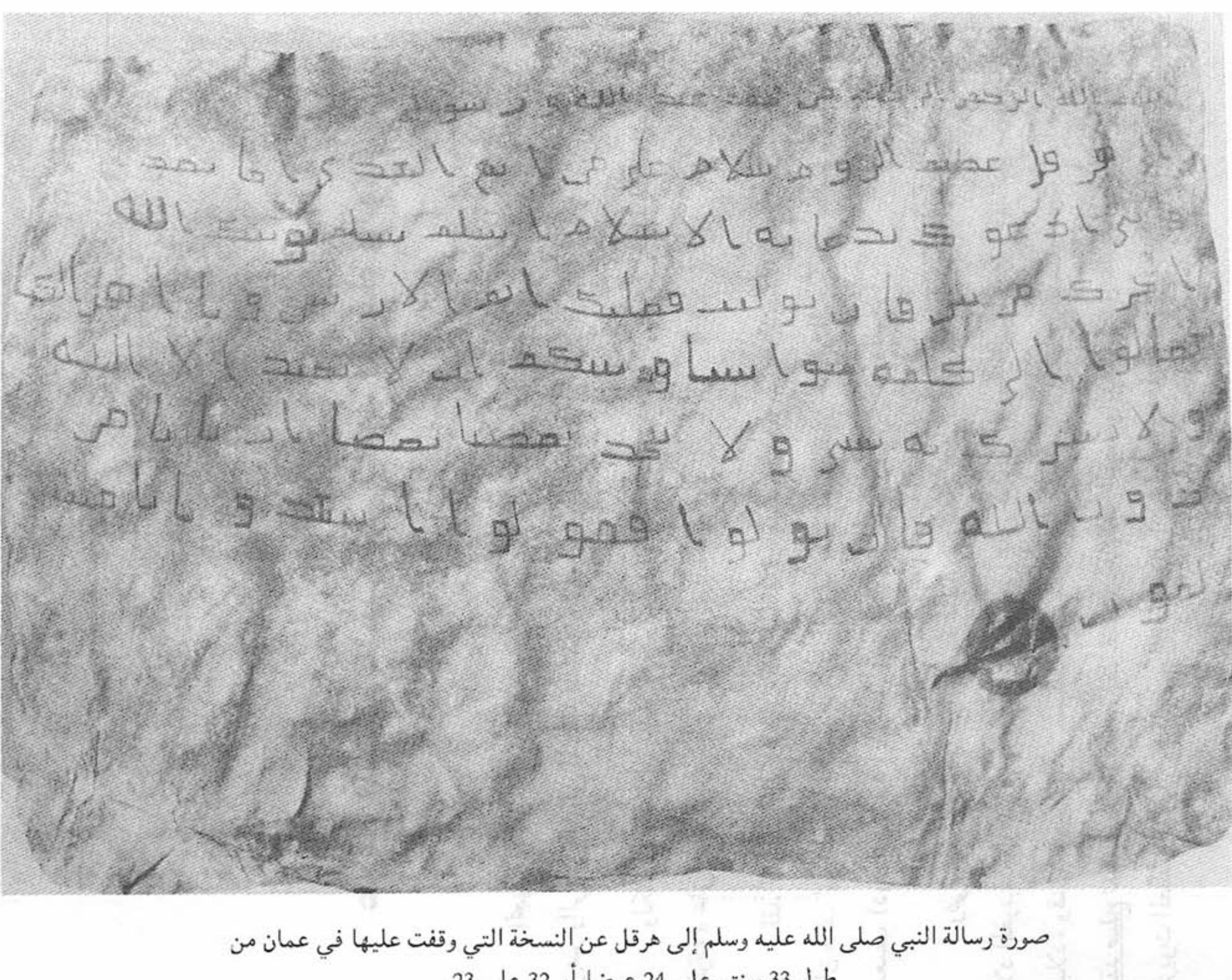
ولكنه لم يلبث أن تلقى تحذيراً من عمر بن الخطاب حتى لا يغامر بجنده في «إفريقية المفرقة» على حد تعبيره !

لقد كان عمر بن الخطاب ضد المغامرة باقتحام البحار ! وقد كتب الى عمرو بن العاص : «أن صف لي البحر» فكتب إليه – على ما يذكر ابن خلدون – «إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف (دود على عود)» وهنا أوعز عمر بمنع المسلمين من ركوب البحر!

وفي سنة 27=648 أمر الخليفة عثمان بن عفان عبدَ الله بن سعد بالاستعداد للزحف برا الى بلاد المغرب... وقد انتصر الجيش الإسلامي على جحافل الرومان البيزنطيين وحلفائهم من سكان البلاد، وقتل جرجير بظاهر سبيطلة على مقربة من أطلال قرطاج... وبعد مفاوضات بين الجانبين، عقد صلح تسلم العرب بمقتضاه تعويضات باهظة من الفضة والذهب حصل عليها المغاربة من أثمان الزيوت المصدّرة لروما. وهكذا سجل التاريخ أول اتفاقية، بين قادة افريقيا العرب [1]...

---

1) ابن عذاري : البيان المغرب ج 1 ص 12.



صورة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عن النسخة التي وقفت عليها في عمان من طول 33 سنتم على 24 عرضا أو 32 على 23.

لكن المسلمين شغلوا عن متابعة الفتح بسبب التفرق الناشب في أمر الخلافة بين علي وبين معاوية بن أبي سفيان – والي الشام – الذي لم تلبث الخلافة أن آلت إليه حيث نراه يستأنف حركة الفتح بإفريقية بعد أن كان الرومان قد استردوا الأراضي المفتوحة عندما كان المسلمون في شغلهم بأمر الخلافة في المشرق !

وهكذا تحقق عام 49=670 أعظم فتح بقيادة عقبة بن نافع الذي توغل في مفاوز المغرب، وأنشأ مدينة القيروان لتكون عاصمة للولاية الإسلامية الجديدة. وبعد إقالته فترة من الزمن عاد إليها سنة 62=682، في بدء خلافة يزيد بن معاوية، فاخترق المغرب الى السوس الأقصى ووصل الى (ماسة) على ساحل المحيط الأطلسي فدفع بفرسه الى الماء حتى بلغ نحره ثم ردد كلمته المأثورة «اللهم إني أشهدك أن لا مجاز، ولو وجدت مجازا لجزت» [1].

وقبل أن يأخذ عقبة طريق العودة ترك في المغرب بعض أصحابه ليعلموا الناس اللغة الغربية : لغة القرآن التي من شأنها أن توحد كلمة الناس على كلمة سواء.

وفي أثناء سيره لقاعدته القيروان اغتاله الأمير البربري كُسيلة – في بسكره – بتواطؤ مع الروم شرق المغرب الأوسط بحبل منيع ليس له طريق إلا من جهة واحدة ! وكان عقبة أسر كُسيلة في أثناء معركة، ثم أفرج عنه واستبقاه في دائرته!

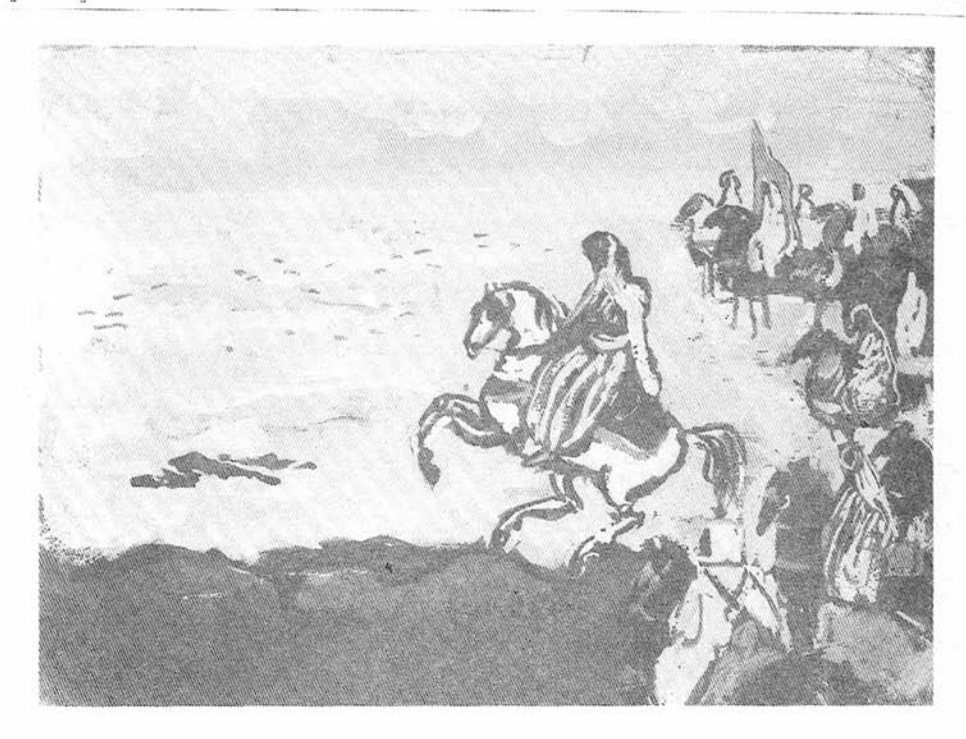
وهكذا نصب كسيلة نفسه ملكا على البلاد – بمساعدة الروم، واستمر الأمر كذلك الى أن عين الخليفة عبد الملك بن مروان سنة 69=688 زهير بن قيس البلوي الذي زحف لكسيلة بالقيروان في آلاف من الفرسان اقتفوا آثاره الى أن أجهزوا عليه وتقفوا أثر أنصاره الى وادي ملوية...

ولكن زهير وهو في طريق العودة – لقي مصيره في كمين نصبه له الروم، وكان ذلك آخر العهد به وبالجماعة المهمة التي كانت ترافقه [2].

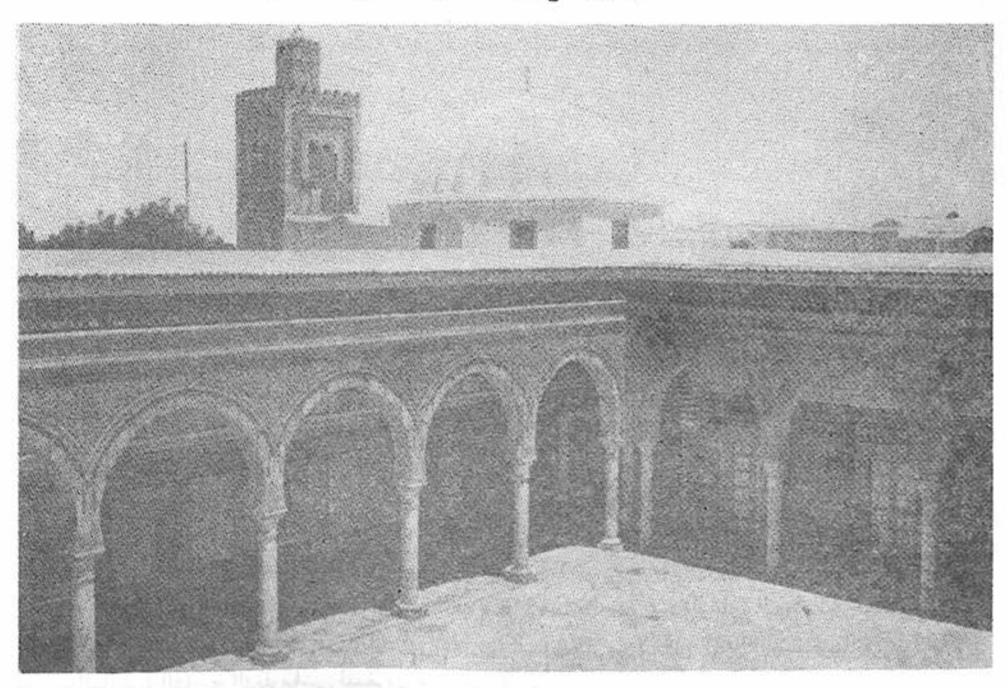
---

1) يروي الاستقصا (آسفي) حوض ماسة، كما يقري مقولة عقبة على نحو آخر... ابن عبد الحكم ص 199–ابن الأثير : الكامل في التاريخ نشر إدارة الطباعة المنيرة 1348، تصحيح عبد الوهاب النجار الجزء 4، ص 42 – الاستبصار في عجائب الامصار، ص 208، ابن عذاري البيان المغرب 1، ص 28/27 الاستقصا 1، ص 82.

2) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 3، ص 272



عقبة بن نافع بريشة حسن الگلاوي



جامع القيروان

وقد ولي عبد الملك بن مروان قائداً جديداً على بلاد المغرب 78=697 [1] كان هو حسان بن النعمان الذي استولى على قرطاج، وكان بها من الروم خلق لا يحصى كثرة... فأتى على ما اعترضه في طريقه من المعاقل والحصون...!

وعبثا كان تحالف البربر والروم وكذلك القوط (Gothe) الذين أخذوا يشعرون بالخطر الذي يهدد بلادهم الأندلس، فقد نجح حسان في الإجهاز على كل مقاومة، واستعاد للإسلام سلطانه من برقة الى المحيط، واعتبر لذلك، الفاتح الحقيقي لبلاد المغرب.

وفي إثر هذه المعركة خرج القائد حسان من القيروان قاصدا إخماد ثورة للبربر بقيادة الكاهنة زعيمة جبال أوراس، وكانت من أعظم القادة قوة ونفوذا، بيد أن المعركة انتهت بنكسة مريرة للجيش الإسلامي...

ولما بلغ الكاهنة أن المسلمين يعتزمون إعادة الكرة، ظنت أنهم يستهدفون «المدائن والذهب والفضة» فعمدت الى تحطيم الحصون وإحراق المحصولات، وإتلاف الأشجار التي كانت تشكل ظلا واحدا من طرابلس الى طنجة، وذلك قطعا لأمال المسلمين!

ولم تشعر الكاهنة إلا وأنصارها ينفضون من حولها ويتحولون ضدها بل ويبعثون برسلهم لمناصرة حسان بن النعمان الذي تمكن من التحكم في الموقف أثناء معركة فاصلة، رمضان 82 = أكتوبر 702 [2].

وعندما أصبح الوليد بن عبد الملك خليفة اختار لولاية افريقية القائد العظيم موسى بن نصير الذي قدر للإسلام أن يحقق بواسطته العبور الى القارة الأوربية...

---

1) ابن عذاري البيان المغرب ج 1، ص 34.

2) ابن عذاري : ج 1، ص 37

لم يهتم موسى بن نصير فقط باستتباب الأمن في البلاد كما أنه لم يكتف بتعلق السكان بمبادئ الإسلام، ولكنه قرر أن يسير في خط عقبة ابن نافع الذي رأيناه يهتم ببسط اللغة العربية في البلاد... وهكذا عهد الى سبعة وعشرين من عيون الفقهاء الذين كانوا يصحبونه بحملة تعريب واسعة كان لها أثرها في تقويم اللسان وتوعية الجمهور [1].

ولقد كان موسى ينظر الى آفاق بعيدة : الى ما وراء البحار... وهكذا أنجز دار صناعة لبناء السفن على مقربة من أطلال قرطاج متمما بذلك ما كان أنشئ من دور لصناعة الأسطول في الشام وفي مصر... وهكذا استطاع أن يكون أسطولا لحماية الثغور، بل والتمكن - عند الاقتضاء - من العبور إلى الضفة الأخرى !

1) نفس المصدر ص 43

الفصل الثالث

العلاقات مع القارة الأوربية

- نحو القارة الأوربية
- اجتماع موسى بن نصير مع الكونت جوليان
- طارق بن زياد يعبر البحر
- عبور موسى بن نصير
- مراسلات ابن نصير مع عبد الله بن عبد الملك ابن مروان
- أول معاهدة خطية بين عبد العزيز بن نصير وبين ثيودمير..
- غزو صقلية وسردانية
- سفارة المطغري لدى الخليفة للتشكي من الولاة !
- استفحال أمر المعارضة بالمغرب ومولد الإمارات المستقلة !

الفصل الثالث

نحو القارة الأوربية

لقد كان موسى بن نصير اجتمع [1] مع الأمير القوطي الكونت جوليان الذي كان يستولي على سبتة والذي أراد مع ذلك - فيما يبدو - أن ينشئ له علاقات مع القائد العربي موسى بن نصير وهناك شكا إليه قصة ابنته فلوريندة التي اغتصبها ملك الأندلس رودريك (RODRICO) وقد أغرى جوليان موسى بن نصير في هذه المناسبة، بفتح الأندلس التي كانت تئن تحت قبائل القوط منذ أزيد من قرنين عندما تركها الوندال عام 507م.

وهكذا عبرت الحملة الأولى في رمضان 91 = يوليه 710 بقيادة القائد البربري طريف بن مالك الى الموقع المقابل الذي عرف فيما بعد باسم جزيرة طريف [2].

وفي السنة الموالية : رجب 92 = أبريل 711 كانت المحاولة الحاسمة عندما عهد موسى بن نصير الى القائد طارق بن زياد والي طنجة بعبور البوغاز من قصر المجاز [3] صحبة سبعة آلاف مقاتل حيث نزل بالجبل الذي حمل إسمه الى الأبد، بل إن البوغاز نفسه أمسى يحمل اسم طارق بعد أن كان الجغرافي اليوناني بطوليمي يسميه بوغاز هرقل !

---

1) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس، نص الدكتور أحمد مختار العبادي صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد المجلد 13، 1966/65.

2) ينقل البكري عند ذكره لممالك برغواطة (ص 135) أن طريفا الذي تنسب اليه الجزيرة المذكورة هو جد البرغواطيين...

3) قصر المجاز هو بالذات قصر مصمودة أو القصر الصغير، وقد أسسه أمير مصمودة أيام ولاية طارق بطنجة، ومنه كان جواز طارق بن زياد بعد طريف ابن مالك...

- ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة، تحقيق : عبد الهادي التازي ص 252/191 طبعة ثالثة، دار الغرب الاسلامي، بيروت.

وما إن وطئت الجيوش المغربية أرض الأندلس حتى أمر طارق بإحراق السفن وخطب في القوم خطبته الشهيرة : «أيها الناس، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم – والله إلا الصدق والصبر».

ولم يلبث موسى أن عبر البحر الى الأندلس على متن أسطوله صحبة عدد من المسلمين : العرب والبربر وذلك في رمضان 93 = يونيه 721.

وكما حمل الجبل الذي مر به طارق إسمه، وكما حملت طريف إسم القائد البربري طريف بن مالك، كذلك حمل الجبل الذي يقع جوار سبتة إسم موسى ابن نصير !

وقد كان موسى يفكر في أن يستمر في طريقه لكن رسالة من العاصمة : دمشق لحقته هناك، تنهي إليه تحذير الخليفة الوليد من التوغل وتأمره بالعودة ! وتبعت هذه التعليمات رسالة أخرى عاجلة بعودة كل من موسى وطارق.

وفي أثناء ولاية موسى بن نصير كان يعهد الى ابنه عبد العزيز بافتتاح عدة مناطق... ومن الطريف أن نقرأ نموذجا للوثائق السياسية الإسلامية في هذه الفترة، وهي عبارة عن أول معاهدة مكتوبة أبرمها عبد العزيز هذا مع ثيودمير (Theodemir)، نيابة عن والده موسى بن نصير عام 94 = 713

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غندريس [1] أنه نزل على الصلح، وأن له عهدَ الله وذمته وذمة نبيهﷺ أن يقدم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يكرهوا ؟ على دينهم ولا تحرق كنائسهم، ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح، وأدى الذي اشترطنا عليه، وأنه صالح على سبع مدائن :

---

1) نقلنا هذا النص عن الضبي المتوفى سنة 599هـ في كتابه «بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس» وقد أتى به عند ترجمة حبيب بن أبي عبيدة الذي يوجد اسمه ضمن كتاب الصلح.

أوريولة وبلتنة ولقنت، ومولة، وبقسره، وأيه، ولورقه [1]، وأنه لا يؤوي لنا آبقا، ولا يؤوي لنا عدوا ولا يخيف لنا آمنا، ولا يكتم خبر عدو علمه، وأن عليه وعلى أصحابه دينارا كل سنة، وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط طلاء وأربعة أقساط خل، وقسطي عسل وقسطي زيت وعلى العبد نصف ذلك، شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي وحبيب بن أبي عبيدة... بن ميسرة الفهمي وأبو قائم الهذلي. وكتب في رحب سنة أربعة وتسعين من الهجرة.

وقد التحق موسى بالمشرق ومعه طارق بن زياد – على ما قلنا – في ذي الحجة سنة 95 = غشت 715، بعد أن كان أبقى واليا على الأندلس ولده عبد العزيز الذي استقر بالعاصمة إشبيلية وأبقى ابنه عبد الملك واليا على طنجة وابنه عبد الله واليا على إفريقية [2].

لقد عكست الانتصارات الإسلامية بالأندلس آثارها على بلاد المغرب حيث عشنا فترة من تعاقب الولاة... وهكذا نقف على آثار خلفاء بني أمية من الذين تعاقبوا على الحكم : سليمان، عمر بن عبد العزيز، يزيد، هشام بن عبد الملك الذي كان في صدر وُلاته على الأندلس القائد المعروف عبد الرحمن الغافقي الذي اصطدم مع قارلة (شارل مارتيل) في أعظم معركة عرفها التاريخ المبكر للمسلمين بأوربا... إنها معركة **بواتيي أو بلاط الشهداء** التي جرت أواخر شعبان 114 = أكتوبر 732 والتي كان لها دوي هائل في إفريقية وأوروبا...

ولم يلبث هشام بن عبد الملك أن استبدل والي إفريقية بوالي آخر هو القائد ابن الحبحاب سنة 116=734.

وفي الوقت الذي سير فيه ابن الحبحاب جيشا بقيادة حبيب ابن أبي عبيدة الى غزو صقلية وسردانية بعد أن قضى هذا مهمة مماثلة في السوس الأقصى والسودان، قام بعمل من نوع آخر، فلقد وزع البلاد المغربية الى مناطق نفوذ، فجعل على المغرب الأقصى ولده اسماعيل بينما سمي بالأندلس واليا آخر...

---

1) يقابل هذه المدائن السبع أسماءها بالحروف اللاتينية هكذا : ORIHUELA - BALTANA-ALICANTE-MULA-VILLAD-ELLO-LORCA

شكيب أرسلان : الحلل السندسية مصر 1358/1939 ج 3، ص 351/352.

د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف – لبنان 1962 2 116

2) ابن عذارى : المغرب 1، ص 44، ج 2، ص 23.

و لا بدَّ أن نلاحظ هنا أن بعض الولاة كانوا يتنافسون في إرهاق المواطنين الأمر الذي سبَّب بعض الانتفاضات !

وقد أثرت مثل تلك المعاملات الغير اللاَّئقة في ابن عذاري الذي أجمل مشاعره في هذه العبارات الباكية : «نعوذ بالله من الظلم الذي هو وبال على أهله»!

ومع ذلك فلقد كانت ثقة المغاربة بالخلفاء في المشرق بلغت الى الدرجة التي كانوا يقولون معها «لا نواخذ الملوك بما يجنيه العمال والولاة»!

وقد أرسلوا سفارة تتألف من عشرين نفرا برئاسة ميسرة المطغري ليبلغ الى الخليفة هشام رسالتهم التي كانت تتلخص في الشكوى من انحراف الولاة والقواد عن تطبيق مبدأ الإنصاف والعدل بين المواطنين ! فكان الوفد يريد أن يعرف هل إن تلك التصرفات صادرة عن أمير المومنين حقا ؟ ولكن بطانة السوء التي لم يرضها اجتماع الخليفة بالوفد حالت بينهم وبين لقائه !!

ولم تحل سنة 738 =120 حتى انفجرت ثورة المغرب الكبرى تحت شعار اعتناق مذهب الخوارج الصفرية وبزعامة ميسرة الذي فشل بالأمس في الاجتماع بالخليفة، والذي رأيناه اليوم يبايع بطنجة أميرا للمؤمنين !

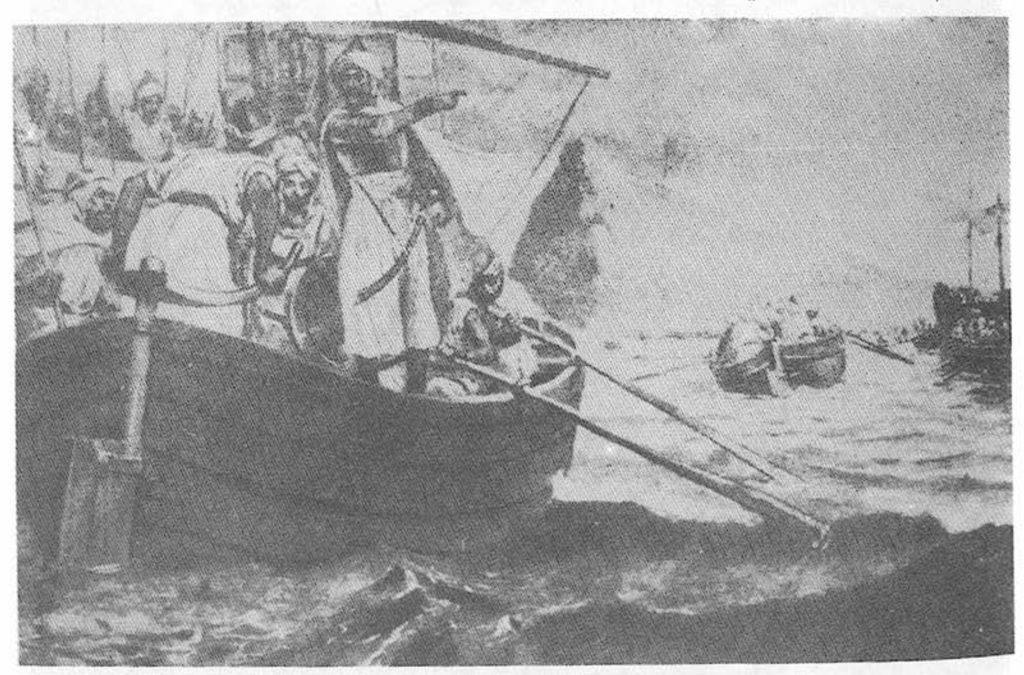
وقد انضمت الى هذه الثورة قبائل برغواطة وبرابرة الأندلس وانتهت بانتصار الثوار واستيلائهم على المواقع التي كانت بيد الولاة العرب !

ولم تغب تلك الأحداث عن الخليفة هشام بن عبد الملك وكانت حافزا للشام على معالجة الأمر بجد وحزم، وهكذا عزل بن الحبحاب وعهد الى كلثوم بن عياض عام 128=741 بالقضاء على الثورة، لكن الجيش تبدد في أعقاب معركة ساحقة فانفسح المجال أمام الخوارج وانفصل البربر عن حكم خلفاء بني أمية... !

وقد أردف الخليفة هشام تلك الحملة بثانية أقوى كانت بقيادة حنظلة بن صفوان الذي قدم البلاد سنة 124=742، وكانت دعوة الخوارج وصلت الى تخوم افريقيا، وأسفرت المعارك الحاسمة عن الأخذ بناصية الأمور...

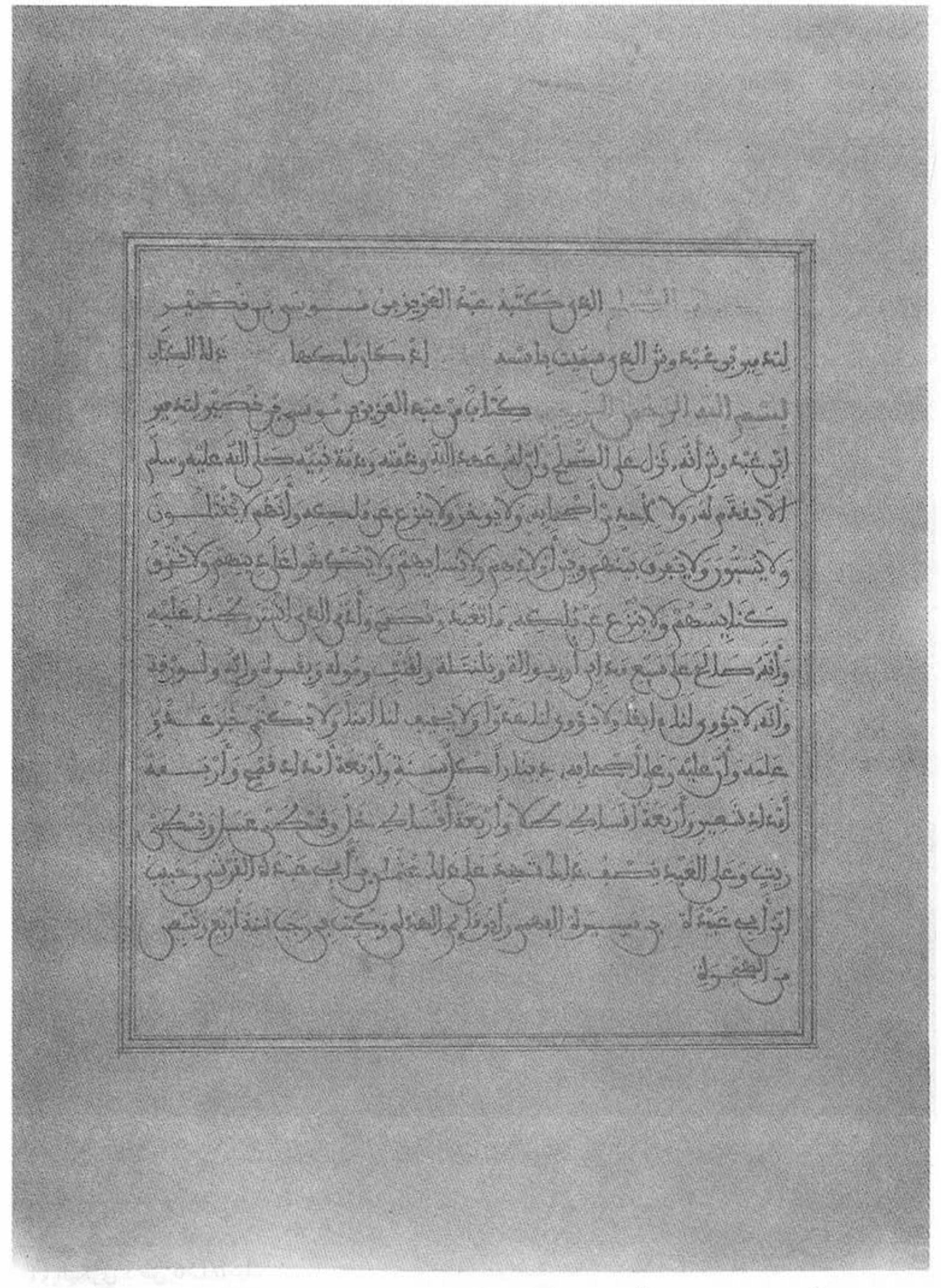
وبعد أن تولى الوالي عبد الرحمن بن حبيب زمام الحكم بإفريقيا قام سنة 127=745 بتجديد الصلة بتخوم الصحراء والسودان على نحو ما فعله جده عقبة بن نافع، وهكذا فبعد المحاولات السابقة قام عبد الرحمن بن حبيب بإحكام شبكة الطريق الى السودان وتمكن من تزويد المتجهين من المغرب الى غانة بسلسلة من الآبار تبتدئ من (باني) الى أوداغشت [1].

وقد أثرت الخلافات المريرة التي نشبت بالمشرق عندما انتقلت الخلافة من بني أمية الى بني العباس، أثرت في عمليات استتباب الاستقرار بالمغرب، وتحرج، نتيجة لذلك - موقف القادة الممثلين للخلافة بالمشرق... أضف الى هذا، أن سياسة الخلفاء أصبحت غير متحمسة لفتح هذه المفازات المتباعدة الأطراف، الأمر الذي تفسره مسيرة الغرب الإسلامي، نحو نهاية عصر الولاة وقيام ممالك وإمارات في جهات متعددة من البلاد المغربية.



وصول الطلائع الأولى للمسلمين لاسبانيا سنة 92=711 وهي السنة التي نزل فيها طارق بن زياد بعساكره

1) البكري : ص 157/156.
هيسبريس، ص 56.



الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير

لتدمير بن عبدوش [illegible] إذ كان ملكها [illegible] ذلك الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير

ابن عبدوش أنه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم

ألا يقدم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه وأنهم لا يقتلون

ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ولا يكرهوا على دينهم ولا تحرق

كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وأدى الذي اشترطنا عليه

وأنه صالح على سبع مدائن أوريولة وبلنتلة ولقنت ومولة وبقسرة وإيه ولورقة

وأنه لا يؤوي لنا آبقا ولا عدوا لنا ولا يخيف لنا آمنا ولا يكتم خبر عدو

علمه وأن عليه وعلى أصحابه دينارا كل سنة وأربعة أمداء قمح وأربعة

أمداء شعير وأربعة أقساط خل وقسطي عسل وقسطي

زيت وعلى العبد نصف ذلك شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي وحبيب

ابن أبي عبيدة و[illegible] بن ميسرة [illegible] وأبو [illegible] الهذلي وكتب في رجب سنة أربع وتسعين

من الهجرة

أول معاهدة مكتوبة أبرمها عبد العزيز بن موسى بن نصير مع ثيودمير عام 94=713

الفصل الرابع

نشأة الإمارات المستقلة في المغرب

- إمارة بني صالح في نكور.
- إمارة بني عصام في سبتة.
- إمارة بني مدرار بسجلماسة.
- إمارة بني رستم في تاهرت.
- إمارة برغواطة على ساحل المحيط (شالّة).

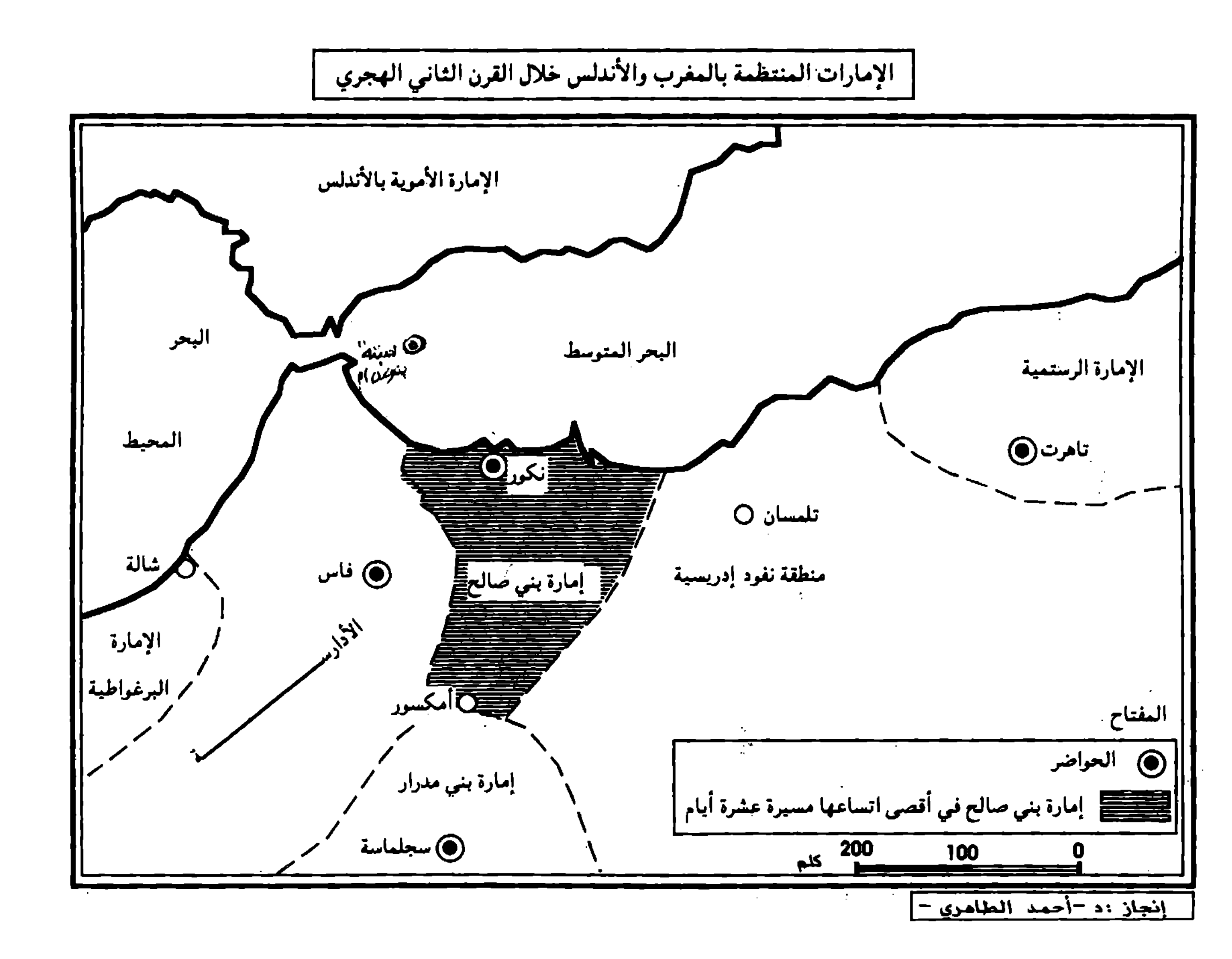
الإمارات المغربية وعلاقاتها الخارجية

لقد تأسست إمارات هنا وهناك تقاسمت ديار المغرب تحت انتماءات مختلفة : القبيلة أحيانا و«المذهب» حينا آخر.

إمارة بني صالح

وفي المغرب على الخصوص نلاحظ وجود إمارات كان فيها ما أسس منذ أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك 86-96= 705-715 ، كإمارة بني صالح الذين حكموا بعض القبائل المغربية الواقعة على البحر المتوسط، وبنوا لهم قاعدة هي مدينة نكور التي تقع على الساحل وهي تقريبا مدينة المزمة التي لها تاريخ حافل طويل...

ويعتبر بنو صالح من ذرية ادريس بن صالح بن منصور الحميري الذي تم حفيده سعيد مدينة نكور، وكان صالح قد اقتطع ناحية تمسامان وأمره عليها الخليفة الوليد بن عبد الملك، فلما بنيت نكور أصبحت مركزا للدعوة الإسلامية والمذهب المالكي... وقد تعاقبت على هذه الإمارة أزيد من مائتي سنة، كانت تميل فيها الى التعامل مع حكام الأندلس وهو الأمر الذي كان يغضب العبيديين حيث ظلت نكور نقطة صدام بين هؤلاء وأولئك حتى قضي عليها العبيديون بداية القرن الرابع الهجري، في حديث طويل أورده البكري...


الإمارات المنتظمة بالمغرب والأندلس خلال القرن الثاني الهجري
الإمارة الأموية بالأندلس
البحر
المحيط
البحر المتوسط
الإمارة الرستمية
تاهرت
نكور
تلمسان
منطقة نفوذ إدريسية
شالة
فاس
إمارة بني صالح
الأدارسة
الإمارة
البرغواطية
أمكسور
إمارة بني مدرار
سجلماسة
المفتاح
الحواضر
إمارة بني صالح في أقصى اتساعها مسيرة عشرة أيام
200 100 0
كلم
إنجاز: د - أحمد الطاهري -



جزيرة نكور تشبه بارجة حربية جاثمة تقع قبالة نادي البحر المتوسط اليوم.
مرسى بلاد نكور بالأمس : المزمة التاريخية - أما الحسيمة فهو إسم دخيل من الأصل الإسباني الهوُسيماس AL HUCEMAS بمعنى الخزامى التي كانت تنبت على الساحل هناك، وكان الموقع معروفا عند أهل المنطقة تحت إسم (تيجديت) : الرمل الناعم الرقيق مع شكري للسلطات المحلية على مساعدتها

وتعتبر إمارة بني صالح أول إمارة عربية مستقلة بالمغرب الأقصى عن المشرق، لها عملتها الخاصة بها، وقد غزاها المجوس (النورمانديون) بأساطيلهم سنة 859-858=244 فتغلبوا عليها ثمانية أيام ثم أخرجهم منها الملك سعيد الذي بنى في المنطقة مسجدا على صفة مسجد الإسكندرية بمحارسه وجميع منافعه [1].

إمارة بني عصام

وكإمارة بني عصام التي استقلت بحكم ثغر سبتة عام 123=741 الى أن استولى عليها عبد الرحمن الناصر على الثغر المذكور يوم الجمعة صدر ربيع الأول سنة 319 = مارس، أبريل 931... لقد كان عقبة ابن نافع أقر فيها صاحبها الكونط جوليان بعد أن التمس منه هذا الأخير الأمان، لكن العرب لم يلبثوا أن دخلوها صلحا وعمروها الى أن أخرجهم منها برير طنجة وأقفروا المدينة، فبقيت خرابا حتى دخلها رجل من غمارة يحمل إسم (ماكسين Magsen) والذي اعتنق الإسلام وأصبح سيد المدينة، ثم وليها من بعده ابنه عصام ثم ابنه مجبر وبقيت مدينة سبتة هكذا الى أن فتحها الأمويون [2].

إمارة بني مدرار

وكإمارة «الخوارج الصفرية» التي أنشأها عيسى بن مزيد الأسود في القاعدة التي بناها : سجلماسة سنة 140=757، ولقد كان الذي بنى سور سجلماسة من بني مدرار سنة 199=814-815 هو أبو المنتصر اليسع بن أبي القاسم، وكان لهذا السور إثنا عشر باباً...

وقد ملك بنو مدرار سجلماسة مائة وستين سنة، وكان منهم أبو القاسم سمجوا بن واسول المكناسي (تـ 168 = 784-785) ووليها بعد أبي القاسم ابنه أبو الوزير الى أن قام عليه أخوه أبو المنتصر اليسع فخلعه سنة 174=790-971 وأظهر مذهب الصفرية، ولما توفي عام 208=823-824 تولى ابنه مدرار المنتصر. ولم يزل الولاة يتعاقبون على الحكم فيها الى أن آل الحكم الى محمد بن الفتح.

---

1) البكري : المسالك والممالك روض القرطاس، طبعة الرباط 1.

2) البكري : المسالك والممالك ص 102-103 بالنص الفرنسي 405 تعليق 1.

كان محمد بن الفتح الذي كان من رجال السنة وعلى مذهب المالكية وتسمى بأمير المؤمنين سنة 342=953-954 وتلقب بالشاكر لله وضربت بذلك الدراهم والدنانير...

وقد استمر الشاكر لله في حكم سجلماسة الى أن قربت منه عساكر أبي تميم معد المعز الفاطمي مع قائده جوهر، فيها غادر المدينة ولكن على أن يقع في كمين ويؤتى به الى جوهر في رجب =347 شتنبر-أكتوبر 958 [1].

إمارة بني رستم

وكإمارة بني رستم التي أنشأها بمدينة تاهرت القاضي عبد الرحمن ابن رستم بن بهرام... وبقي بها الى أن توفي عام 168.

لقد كانت الإمارة الرستمية أول إمارة مستقلة في المغرب الأوسط وقد كان إمامهم - كما يقول البكري - يسلم عليه بالخلافة...

وقد تعاقب على هذه الإمارة عدد من القادة الى سنة 296=909 حيث وصل أبو عبيد الله الشيعي الى المدينة فدخلها بالأمان...

وذكر محمد بن يوسف أن الإباضية اجتمعوا الى عبد الرحمن وقدموه عليهم حيث نزلوا موقع تاهرت [2].

1) البكري : المسالك والممالك 148/149/150، روض القرطاس طبعة الرباط 1، ص 133.
د. محمد عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية 1978.

2) البكري : المسالك والممالك ص 67/68 - د. التازي : دولة الأدارسة وإمارة الرستميين الكسورية - العلاقات الأولى لمملكة فاس، دعوة الحق، يناير 1972.

إمارة برغواطة

وكإمارة البرغواطيين التي نعتت عند بعضٍ بالخارجية، وعند البعض الآخر بالمجوسية، وقد اتخذت لها مقرا تامسنا : بين نهر أبي رقراق ونهر أم الربيع (الشاوية).

وينقل المبكري معلومات دقيقة عن هذه المملكة، توفر عليها مما وقف عليه في «أرشيف» بلاد الأمويين بقرطبة، وهي منقولة عن سفير برغواطة لدى الحكم المستنصر، وكان يحمل إسم أبي صالح زمور بن موسى بن هشام البرغواطي الشلاوي (نسبة الى شالة).

لقد رحل أبو صالح زمور الى الأندلس عن صاحب برغواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار. وكان وصوله الى قرطبة في شوال 352 = أكتوبر، نونبر 963، وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به، الرسول الذي قدم معه وهو أبو موسى عيسى بن داود المسطاطي (من أهل شالة أيضاً)

وبعد أن يأتي البكري بتفصيلات عن حياتهم الاجتماعية يعود لينقل عن زمور رسولهم الى قرطبة : إن بني صالح بن طريف يركبون في ثلاثة آلاف ومائتي فارس، ثم يعدد قبائل برغواطة الذين يدينون لهم وهم على ملتهم... كما يعدد القبائل الإسلامية التي تخضع لممالكهم.

ولم تزل برغواطة مجاهرة بدينها في بلادها الى أن داهمهم الأمير تميم اليفرني بعد 420=1029 فغلبهم على بلادهم واستوطن ديارهم... وجميع برغواطة اليوم 460=1068 على ملة الإسلام كما قاله البكري في وقته، ولو أننا سمعنا صداهم من جديد عندما أقدموا على قتل سفراء دولة المرابطين.

الفصل الخامس

مقدم الامام ادريس

- أصل الخلاف في المشرق
- وقعة فخ سابع ذي الحجة 169 = 10 يونيو 786
- عبور ادريس البحر الأحمر إلى القارة الافريقية
- مقامه في طنجة وتوجيه النداء إلى المغاربة
- بيعة ادريس 172 = 788 واستقلال دولته عن المشرق
- افتتاح تلمسان وأطراف السودان
- اغتيال الامام ادريس من لدن هارون الرشيد !
- ادريس الثاني يتخذ مدينة فاس عاصمة...
- خلافة محمد بن ادريس وتوزيعه المغرب على إخوته
- الآثار المعمارية والحضارية

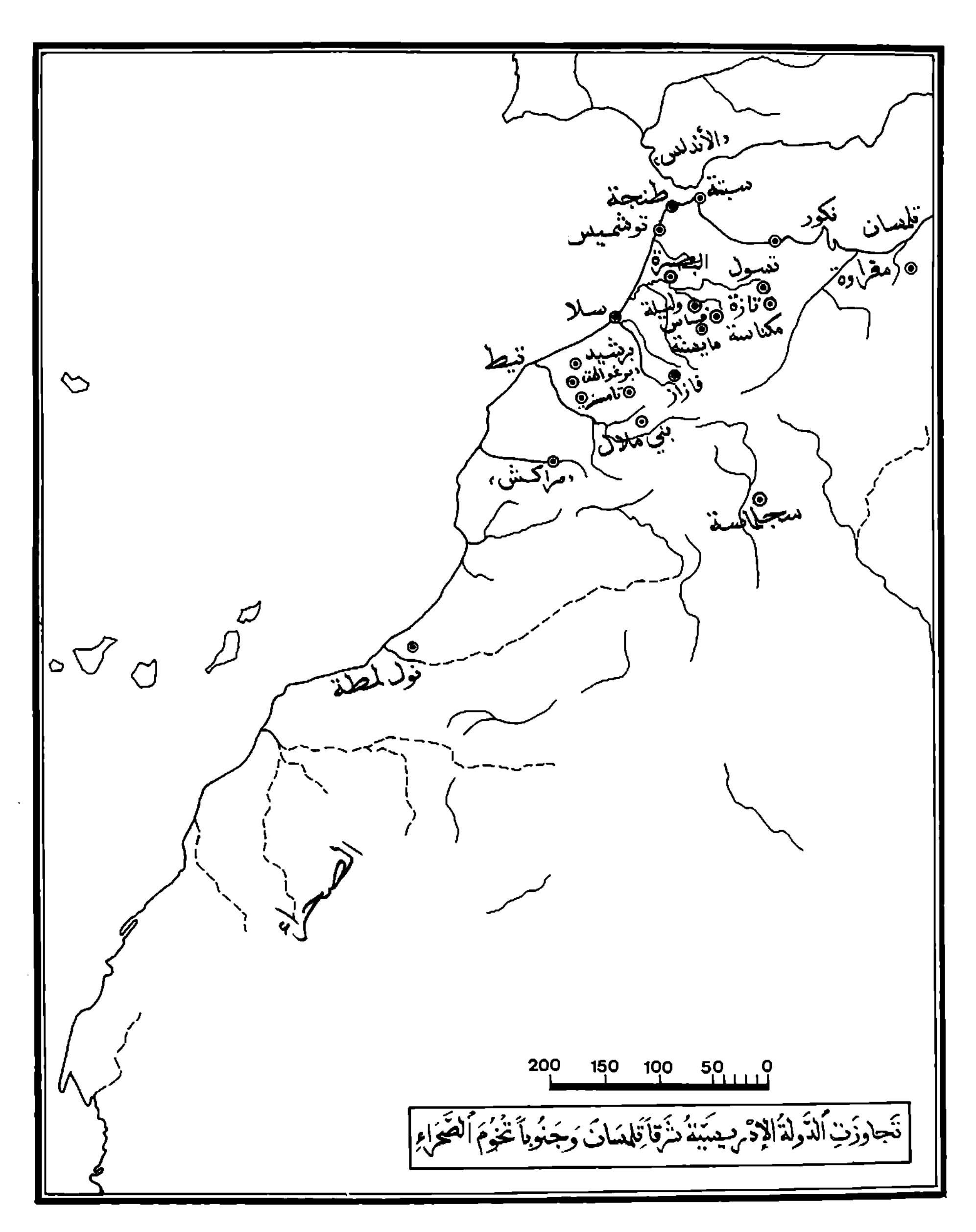
مقدم الامام ادريس
وظهور دولة الأدارسة

ظلت البيعة التي عقدت بمكة في أعقاب حكم بني أمية، ونصت على أحقية محمد النفس الزكية بالخلافة، الأساس الذي يرتكز عليه استمرار مناهضة الأشراف الطالبيين للولاة العباسيين ولا سيما وقد حضر البيعة وباركها منذ البداية زعماء هؤلاء وفي صدرهم أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور، ولهذا فإن موقف بني العباس بعد انهيار الدولة الأموية كان في نظر بني هاشم تنكرًا للعهد يقتضي المعارضة والمواجهة.

وقد شهد الشرق نتيجة لذلك، اصطدامات بين هؤلاء وأولئك واحتدم النزاع عندما ردد الامامان مالك وأبو حنيفة قولتهما: «إن إمارة النفس الزكية أصح من إمارة أبي جعفر المنصور»!

وكان في أبرز الاصطدامات المعركة التي جرت بضواحي مكة على بعد ثلاثة أميال وكانت هذه الحادثة التاريخية يوم السبت سابع ذي الحجة (يوم التروية) عام 169 (10 يونيو 786م).

ولقد استطاع الامام ادريس بمساعدة مولاه راشد أن يجد مع حجاج افريقيا مركبا عبر به البحر الأحمر إى بلاد النوبة، ومن ثمة إلى مصر حيث تلقى مساعدة من الذين يعطفون على آل البيت، مكنته من أخذ الطريق إلى برقة فالقيروان فتلمسان فطنجة التي كانت يومئذ - على ما يقول صاحب روض القرطاس - قاعدة بلاد المغرب، وهناك في طنجة، أقام ادريس سنتين كاملتين 170-172 ، أخذ يدعو فيها لأخيه الامام يحيى االذي صمم على مواصلة الحركة التي ابتدأها



خريطة الدولة الإدريسية

الأشراف الطالبيون، بيد أن الأخبار لم تلبث أن وصلت إلى طنجة تؤكد غدر العباسيين بالامام يحيى، وهنا قرر المولى ادريس أن يدعو لنفسه حيث وجه دعوته المكتوبة إلى مختلف جهات المغرب بما في ذلك مدينة وليله قاعدة المغرب الداخلية أيام الرومان (فوليبليس)

ولقد وجد الاستجابة من أهل وليلَه الذين أسروا بإدريس اليها حيث استقبله اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي وأتباعه في فاتح ربيع الأول 172= غشت 788

لقد كان من أسباب اتجاة المغاربة لادريس أنهم عرفوه مضطهداً فعملوا على أن يحققوا معه رغبة آل البيت في بعث الخلافة الاسلامية [1]

دولة الأدارسة 172=375=788=1018

لقد بويع ادريس يوم الجمعة رابع شهر رمضان 172هـ 6 يبراير 789م فتم بذلك تنصيب أول ملك من الدولة الادريسية.

ولم يلبث ادريس أن قصد مدينة تلمسان حيث أسلم له المقادة أميرها محمد بن خزر المغراوي وجميع من معه بتلمسان من قبائل زناتة، وهناك شيّد الامام مسجدا في صفر 174=790 وصنع فيه منبرا نقش عليه :«بسم الله الرحمان الرحيم، هذا ما أمر به ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة.

وقد فكر الامام في إنشاء قاعدة تكون مفترقا للطرق بين سهول الأطلس وبين تلمسان من جهة، وبين سواحل الريف وصحراء الجنوب من جهة أخرى... وبني فعلا فيما بين 172=174 جانبا من تلك القاعدة على الضفة الشرقية من مدينة فاس الحالية [3]

---

1) علال الفاسي : المولى ادريس الأكبر، وثيقة تاريخية عن دعوته لم تنشر قط، ولم تعرف لدى الذين كتبوا عنه من المغاربة، مجلة التضامن -الرباط- العدد الثالث يبراير 1974 مجلة الوثائق، المجموعة الأولى 1396-1976 المطبعة الملكية.

2) عبد الهادي التازي : ادريس الأكبر فاتح المغرب وثيقة تاريخية لم تنشر ولم تعرف لدى الذين كتبوا عنه المغاربة، مجلة المناهل العدد 11 ربيع الأول 1398=مارس 1978.

3) يرى ليفي برونفنصال - اعتمادا على حجج معقولة أن جانبا من مدينة فاس كان من تأسيس ادريس الأول بينما كان الجانب الثاني من تأسيس ادريس الثاني.

Levi-Provencal : La Fondtion de Fès, in Annales de L'Institut d'Etudes Orientales (Faculté des Lettres de l'Universiré d'Alger) IV 1938, 23-53 Roger le Tourneaux, Fès avant le Protectorat 1949.33.

د. التازي : تاريخ القرويين ج1 ص 52

بسم الله الرحمن الرحيم
هذا ما امر به ادريس
ابن عبد الله بن حسن
ابن الحسن بن علي بن ابي
طالب رضي الله عنهم
وذلك في شهر صفر
سنة اربع وسبعين ومائة

وثيقة تأسيس الأدارسة لمسجد تلمسان / نسخة خاصة





أقدم عملة إدريسية هي التي ضربت في تدغة عام 172=789 وقد نقش على وجهها الأول كلمة لا إلاه إلا / الله وحده / لا شريك له / .. بتدغة سنة اثنتين وسبعين وملئة. بينما نقش على وجهها الثاني كلمة : محمد رسول / الله صلى الله / عليه وسلم. مما أمر به إدريس بن عبد الله جاء الحق إلخ...

توجد نسخة واحدة من هذا الدرهم هي التي أثبتناها هنا شاكرين للمتحف العراقي في بغداد تفضله بهذا الرسم ... راجع كتاب الجامع في الداهم الإدريسية بقلم دانييل أوسطاش

ومن تلمسان كان المنطلق نحو آفاق أخرى بل نحو مصر لولا المؤامرة التي استهدفت حياة الامام ادريس الأول في مهل ربيع الثاني 177هـ=17 يوليه 783م.

وقد أجمع المغاربة على عدم الانفضاض من حول الأمل المتبقى لديهم والذي يتمثل في الحدث السعيد الذي كانت تنتظره زوجته السيدة كنزة يوم الاثنين الثالث من رجب عام 177هـ = 14 أكتوبر 793م.

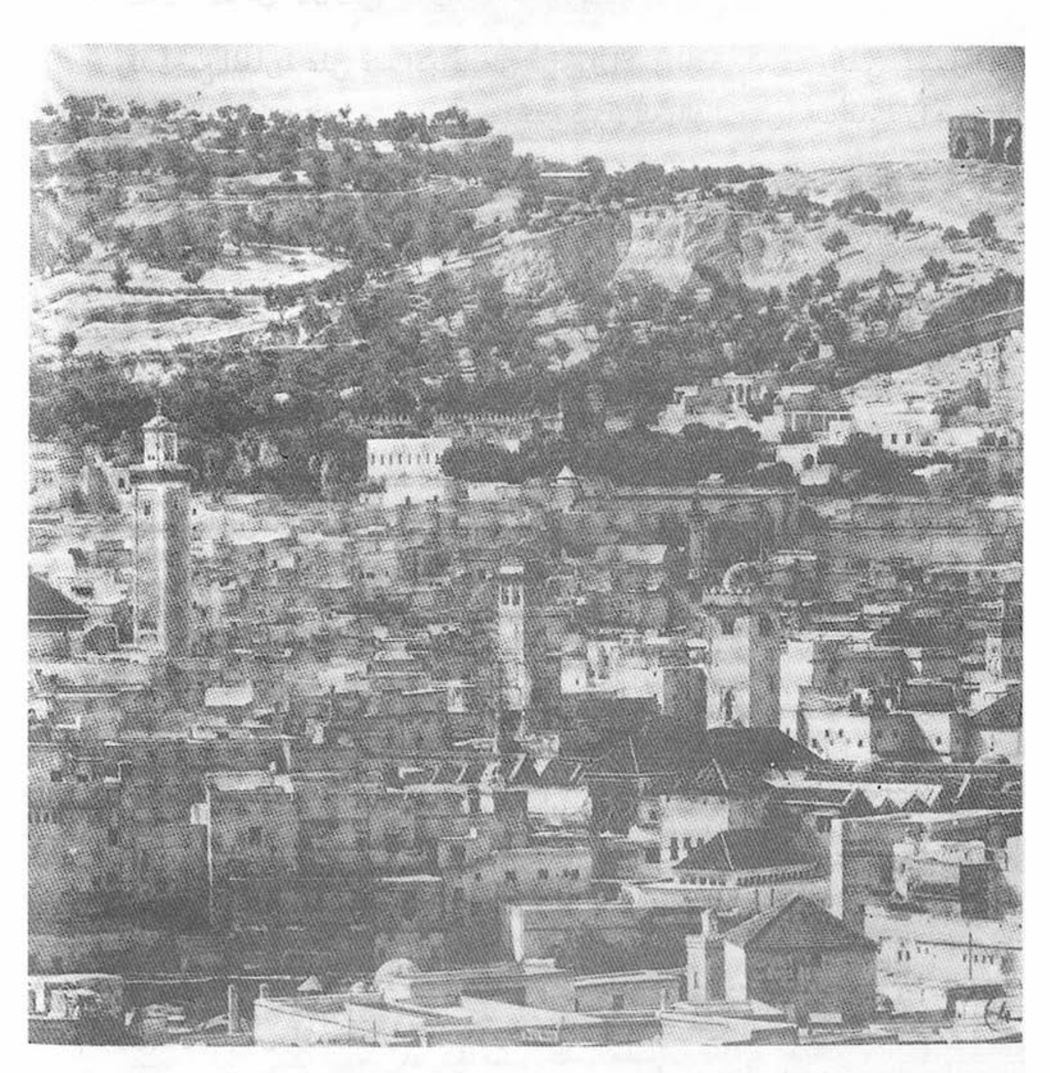
لقد اكتسب الوليد ادريس الثاني قلوبا تهفو إلى رؤيته يتبوأ مكانة أبيه، وقد تضافرت جهود المربين كانوا يسهرون على تثقيف الأمير وتدريبه، ولم يكتمل العاشرة من عمره حتي أخذت له البيعة على نفس المنبر الذي بويع عليه والده بمدينة وليلة، وتم ذلك يوم الجمعة مهل شهر ربيع الأول سنة 186هـ = 10 مارس 802م.

وقد وصلت أصداء هذه البيعة إلى أقصى البلاد، فورد سنة 189=805 على حاضرة زرهون زهاء خمسمائة فارس من وفود العرب من بلاد افريقية ومن القيسية والأزد ومدلج وبني يحصب. ومن الأندلس مئات الأسر من الذين أجلاهم الحكم بن هاشم بن عبد الرحمن في أعقاب ثورة الربض 13 رمضان 202هـ=25 مارس 818م، ولقد ورد على ادريس عدة وفود من العراق بل من بلاد فارس التي كان لها تعلق مبكر بآل البيت ...[1]

وهكذا لم تمض خمس سنوات على «البيعة» حتى شعر الامام الشاب بالحاجة إلى بناء قاعدة لسكناه وسكنى خاصته ووجوه دولته تكون أول عاصمة إسلامية في المغرب الأقصى... ولم يكن اختيار الابن الصالح يقع إلا على نفس المكان الذي اختط فيه والده بالأمس قاعدته المرتقبة،وهكذا أنشأ على الضفة الغربية من فاس جانبا آخر... وتم ذلك سنة 192هـ=808

وحتى يشعر القيروانيون والأندلسيون بأنهم في بيتهم ومحيطهم أطلقوا على عدوتي المدينة إسم القرويين والأندلس، استحضارا لتلك الأوطان [2]، وقد عرف المغرب - في عهد ادريس الأول والثاني نماذج من العملة الوطنية التي سكت سواء في تدغة أو وليلة أو طنجة أو العالية أوزقور أو تلمسان ...[3]

1) روض القرطاج، طبعة الرباط ص 51
2) د. التازي : أقدم توأمة عرفها التاريخ المغربي، مجلة وزارة الممثل الشخصي لجلالة الملك، مايه يونيه 1965
3) دانييل أوسطاش : (الجامع الدراهم الادريسية والدراهم المعاصرة لها) اصدار بنك المغرب -الرباط 1970-1971.



قلب مدينة فاس حيث تلتقي عدوة الأندلس بعدوة القيروانيين
يسمى المكان إلى الآن (بين المدُن)

وتوفي المولى ادريس الثاني فترك عدة أولاد عهد من بينهم لمحمد الذي قسم المغرب بين إخوته بإشارة من جدته (كنزة)، بينما احتفظ هو بحاضره فاس.

وقد كانت التجزئة طالع شؤم على البلاد، فتوالت الاختلافات والاشتباكات... ومع ذلك فقد استمرت الدولة في طريق الانشاء والتعمير هنا وهناك، وقد شيد الأمير عبد الله بن ادريس الذي عُهد اليه بأغمات وبلاد نفيس وبلاد المصامدة وسوس.. شيد مدينة في سفح جبل باني على أبواب الصحراء المغربية حملت اسم تامدُلت...[1].

كما ظهر من بين الملوك الأدارسة من أنشأ مدينة بالشمال أطلق عليها اسم (البصرة)، على ما رأينا من محمد بن ادريس.

وقد ظهر من بين الملوك الأدارسة يحيى بن محمد بن ادريس الذي أشرف عام 245هـ 859 على أعمال بناء جامع القرويين التي أسستها بمالها الخاص فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهري والتي أصبحت فيما بعد الجامعة الكبرى التي استقطبت رجال العلم وقادة الفكر مشرقاً ومغرباً[2]...

كما ظهر من بين ادريس اخرون عملوا - بالرغم من المؤامرات الخارجية - على توطيد أسس الدولة الادريسية في الوقت الذي وجهوا فيه عنايتهم الزائدة إلى نشر الإسلام وتعريب البلاد، وهما أمران عظيمان بالنسبة لبلد يقع في أقصى طرف من ديار العروبة والاسلام...

وقد ظل الأمراء الأدارسة إلى آخر رمق من حياتهم يدافعون على كيان المغرب واستقلاله بشتى الوسائل التي يملكونها : العسكرية أحيانا والسياسية أحيانا، وهكذا يلجأون في أواخر أيامهم إلى قلعة شمال المغرب أملاً في اعادة الكرة على الذين كانوا يريدون أن يجعلوا منهم مجرد ولاة تابعن لهم، سواء من العبيديين بالقيروان أو الأمويين بالأندلس ... كما نرى آخر أمير منهم، وهو الحسن بن كنون، لا يتردد في مصانعة هذا الجانب أو ذاك غير مستسلم لليأس من انبعاث دولة الأشراف مرة أخرى، بل اننا نرى بعض عقبهم يتمكن، بعد مرور نحو ربع قرن من مصرع الأمير الحسن بن كنون سنة 375=1018 من إنشاء دولة بني جمود على أنقاض الخلافة الأموية بالأندلس...

---

1) البكري 1930 HEsp. 59 308

2) تكريماً لهذه السيدة قرر الإتحاد الدولي للمرأة في العلوم إحداث جائزة تحمل اسمها يمنحها للسيدات العالمات، وقد دعيت لحفل تسليمها بنيويُورك (الأمم المتحدة) يوم 2000/09/26.



ضرب بوليلة مما أمر به راشد بن قادم

نماذج من النقود الإدريسية عن كتاب الجامع في الدراهم الإدريسية تأليف دانييل أوسطاش



من الدراهم الإدريسية، درهم داود بن ادريس الذي اكتشفت لوحة بجامعة القرويين تحمل اسمه
د. التازي. (دعوة الحق - أبريل 1960)

الفصل السادس

العلاقات الخارجية بالعباسيين
وسفارة الأدارسة لدى شارلمان ؟

● علاقة الأدارسة بالإمارات المجاورة : بنو صالح في نكور - بنوعصام بسبتة - بنو مدرار بسجلماسة - علاقاتهم بإمارة الرستميين في تاهرت علاقتهم بإمارة برغواطة على ساحل المحيط.

● علاقاتهم بالخلافة العباسية - موقف بغداد من فتح تلمسان - موقف العباسيين من مفاتحة الامام ادريس بن عبد الله لمصر، واغتياله.

● سفارة الأدارسة لدى شارلمان ؟

العلاقات الخارجية لدولة الأدارسة بالإمارات المجاورة

وقد كان للدولة الادريسية - على ما احتف بها من ظروف وصروف - مواقف معينة على صعيد المغرب الكبير، فعلى هذا الصعيد امتدت دولة ادريس الأول - على ما أسلفنا - عبْر الأرجاء ولم يستثن من كل تلك الجهات سوى امارات اسلامية صغيرة : امارة بني صالح بنكور، وبني عصام بسبتةِ وبني مدرار بسجلماسة، وبني رستم بتاهرت، وسوى امارة برغواطة بتامسنا على المحيط الأطلسي...

وقد تميزت الصلات بين الأدارسة وبن معظم هذه الامارات -باستثناء برغواطة- بأنها كانت على ما تقتضيه تقاليد الجوار نظراً لما عرفت به تلك الامارات من تمسك بأهداب الاسلام.

وهكذا عندما اطمأن الامام ادريس على الأحوال في المغرب الأقصى أخذ يخطط ليجعل له منفذاً على المشرق، ومن هنا اتجه نحو تلمسان حيث تم الاتحاد مع أميرها على ما أسلفنا.

وهناك في تلمسان وجد الامام نفسه وجها لوجه مع إمارة الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم الفارسي الذي أصبح على رأس أول امارة استقلت عن بغداد في المغرب الأوسط.

ولم يكن يهم الامام ادريس الأول من دولة الرستميين أن تبسط نفوذها على المنطقة التي كانت تحكم فيها بقدر ما كان يهمه أن يكون هدفها البعيد مما يتفق وهدفه هو، فقد أصبح بحكم الواقع جارا رفيقا لها ولابد حينئذ من أن يطمئن على نفسه من رفاق الطريق.

ولهذا فإننا لا نستغرب حديث المؤرخين عن العلاقات الممتازة التي كانت للأدارسة بالرستميين بل عن المثالية الفذة في حسن الجوار...

ويظهر أن قبيلة زناتة التي كانت تتحكم في أطراف المغرب الأوسط آنئذ لم تجد ما يبرر بقاء الدولة الرستمية مع ظهور الدولة الادريسية، ولذلك نراها تُعلن مناؤتها لتلك، باسطة يدها لهده، الأمر الذي دفع الرستميين إلى مواجهة الزناتيين أصحاب السيادة في البلاد، وبخاصة منهم بطنا مغراوة ويفرن...

لكن بالرغم من وجود هذا العنصر القوي إلى جانب الأدارسة فإنهم ظلوا متشبثين بعهودهم للرستميين منذ البداية، وظلوا مع ذلك يحاولون حمل أنصارهم الزناتيين علي تغيير موقفهم لما أنه لم تكن هناك مصلحة للأدارسة في مناهضة جيرانهم الذين كانوا يهيمنون على جل المرافق الاقتصادية في البلاد، إضافة إلى أن الامارة الرستمية كانت بالنسبة للادارسة بمثابة ما يسمى اليوم «بالمنطقة الفاصلة» التي تحميهم من إمارة الأغالبة عملاء العباسيين الطبيعيين...

وهكذا فعندما لحق ادريس الأول بتلمسان لم تمس تلك الصلات الوثيقة التي ربطت الادارسة بالرستميين، وقد ظهر جليا الحفاظ على تلك الوشائج عندما قام الامام ادريس الثاني بزيارة تلمسان أواخر عام 198=814 عاقداً لابن عمه الامام محمد بن سليمان على تلك الجهة [1]

دولة الأدارسة والخلافة العباسية ...

ظهرت بالمغرب منذ النصف الثاني للقرن الهجري الأول حركات تهدف إلى الاستقلال عن الخلافة في المشرق على ما أسلفنا...

وهكذا سمعنا عن إمارة بني صالح في نكور، وسمعنا وكذلك عن إمارة بني عصام وسمعنا عن إمارة بني مدرار، وسمعنا عن إمارة بني رستم، وسمعنا عن إمارة البرغواطيين...

لكن كل هذه الامارات لم تثر انتباه البلاط العباسي الذي كا ن يحتفظ بعلاقاته الطيبة مع بعضها.

1) استقصا 1، 172. التازي : دولة الأدارسة وإمارة الرستميين الكسروية-دعوة الحق، يناير 1972.

وعلى العكس من هذا ، فقداهتم بنو العباس أيما اهتمام بإمارة سادسة لم تكن نوازع قادتها على نحو نوازع الاخرين، وكان الأمر يتعلق بإمارة ادريس ابن عبد الله الذي نجح في الفرار بنفسه في أعقاب وقعة فخ وكان من أمره ماحكيناه ...!!

لقد فقدت الخلافة بالأمس ولاية الأندلس عندما استطاع عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام أن يفلت من تعقب العباسيين ويلتجئ إلى بلاد المغرب سنة 136=753 ليعبر منها المتوسط ويكون له في شبه الجزيرة الأندلسية دولة مستقلة. لكن ذلك تم في ظروف قلقة، وأما إفلات ادريس فقد تم في عز الدولة واستقرارها. وهو من آل البيت، ولابد أن مكاسبه ستفوق كل تصور...

ولا شك أن الذي زاد في قلق الخليفة هارون الرشيد وتخوفه، مابلغه عن طريق رجال أخباره من أصداء عن تلك الرسالة الخطيرة التي بعث بها الامام ادريس مع وفادة سرية، إلى أهل مصر يذكرهم فيها بفضائل أهل البيت ويصف فيهاالتضحيات الغالية التي بذلوها في سبيل الحق الشرعي ويطالبهم بتأييده ومساندته... لقد اقتنع الخليفة الرشيد أن الأدارسة لا يفكرون فقط في فصل المغرب عن دار الخلافة الاسلامية والاكتفاء بزعامة اقليمية، وإنما كانوا يخططون لتوحيد الخلافة كلها تحت قيادتهم.

لقد كان الامام ادريس بعث فعلاً إلى أهل مصر رسالة في هذا المعنى [1]

لقد كان هارون الرشيد يتلقف أخبار المغرب بمرارة زائدة وكان يشعر بأن هناك عزما صارما يستهدف كيان بني العباس. وعظم الأمر عليه واغتم غما شديدا حتى لقد فكر في المخاطرة بإرسال جيوش العراق إلى مجاهل هذه البلاد.

لقد اشتهر في التابخ أن امبراطورية الخليفة هارون الرشيد كانت تمتد شرقا وغربا بحيث يمكن القول، باصطلاح العصر الحديث، بأن الشمس لانغرب على راية العباسيين.

من أجل كل ذلك لم نستبعد المؤامرة الرخيصة التي استهدفت حياة الامام ادريس الأكبر...

وهكذا فكَّر في انفاذ عميل منتحل للطب متظاهر بالسخط على النظام العباسي في بغداد. وكانت تلك الوسيلة الوحيدة -في نظرهم- لا جتثات أصول هذه الدوحة التي كان يتصور هارون الرشيد ظلالها وفروعها وخمائلها...

---

1) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب : ج 4 ص40-41

ادريس بن عبد الله سلام الله عليه في رسالته الى اهل مصر اذ يقول
بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد فالحمد لله رب العالمين لا شريك له
الحي القيوم والسلام على جميع المرسلين وعلى من اتبعهم وامن بهما اجمعين
ايها الناس ان الله بعث نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالنبوة وخصه
بالرسالة وحباه بالوحي فصدع بامر الله واثبت حجته واظهر دعوته
وان الله جل ثناوه خصنا بولايته وجعل فينا ميراثه ووعده فينا وعدا
سيفي له به فقبضه اليه محمودا لا حجة لاحد على الله ولا على رسوله
صلى الله عليه وآله وسلم فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين فخلف الله جل
ثناؤه باحسن الخلافة فغذانا بنعمته صغارا واكرمنا بطاعته كبارا و
جعلنا الدعاة الى العدل القائمين بالقسط المجانبين للظلم ولم نزل اذ وقع
الجور طرفة عين من نصحنا لامتنا والدعا الى سبيل ربنا جل ثناوه فكان
مما خلفته امته فينا ان سفكوا دماءنا وانتهكوا حرمتنا وايتموا صغيرنا
وقتلوا كبيرنا واثكلوا نساءنا وحملونا على الخشب وتهادوا رؤوسنا على
الاطباق فلم نكل ولم نضعف بل نرى ذلك تحفة من ربنا جل ثناوه وكرامة
اكرمنا بها فمضت بذلك الدهور واستملت عليه الامور وربي فينا
عليه الصغير وهرم عليه الكبير في كلام طويل ذكره عليه السلام

اللوحة 72 حرف (ب) من المخطوطة اليمنية التي حصل عليها الإيطاليون أثناء اتصالهم باليمن والتي زودني بها في بغداد السنيور أريوسطو بيرنارديني Ariosto Bernadini

لقد ظل سليمان ابن جرير الشماخ الذي قام بعملية تسميم الامام مقترنا بكل معاني الضعة والخسة، واستمرت ظلاله الكئيبة مخيمة، ردحا من الزمان على العلاقات بين المغرب والمشرق...

سفارة للأدارسة لدى شارلمان؟

لقد ردد بعض المؤلفين الحديث عن وجود سفارة أرسلت من لدن أمير من الأمراء الأدارسة بفاس إلى بلاط الامبراطور شارلمان في بداية القرن التاسع الميلادي : حوالي سنة 164 هجرية.

وحقيقة فإن هناك فقرة من «الحوليات الملكية» (Annales Royales) لسنة 801 تشير إلى أنه في الوقت الذي كانت توجد فيه بالبلاط الامبراطوري لشارلمان سفارة الخليفة هارون الرشيد، كان يوجد أيضا مبعوث من الأمير ابراهيم الذي ورد من أقصى افريقيا، من إمارة فوساطو (Fossato).

هناك بعض المؤرخين من أمثال كويزو (Guizot) وبيرتز (Pertz) وشارلز دولارو نسيير (Ch. de laroncière) يرون أن في الاستطاعة ترجمة كلمة فوساطو بعبارة فاس... من غير أن يأخذوا بعين الاعتبار اسم «ابراهيم» وهكذا انتبهوا إلى أن القصد إلى بعثة واردة عن أمير من أمراء الأدارسة [1]

ويتخلّص شوفان إلى القول بأن العلاقات بين شارلمان وبين المغاربة لم تتجاوز افريقية بالمعنى القديم، الأمر الذي يعني أنه لم تكن هناك صلة بين فرنسا والمغرب على ذلك العهد...

ويتأكد لي أنه كانت هناك للأدارسة الأولين طموحات للاتصال بما وراء حدود مملكتهم على ذلك العهد... [2]

1) Aperçu sur les relations de la france avec le Maroc des origines à la fin du Moyen-âge. Hesp. 1957 T.X LIV 3e-4.tr. P 298-249.

2) انظر تاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 4 ص 64.

الفصل السابع

علاقات المغرب بالعُبَيديين

- طمع العبيديين في المغرب أيام الإمام يحيى ابن ادريس
- عقد الصلح ومبادئه
- نفي الامام يحيى للمهدية
- مقاومة الأمير الحسن لابن أبي العافية
- الالتجاء إلى قلعة حَجَر النسر
- انقلاب ابن أبي العافية على العبيديين وانضمامه للأمويين...
- المنارة التي بنيت بمدينة فاس من أخماس غنائم الروم !
- أسر أمير فاس وأمير سجلماسة ومثولهما أمام المعز الفاطمي !
- مقاومة الحسن بن كنون من أجل استقلال المغرب عن الأمويين والفاطميين

علاقات المغرب بالعُبَيديين

توجه العبيديون بأنظارهم إلى دولة الأدارسة في المغرب الأقصى وطمعوا جيدا في ابتلاعهم والقضاء عليهم بطريقة أو بأخرى.

وقد أدرك الأدارسة مدى قوة ونفوذ عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الجديدة وقائدها... وكان على رأس مملكة الأدارسة الأمير يحيى ابن ادريس بن عمر بن ادريس، «أعلاهم قدرا وصيتا وأطيبهم ذكرا وأقواهم سلطانا وأوسعهم ملكا وأكثرهم عدلا، وأغزرهم فضلا» على ما يقوله المؤرخون، إلى جانب هذا كان فقيها حافظا للحديث ذا فصاحة وبيان، بطلا شجاعا ذا صلاح وورع ودين، قال علي النوفلي : كان يشهد مجلس يحيى هذا، العلماء و الشعراء، وكان أبو أحمد الشافعي من جلسائه ومن يتكلم عنده في العلم وكان ينسخ له عدد من الوراقين...[1]

ولم يكن غريبا أن يبعث عبيد الله المهدي -مباشرة بعد أن حَمَل لقب الخليفة وأمير المؤمنين في ربيع الثاني 297=يناير 910 - بقائده على افريقية مصالة بن حبوس سنة 305=917 لتركيع يحيى بن ادريس الذي حاول عبثا أن يصد المغيرين على بلاده... وهكذا لم يكن أمامه غير اختيار

---

1) ابن أبي زرع : روض القرطاس، طبعة الرباط، ص 115-116 د. عبد الهادي التازي الامام بمن وافق حكمه للمغرب استهلال المائة عام، ص 16. مطبعة فضالة، المحمدية.

واحد : عقد الصلح مع العُبيديين على أساس مبدأين اثنين : دفع تعويضات مالية من جهة، والكتابة بالبيعة إلى عبيد الله من جهة أخرى !!

وقد كان في صدر ما تحقق نتيجة لهذا الصلح، أن نقل والي فاس الخطبة من مسجد الشرفاء إلى جامع القرويين عام 307=919، وصنع «المنبر» الذي ترددت على درجه دعوة العبيديين لأول مرة في تاريخ فاس [1].

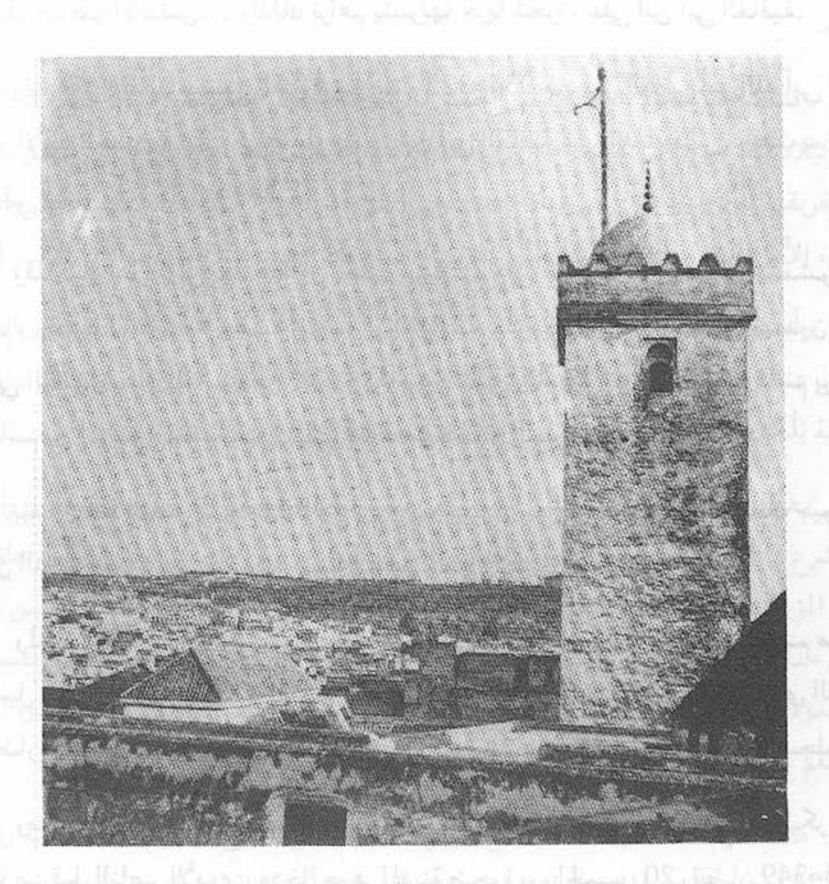
ومع هذا فإنه يتأكد أن تخوف العُبيديين من الأدارسة بلغ درجة طغت على ثقتهم في مستقبل علاقتهم بالأمير يحيى. لقد ءأصبحوا يطمعون - أكثر من دفع الاتاوات وأكثر من عقد البيعات - إلى أن يستولوا على العاصمة فاس. وبهذا نفسر عودة القائد مصالة من جديد للمغرب، ولما تمض خمس سنوات على مقدمه الأول، ليختلق ما يبرر له اقصاء الامام يحيى عن فاس وتولية ريحان المكناسي عليها!

وبالرغم من المصير المحزن الذي استهدف له الأمير العالم يحيى بن ادريس فإن بني ادريس لم يرضوا بالاستسلام حيث قام فيهم الأمير الحسن (المعروف بالحجام) بن محمد ابن القاسم اين ادريس، بطرد ريحان المكناسي عميل مصالة، بل والتصدي سنة 311=923 لموسى ابن أبي العافية الذي كان قد أصبح محل ثقة مصالة، حيث هزمه الحسن شر هزيمة... وكالأمير يحيى، فإن الحسن ذهب ضحية دفاعه عن استقلال مملكته... وهكذا احتل ابن أبي العافية مكانه بفاس سنة 331=925 وكذا تازة وطنجة والبصرة. وهنا تقلص ملك الأدارسة، ومع ذلك فإنهم لم ييأسوا وسلكوا بأجمعهم إلى (قلعة حجر النسر)، جاعلين منها قاعدتهم شمال المغرب.

---

1) الجزنائي : زهرة الآس، طبعة الجزائد ص 35-36

د. التازي : تاريخ القرويين ج 1، 49-58



أقدم صومعة من نوعها في العالم الإسلامي كله هي التي بنيت في فاس بجامع القرويين الذي بنته فاطمة الفهرية « ... فكتب (أحمد بن أبي بكر الزناتي) إلى أمير المؤمنين يستأذنه في إصلاح جامع القرويين وإتقانه والزيادة فيه، فأذن له بذلك، وبعث له بمال كثير من أخماس غنائم الروم، وأمره أن يصرفه في بنائها، فأصلح الجامع وزاد فيها من ناحية المشرق وناحية المغرب والجوف، وهدم صومعته القديمة التي كانت فوق العنزة...

د. التازي : جامع القرويين 1، ص 56-57

انقلاب ابن أبي العافية على العُبَيديين.

وقد أصيب العبيديون بخيبة مريرة عندما بلغهم أن عميلهم موسى ابن العافية الذي اصطنعوه لتركيع مملكة بني ادريس قد انقلب إلى مبايعة أمير المؤمنين الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله صاحب الأندلس... ولذلك نراهم يشنونها حربا شعواء على ابن أبي العافية.

وقد تمكن القائد ميسور الذي أرسل سنة 322=934 من قبل القائم بأمر الله أبي القاسم، من قهر الأمير أحمد بن أبي بكر عامل موسى ابن أبي العافية على مدينة فاس، وبعث به للمهدية حيث بقي أسيرا إلى عام 341=952.

وقد قبل أهل فاس بعد هذا أن يكتبوا ببيعتهم إلى القائم بأمر الله وأن ينقشوا اسمه سكتهم ويخطبوا له على منابرهم... ورأينا أن الأدارسة يصالحون بدورهم العبيديين ويعدون بالدعوة إلى أبي القاسم محمد القائم بأمر الله... وكان ممن تولى رئاسة ذلك فيهم الأمير قاسم بن محمد بن القاسم بن ادريس الملقب بقنون الذي اتخذ من (حجر النسر) ملاذا له...

بيد أن هذا النصر الذي حققه العبيديون لم يلبث أن تعرض للخطر عندما كانت جيوش عبد الرحمن الناصر تنطلق من قاعدتها سبتة لتُلحق أفدح الأضرار بالعبيديين ...

ولما لم تكن هذه الأحداث مما يروق العُبيديين فقد جهز المعز لدين الله أبو تميم معد ابن إسماعيل جيشا عظيما جعل عليه سنة 347=958 قائده جوهر الرومي الصقلي الذي التحم في حرب ضارية مع حليف الناصر في بلاد العدوة... وانتهى الالتحام إلى تحقيق النصر في سجلماسة...

ومن هناك إلى العاصمة فاس التي قبض فيها من جديد على أحمد ابن أبي بكر الزناتي أميرها من قبل الناصر الأموي، ودخل جوهر المدينة ضحوة يوم الخميس 20 رمضان 349=13 نونبر 960 بعد أن استمع فيها بآذانه إلى اسم العبيديين يتردد على منبر جامع القرويين الذي صنعه العبيديون منذ 307=919.

وسار، بعد فاس يتقفى آثار أنصار بني مروان قبل أن يعود إلى سيده المعز لدين الله وبصحبته أمير فاس أحمد ان أبي بكر الزناتي وأمير سجلماسة محمد بن واسول مع مساعديهما الأقربين، داخل أقفاص من خشب، على ظهور الجمال وعلى رؤوسهم قلانس من لبد مستطيلة

منبتة بالقرون حيث طيف بهم في أسواق القيروان قبل أن يركعوا أمام المعز لدين الله في المهدية...![1]

وفي هذه الأثناء كان الأمير الحسن بن كنون قد صانع العبيديين وبايعهم فيمن بايعهم عند حملة جوهر على المغرب، ولذلك فقد استبقوه على قيد الحياة بل وعلى ما كان يتولاه أهلا في طاعته.

وقد صح ما كانوا يتوقعونه فإن الحسن بالرغم من إظهار ميله لبني مروان بَعْد مغادرة القائد جوهر لبلاد المغرب أواخر سنة 349=يبراير 961، عاد فانضم سنة 361=971 إلى عامل العُبيديين على إفريقية بُلُكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الذي قام بحملة استهدفت القضاء على دعوة بني مروان، الأمر الذي حرك الأمويين الذين قاموا بحملة مضادة ماحقة استسلم فيها الأمير الحسن!

وأمسى لاجئاً في قرطبة قبل أن ينتقل لمصر -وقد أصبحت خاضعة للعبيديين الفاطميين فيلتقى هناك بالأمير نزار بن معد الذي زوده سنة 373=983 بعهده على المغرب وأمر عامله على افريقية بُلُكين بأن يقدم المساعدة اللازمة لنصرة قضية الحسن بن گنون !

وهكذا عاد الأمير الحسن إلى بلاده المغرب حيث استقبلته قبائل المغرب بالترحيب والتكريم، وهنا شرع في إظهار دعوته لصالح الفاطميين، الأمر الذي لم يرق طبعا المنصور بن أبي عامرحاجب هشام المؤيد بالله والقائم بملكه، فبعث بابن عم الحسن : عسكلاجة الذي أخضع الحسن بن كنون وجعل حدا لمملكة بني ادريس داخل المغرب بعد معارك ضارية شهدتها عاصمة فاس نفسها حيث نجد عدوة القرويين منها تصر على مبايعة القيروان ردحا من الزمان، بينما نجد عدوة الأندلس تستسلم عام 375=985 أمام عسكلاجة وتبايع الأندلس!!

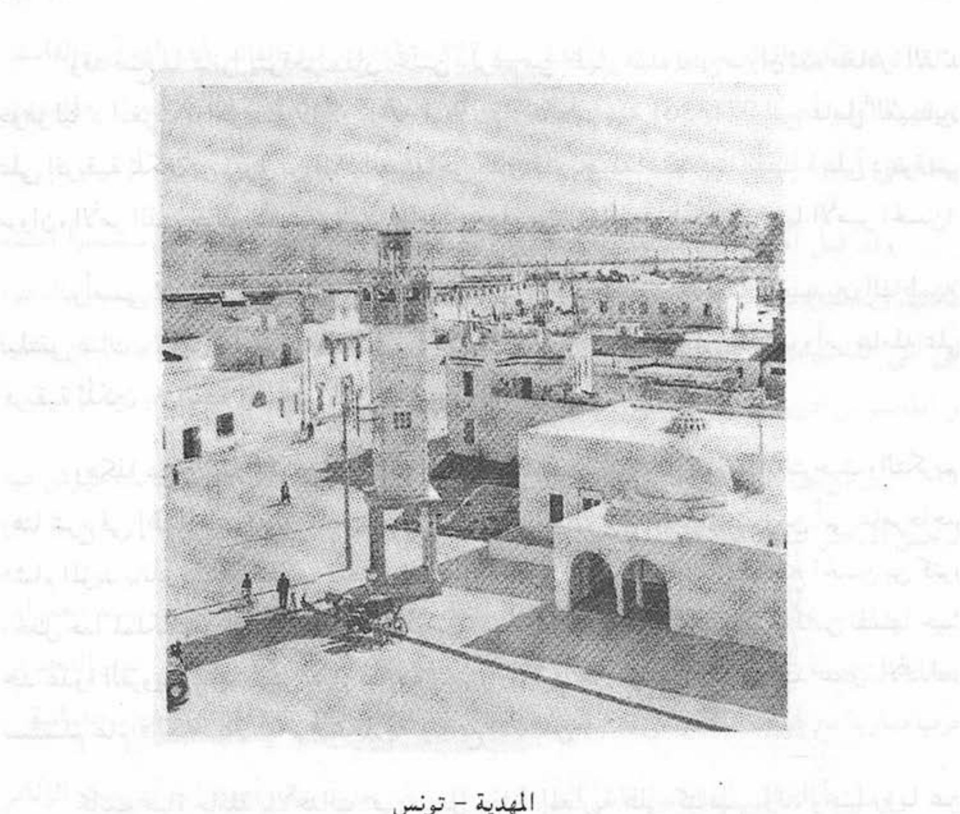
كانت حياة حافلة بالأحداث في سبيل حفاظ المغاربة على كيانهم، وقد رأينا رؤيا عين عملهم المزدوج من أجل ذلك، سواء على صعيد السياسة أو ساحة المعركة، وتجاه دولتين عظيمتين كبيرتين تتسابقان على ألقاب الخلافة وتبذل كل منهما الجهد لتحقيق مكاسب أكثر من الأخرى!

---

1) القاضي النعمان بن محمد : المجالس والمسايرات

تحقيق الحبيب الفقي، ابراهيم شبوح، محمد اليعلاوي، نشر الجامعة التونسية : كلية الأداب والعلوم الانسانية 1978 ص385-458-491

د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 4 ص 73 وما بعدها.



المهدية - تونس

الفصل الثامن

سياسة الأمويين مع الإمارات المجاورة للأدارسة

- سفارة الرستميين لدى عبد الرحمن الناصر
- سفارة بني مدرار لدى الأندلس محملة بالهدايا الغريبة.
- صلة الأغالبة بقرطبة وارسال الرازي سفيرا عنهم للأندلس...
- وفادة من نكور بالأندلس...
- سفارة البرغواطيين لدى الحَكَم بن عبد الرحمن...

الخلافة بالأندلس والإمارات المغربية

لقد كشفت الأيام أن عملية الاغتيال التي دبرت للامام ادريس بن عبد الله من لدن الخليفة هارون الرشيد، قوت من مزكز بني ادريس في المغرب وأظهرتهم أمام الناس قاطبة على أنهم ضحايا ظلم وغدر، ووجدنا الأندلسيين أنفسهم من جهتهم ينظرون إلى الإمارة الادريسية نظرة احترام وتقدير... لا سيما وهؤلاء يشاركونهم الشعور إزاء الذين يحكمون في المشرق...

وإذا كان هذا هو الموقف الأندلسي بالنسبة لامارة بني ادريس وخاصة في بداية الأمر فإن الموقف بالنسبة للامارات الأخرى : كان بحاجة إلى تتبع، ذلك أن الأمويين في الغرب الاسلامي كانوا يرهفون بأسماعهم لما يجري على الضفة الأخرى من البحر المتوسط.

وهكذا شاهدنا لهم مواقف معينة إزاء تلك الإمارات المتناثرة في طول البلاد وعرضها طوال قرنين كاملين. وإذا كانت بعض مصادر التاريخ التي نتوفر عليها اعتادت أن لا تعطي أهمية كبرى للعلاقات الدولية فيما تقدمه للقراء... فإن المؤرخ الكبير ابن حيان في كتابه (المقتبس) تميز على العكس من ذلك، بإبراز الصلات التي كانت تربط الأمويين بغيرهم من الأمم.

وإلى ابن حيان يرجع الفضل في بسط الحديث عن العلاقات الأولى للأندلس الأموية مع أئمة الامارة الرستمية في تاهرت، وبالضبط عندما نصب الخليفة عبد الرحمن الثاني...

لقد أفادنا ابن حيان أن هناك سفارة تتألف من ثلاثة أشخاص كانوا بالصدفة أبناء لعبد الوهاب ابن رستم... هم عبد العزيز ودحيون وبهرام الذين أرسلوا في وفادة إلى قرطبة عن تاهرت.

لقد كان عبد الوهاب استقبل في تاهرت قبل هذا الوقت رسولا عن قرطبة هو الأمير عبد الله ابن الخليفة عبد الرحمن الأول، وهناك في تاهرت بلغت عبد الله أخبار وفاة أخيه وتنصيب ابن أخيه الحكم بن هشام عام 180=776...

ومنذ هذا التاريخ وجدنا أن الإمام عبد الوهاب يعهد لأبنائه بأخذ طريق البحر لينشؤوا لهم علاقات في الأندلس مع الأمويين.

والمهم أن نعرف هنا أن الخلافة في قرطبة خصصت استقبالا حافلا للأمراء الرستميين الثلاثة... وقد غمرتهم بالهدايا والتحف الفاخرة، قبل أن تأذن لهم في العودة إلى بلادهم حيث وجدوا أن الإمام عبد الوهاب توفي قبل بضعة شهور وأن الذي تولى الأمر بعده كان هو ولده...

وعلى نحو هذه الصلات مع تاهرت وجدنا تعامل الأمويين مع مملكة سجلماسة وكان يهيمن عليها -كما عرفنا- بنو مدرار الذين كانت تربطهم صلة مصاهرة مع أمراء بني رستم في تاهرت بالرغم من أن بني مدرار انتظروا بعض الوقت حتى أيام الخليفة محمد الأول لكي يحكموا صلاتهم مع الأمويين لما أنهم كانوا مرتبطين في بعض الظروف بالخلافة العباسية في بغداد.

وقد حمل المدراريون معهم إلى الأمويين هدايا طريفة وكانت الزرافة من أغرب ما رفعه أمير سجلماسة الذي كان أوصل ملوك العدوة بحبل الخليفة وأدومهم على مهاداته فكانت زرافته التي وجهها إلى الأندلس أول زرافة دخلت البلاد وعاينها أهلها، فصار لهم بها حديث إلى اليوم على حد تعبير ابن حيان...

وقد كان مما اهتم ابن حيان في هذا الصدد أيضا روايته المفيدة عن المكاتبات والمداخلات التي أوجبت الأنس والملاطفة مع دولة الأغالبة وبالذات مع ابراهيم بن الأغلب.

وقد وصل إلى قرطبة في هذا الشأن مبعوث سام كان هو عميد الأسرة ويتعلق الأمر بوفادة محمد بن موسى الرازي التي لم نكن نعرف عنها شيئا قبل أن يقدم لنا ابن حيان هذه المعلومات الطريفة.

لقد وجدنا الرازي في قرطبة يحمل معه الهدايا الرفيعة الثمينة، من التي اعتاد الأمراء والملوك تبادلها، فيما بينهم، كإشارات دقيقة على ابداء الرغبة في التفهم والتفاهم حيث وجدنا في صدر هذه الهدايا تشكيلة من الصقور التي يعرف عنها تاريخ الدبلوماسية الدولية الشيء الكثير.

لقد ذكر ابن حيان باللفظ الصريح أن الأمير محمد بن عبد الرحمن سرٌ بهذه الهدايا وأجزل مكافأة الرازي عليها وأنزله لديه ألطف منزل [1]

ويفيد ابن حيان أن الرازي هذا بعد أن غادر الأندلس ظل على اتصال بالمكاتبة مع الأمير بما يحتاج اليه هذا الأخير من أمور المشرق ويستعمله من أخبار ملوكها...

ومن المهم أن نلاحظ عودة الرازي إلى الأندلس مرة ثانية سنة إحدى وسبعين ومائتين حيث أهدى جارية يصفها ابن حيان بأنها رفيعة القدر مشرقية النشأة، رومية الجنس ومن تربية ملوكهم قارئة كاتبة لغوية أديبة بليغة تحفظ دواوين الشعر الجاهلي والمخضرم والأندلسي وتقرض من الشعر قطعا حسانا وتحدق الغناء الرفيع بصوت بديع أضحت بمجتمع خصالها نسيجة وحدها...

وإذا ما عرفنا عن تلك «المبادرة الجريئة» في ربط حلقة الاتصال بالأغالبة، وهم يوالون بغداد، عرفنا إذن الموقف الأندلسي من بقية الامارات الأخرى، ونعني مثلا امارة بني صالح التي اتخذت من نكور عاصمة لها...

لقد كان مما سجله تاريخ هذه الإمارة - على ما أشرنا- استيلاء النورمان على عاصمتها عام 244=858 حيث ضبطناهم يقومون بعملية نهب واسعة ويأسرون النساء اللاتي لم يكن غير الخليفة محمد بن عبد الرحمن أهلاً لافتدائهنَّ وارجاعهنَّ إلى ذويهن... الأمر الذي كان له أكبر الأثر في كسب بني صالح، بل وتبيعتهم المطلقة لبني أمية ...[2]

وبالإضافة إلى هذه الإمارة وجدنا برغواطة التي تنعت بالمروق والخروج عن الدين، كانت تحادي المحيط الأطلسي، وكان لها شأن يذكر طوال قرون...

هذه الإمارة أيضا وجدنا لبني أمية صلة بها باعتبارها إحدى الامارات التي يحتضنها المغرب.

ولا يظهر أن برغواطة دخلت في علاقات مع الأندلس منذ القرن الثالث الهجري = التاسع الميلادي على نحو ما رأينا بالنسبة لجل الامارات الأخرى.

ولهذا فقد كان علينا أن ننتظر شوال 352=963 لنشهد في قصر الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الثاني سفارة يرأسها أبو صالح زمور بن موسى بن هشام على ما أسلفنا...

---

1) المقتبس لابن حيان - تحقيق د. محمود علي مكي، بيروت 1973. ص 266-267

2) المصدر السابق 1، 176-177.

الفصل التاسع

ملحمة الأدارسة ضد الأمويين !

- مكانة دولة الأدارسة في الديار المغربية ...
- موقف الأدارسة من احتلال الأمويين لمدينة سبتة ربيعI 319=مارس 931
- تصميم الأدارسة على استقلال المغرب
- طموح الأمويين لاسترجاع المشرق !
- الأدارسة بين الصراع العُبيدي-الأموي
- فشل المبادرة الإدريسية نحو قرطبة
- فشل محاولة التقارب الأموي العبيدي
- الحسن بن گنون يؤكد الدعوة لنفسه
- الاستعداد الضخم للتخلص من الحسن بن گنون !
- استسلام الحسن بن گنون جمادىII
- استسلام الحسن بن گنون جمادى II 363=مارس 974
- عودته للمغرب ودعوته للالتفاف حوله !
- مصرع الأمير الحسن 375=985 !!

ملحمة الأدارسة ضدّ الأمويين

وبالنظر لما تميزت به دولة الأدارسة من رصيد حافل وتطور ذي بال في صلتها بالأندلس... وما تبع تلك الصلة من مضاعفات فإننا سنعرض لذلك ببعض تفصيل اعتمادا دائمًا على المؤرخ ابن حيان...

وإذا كان ابن حيان اقتصر في تعليل تقرب بني أمية للامارات المغربية على رغبة الخليفة في تحسس أخبار المشرق، فإن الظاهر من سلوك الخلافة الأموية، أنها أيضا كانت تتبع عن كثب أخبار بني ادريس عن طريق بني مدرار الذين يعادون الأدارسة عداء صارخا على ما هو معروف...

وقد كان من الممكن أن تستمر العلاقات بين الامارات المغربية والامارة الأندلسية على ما تحدثنا : من مسالمات ومجاملات، لولا ظهور الدولة العبيدية الشيعية سنة 297=910، وسيطرتها على سجلماسة «غرة جبين الصحراء وقاعدة العرب والبربر»، سجلماسة باب المغرب إلى السودان التي قال عنها ابن حوقل وابن سعيد : انهما رأيا صكًا لأحد سكانها على شخص آخر مبلغه أربعون ألف دينار!

ولقد كتب عبيد الله الشيعي إلى أهل المغرب يدعوهم إلى الدخول في طاعته والتدين بإمامته وكان في صدر الذين راسلهم صاحب امارة نكور أبو سعيد به صالح...

بمثل هذا الكلام دشن العبيديون تدخلهم في شؤون الامارات المغربية، وخاصة منها التي تقع على شاطئ البحر المتوسط وكان ذلك استعدادا لمواجهة دولة بني أمية بالأندلس. لقد ظهر أن الشيعة لا يرضون بغير تصدير مذهبهم إلى خارج رقعتهم ولا يطمحون – تحقيقا لذلك – لغير الاستيلاء على المسالك التجارية...

وهكذا وجدنا عُبيد الله الشيعي يأمر مصالة ابن حبوس –أول ذي الحجة عام 304هـ=916 عامله على تاهرت – بالمسيرة إلى عاصمة امارة نكور لا نزال سعيد بن صالح حيث تغلب مصالة على المدينة وبعث برأس أميرها إلى مدينة القيروان قبيل أن تصبح (المهدية) عاصمة رسمية للدولة...

ولم تقتصر تحركات الشيعة على تلك الجهات فقط، ولكنها امتدت إلى مدينة فاس قاعدة بني ادريس حيث وجدناهم عام 305=918... يقتحمون المدينة التي كان على رأسها الأمير يحيى ابن ادريس بن عمر الذي كان مثلا يحتذي لبني ادريس على ما أسلفنا ...

ولابد أن نتصور من الآن لماذا أقدم الخليفة الناصر على اتخاذه قرارا بتلقيب نفسه بأمير المؤمنين سسنة 316=928 ثم للعبور إلى سبتة؟

من هنا سنشاهد على الساحة المغربية سلسلة من الانتفاضات والانتقاضات كان مما شجع على مضاعفتها دون شك اختلاف كلمة بني ادريس. فلقد تداول الحكم بين بني عمر صاحب الريف وبني محمد صاحب فاس وبني القاسم صاحب طنجة... إضافة إلى أبناء عمهم سليمان صاحب تلمسان. وكان بنو ادريس يحلمون بمغرب مستقل عن «المعسكرين» العبيدي والمرواني، ولكنهم، بتفككهم، وجدوا أنفسهم في حيرة بين أن يوالوا هؤلاء أو أولئك...

لقد وجدت مهدية (تونس) وقرطبة (الأندلس) معا في ذلك التفرق ما عجل من جهة بتنحية بني ادريس، ومازاد من ناحية أخرى في حدة المواجهة بين العبيديين والأمويين...

موقف الأدارسة من احتلال الأمويين لسبتة

لم تمض سنة كاملة على أخذ البيعة للناصر كأمير للمؤمنين حتى تاقت همته إلى استدعاء أكابر الأمراء المغاربة إلى ولايته وأمره لهم بعدم مناصرة عبيد الله الشيعي «المضلل» على حد تعبير ابن حيان...

وهنا أخذت التخطيطات لعبور الزقاق، إلى العدوة المغربية... وبالدرجة الأولى مدينة سبتة التي كانت إلى حد الآن بيد بني عصام الذين قدموا ولاءهم منذ حين إلى بني ادريس...! ولكي يحقق الناصر هذا ابتدأت في صدر سنة 317=929 حركات ارسال الوفود وتقديم الهدايا إلى سائر المضطهدين والموتورين من أبناء الامارات المغربية ...

وقد لقيت تلك المراسلات صداها في أرجاء العدوة المغربية حيث وجدنا من أسرع الذين بعثوا بأجوبة التأييد أمير زناتة محمد بن خزر الذي جنح إلى الناصر وصدف عن عبيد الله الشيعي وبعث إلى الخليفة، إضافة إلى هذا، بطائفة من أخبار خصمه في «المهدية» وحلفائه من «غواة كتامة» كما ينعتهم الخطاب...[1]

ولم يقتصر الأمير ابن خزر على إرسال الخطاب ولكنه شفع ذلك بطائفة من الهدايا الرفيعة التي أجاب عنها الخليفة بهدايا بالغة العاية في التعبير والدلالة وخاصة بما صحبها من الكسي التي طرز عليها اسم الأمير ابن خزر على ما يفصح عنه الخطاب الذي بعث به الخليفة جوابا عن رسالة ابن خزر...

وهكذا أصبح ابن خزر مراسلا دائما للناصر يخبر بما يجد في الساحة المغربية وبخاصة (تاهرت) «دار الفاسقين وكهف المتمردين» كما تقول الرسائل التي لم تنفك آخذة طريقها إلى قصر بني أمية بما يصحبها من هدايا كانت قمة في الدلالة على درجة الرفاه والحضارة .

ومن ألمع السفراء الذين كانوا يترددون من دار الخلافة على الزعيم المغربي ابن خزر ابن أبي عيسى الذي كان يحسن السفارة ويحكم التدبير...

1) ابن حيان : المقتبس، الجزء الخامس نشر ساليتا - صبح المعهد الاسباني - راجع التعليق الصفحة الموالية

ولم يتردد الخير بن محمد بن خزر نفسه في مكاتبات الخليفة الناصر بما يجري من الحوادث سواء في ساحل المغرب الأوسط أو الأقصى فكان الناصر بدوره لا يترفع عن التنزل للقائد الفتي مشجعا له على المضي في مقاومته لخصومه الشيعة...

وقد كان من الذين وردت أجوبتهم في هذه السنة 317 إلى أمير المؤمنين الناصر لدين الله، الأمير منصور ابن سنان الذي شفع خطابه بطائفة من الهدايا منها الخيل والابل والنعم والغزلان، الأمر الذي أحسن الناصر الجواب عنه استجلابا للزعيم المغربي الجديد.

وقد كان في صدر الذين نبذوا دعوة الشيعة وتقدموا برسائلهم إلى الخليفة الناصر موسى ابن أبي العافية الذي خشي مغبة تصرفاته السابقة فبادر بالتوبة بل أنه أسرف في إظهار الطاعة حتى ينسى قادة الأندلس ماضيه !

وقد كان من الخطابات التي بلغت للناصر خطاب من إمارة نكور بإمضاء صالح بن سعيد وقد قرئ كتابه بجامع قرطبة وحملت نسخ منه إلى سائر بلاد الأندلس... وأمر الناصر - على ما يفصله البكري- بإمداد صالح بما يجل من الأخبية الشريفة والآلة العجيبة والأكسية الرفيعة والسروج والحلي والبنود والطبول والدروع وجميع السلاح... [1]

تصميم الأدارسة على استقلال المغرب !

ولانشك أبدا في أن الأمراء الأدارسة كانوا في صدر من حاول الناصر أن يكسب ودهم، وبالرغم من أننا لا نستوعب سائر الطرق التي سلكها لتحقيق هدفه، فإننا على مثل اليقين من أن محاولاته كانت تلقى تجاهلا ملحوظا... لقد كان كل بني ادريس يصممون العزم على عدم الرضى بأن يذوبوا في أي كيان !

1) البكري : كتاب المغرب في ذكر افريقية والمغرب، طبع باريز 1965 ص97

إن سائر الذين عاشوا بالأندلس على ذلك العهد إنما كانوا يعرفون المغرب عن طريق طنجة، وإلى طنجة كانت نسبة المغاربة بالأندلس كما يقول ابن الخطيب، فهم ينعتون الجند المغربي بالجند الطنجي على نحو ما سنسمعه بعد قرون من إطلاق لفظ مراكش أو فاس على بلاد المغرب كله...

ونلاحظ أنه عندما كان المؤرخ ابن حيان يتحدث عن نوع العلاقات الأموية الادريسية كان يتحدث بلسان الخلفاء بالأندلس، فهو يذكر أن العصبية دفعت بأكثر بني ادريس إلى مساندة دولة الضلالة الشيعية المدعية بحق الامامة... وهو يذكر مع ذلك أن أصحاب تلمسان من الأدارسة، وهو بنو سليمان، جاهروا، على العكس من بني عمهم، بولائهم لبني أمية.

ولا بد قبل أن نسمع عن استسلام بني ادريس أن نذكّر بالعمليات العسكرية التي كان موسى بن أبي العافية يقوم بها في سائر جهات المغرب ضد بني ادريس بدون استثناء. وفي كل اتجاه حيث وجدناهم يهربون من جراوة إلى جزر ملوية وإلى أرشقول...

نعم لقد وجدنا في سنة 316=928 خطابا من صاحب ثغر أرشقول الأمير ادريس بن ابراهيم إلى الناصر يقدم له الطاعة ويبعث اليه الهدايا السنية من الخيول والابل والحيوانات الغريبة...

وإلى جانب الأمير ادريس هذا، انحاش للناصر كذلك من الأمراء الأدارسة صاحب أصيلا القاسم بن ابراهيم بن ادريس فقد توجه بدوره بخطاب سنة 317=929 مصحوبا بهدايا للناصر...

وكان الأمير الثالث من الذين أنابوا للناصر سنة 318=930 وبعثوا له بخطاب الولاء: الحسن بن عيسى الذي شفع خطابه بهدية تحتوي على نيف وعشرين فرسا من جياد الخيل المغربية، إلى ثلاث وعشرين من كرام الابل، منها جملٌ كامل الخلقة من مطايا الملوك، عليه عمّارية مكللة بالفضة يكسوها ديباج، وردت عليه من ديار الفرس! هذا إلى منطقة محلاة بالفضة علاوة على الغزلان والنعام مما لم يَهد أمير من أمراء المغرب مثله...

ومع كل تلك الاتصالات مع الزعماء المغاربة بمن فيهم معظم بني ادريس، شعر الناصر بأن الوقت حان لعبور البوغاز لحماية ظهر حلفائه من جهة، والاستعداد للخطوة القابلة من جهة أخرى.

وهكذا ما حلت سنة 319=931 حتى كان الأسطول الأندلسي على أتم الاستعداد للتحرك.

وعلى العادة المتبعة في مثل هذه الظروف، فقد «اصطنعت» المبررات وقرأنا في المصادر التاريخية الأموية عن «تشكي» المغاربة من سيرة بعض آل ادريس ! الأمر الذي لم يسع الناصر معه إلا أن يستجيب لرغبات «المشتكين» ويحتل سبتة التي وجدناه يدخلها يوم الجمعة أول ربيع الأول سنة 319=24 مارس 931 متغلبا على واليها من قبل الأدارسة الرضى ابن عصام على ما أسلفنا ...

لقد كان بنو ادريس يرهفون بأسماعهم إلى استعدادات الناصر وخاصة منهم الذين يقتربون من المعبر من أمثال الأمير ابراهيم ابن محمد ابن ادريس ومن معه من إخوته الذين لم يتحملوا هذا الاحتلال، الأمر الذي يفسره زحفهم على سبتة لهدف اجلاء الأمويين... لكن المحاولة كانت عبثا بل أنها أساءت إلى السادة الاشراف الذين كتبوا يعتذرون عن صنيعهم.

ومن دهاء الخليفة الناصر أنه أسرع إلى قبول اعتذارهم وعهد إلى سفيره الشهير ابن أبي عيسى فأخذ عليهم البيعة للناصر بتاريخ آخر جمادى الآخرة عام 319=19 يوليه 931 وعاد يحمل من لدنهم خطابا جديدا للخليفة...

ولا ننسى أن نذكر أن زحف بني محمد بن ادريس على سبتة ولو أنهم اعتذروا عنه، قوبل بالشجب والاستنكار من آل عمر بن ادريس ومعهم بعض بني عمهم حيث بعثوا برسالتهم وبيعتهم التي كانت بتاريخ رجب 319=غشت 931 وكانت مذيلة بأسماء ابراهيم وعيسى وأبي العيش بني ادريس بن عمر بن ادريس إضافة إلى ابن عمهم يحيى بن محسن بن القاسم ومع كل هؤلاء رؤساء قبائل غمارة... [1]

وقد كان المهم من قضية احتلال سبتة أن الأدارسة بالرغم من إعلان ولائهم للناصر في التاريخ الذي ذكرناه، إلا أنهم مع ذلك كانوا يتحسبون جدا لمستقبل العلاقات. وهكذا وجدناهم

1) المقتبس : ص 297-298

يتقدمون بشروط لعامل الخليفة الأموي على سبتة : أمية ابن إسحاق القرشي بمحضر الزعماء المغاربة كانت تهدف إلى تطويق الوجود الأموي في سبتة، وهكذا طلبوا إلى العامل أن لا يمد بصره بعيدا عن باب سبتة.

ومن هنا وجدنا المخاطبات تتوالى من قبل الأمير الادريسي للخليفة الأموي حتى يحمل عامله بسبتة على احترام هذه الشروط.

طموح الأمويين لاسترجاع المشرق ...

وفي أعقاب فتح سبتة أخذت آمال الناصر تتقوى في العبور بجيوشه ورجاله إلى تحقيق الهدف الذي أشرنا اليه والمتلخص في ربط جناحي المشرق والمغرب. إن امال ادريس الأول في الوحدة الاسلامية أمست هي آمال عبد الرحمن الثالث ...[1]

لم يكن الناصر يخفي ما كان يخالجه من امال بديار المشرق، يتحدث بذلك أمام الرسل المغاربة، ومع الزعماء الذين يردون عليه بل أن كتبه إلى هؤلاء لم تكد تخلو من ذكر تطلعه لسلطان المشرق. وحماية بيت الله الحرام... في نفس الوقت الذي يوغر فيه صدور القوم على أعدائه من قادة الشيعة... الأمر الذي يفسره جيدا اهتمام الخليفة بأمر الأسطول واستكثار رجال البحرية وتوزيعهم بين نقطتين اثنين : سبتة ووهران...

وسنقرأ في كتاب طويل وارد سنة 319=931 من أمير زناتة محمد بن خزر التعبير عن الأمل في أن يفتح الله لأمير المؤمنين مشارق الأرض ومغاربها وتتصل طاعته إلى أقصى العراق، ويرد تراث خلافة آبائه الطيبين الأبرار الأكرمين...

1) سنرى من خلال الفصول اللاحقة أن «الوحدة الاسلامية ظلت أيضا مطمحا للمرابطين والموحدين وبني مرين والسعديين والعلويين.

وقد ظهرت في هذه الأثناء حركة بالمشرق دوّى صداها في المغرب... ووجد فيها الناصر فرصة ثمينة أخرى للتشهير بخصومه بني العباس من ناحية، وتحذير المغاربة من العُبيديين من ناحية أخرى...

فلقد شهدت مكة، وفي رحاب المسجد الحرام نفسه، حشدا من أنصار القرامطة الذين كان يقودهم، على ذلك العهد، سليمان بن الحسن الجنابي المكنى بأبي طاهر زعيمهم بالبحرين...

كان من مذهبهم مداهمة قوافل الحجاج ومنع الناس عن الحج واتْخذهم الحجاج أسرى، بل أنهم اقتلعوا الحجر الأسود من مكانه بجدار الكعبة ونقلوه إلى الحَسَا عام 317=929 حيث سيظل أسيرا طيلة اثنتين وعشرين سنة قبل أن يرجع إلى مكانه[1]!

وفي الوقت الذي أبلغ فيه الخليفة الناصر لدين الله عميد الأمراء المغاربة : محمد بن خزر أمير زناتة، برغبته في إنقاذ المشرق، قام بنفس العمل بالنسبة لابن أبي العافية أمير مكناسة عام 319=930 مغتنما هذه الفرصة أيضا ليبسط أمام المغاربة إشفاقه على ماتعرض له بيت الله من انتهاك «القرامطة» في غفلة بني العباس!

وبالنظر لما يتطلبه تطبيق هذه الخطة فقد شاهدنا مزيد اهتمام الناصر بأمر الأسطول في هذه الظروف حيث رأينا أن قطعة تناهت إلى 120 قطعة... ورأينا أن هذه القطع تستوعب سبعة آلاف رجل، منهم خمسة آلاف من البحريين وألفان من الجند... الأمر الذي حرك من عبقرية شعراء البلاط الأموي.

ومن جهة أخرى فاستجابةً لحاجيات ابن أبي العافية الذي يواجهه الشيعة باستمرار... ولهدف تقوية سبتة، وجدنا الناصر يجهز جيشا كثيفا بقيادة قاسم ابن طُمْلُس ليبعث به إلى المغرب مصحوبا بطائفة من الرسائل كانت تطلب من سائر الموالين أن يحتشدوا وراء ابن أبي العافية...

---

1) رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. عبد الهادي التازي ج I ص 313 ج II ص 247 نشر أكاديمة المملكة المغربية 1417=1997 - مطبعة المعارف الجديدة - رقم الإيداع القانوني 321-1997.

الأدارسة بين الصراع العبيدي - الأموي

كان التسابق بين الدولتين : العبيدية والأموية على أشده لامتلاك رقعة من المغرب أكثر... وبخاصة مدينة فاس التي كانت الضفة الغربية منها على الخصوص، توالي بني أمية والتي توصل أميرها في شوال من عام 322=934 بخبر يعبر عن رغبة العُبيديين في أن يستقبل الأمير المذكور سفيراً من لدنهم...

واغتر أمير المدينة أحمد بن أبي بكر وخرج لاستقبال الرسول لكن هذا غدر به وأخذه أسيرا إلى المعز في (المهدية) حيث ظل رهن الاعتقال و"غسل الدماغ" كذلك إلى سنة 341=952 حيث التحق بعدها بفاس...

وقد ظل ابن أبي العافية في هذه الأثناء على صلة بقرطبة يدس ما أمكنه الدس لبني ادريس ويبلغ أخبار العاطفين عليهم على نحو ما يبلغ أخبار الذين يميلون لحكام المهدية...!

وقد كان من جملة الهدايا التي اتحف بها الناصر حليفه ابن أبي العافي بندٌ فيه صورة ملونة لعقاب : مذهب النقش رأسه فضة، عيناه بلون أحمر، في وسط جبهته فص أخضر.

وبموت عبيد الله الشيعي (322=934) صاحب المهدية تولى مكانه أبو القاسم الذي لم يتردد في الاجهاز على أخويه واكابر أبيه...

ولقد شجع ذلك الاضطراب في المهدية ابنَ أبي العافية في تتبع بني ادريس والاجهاز عليهم في الحصون والقلاع التي كانوا يلوذون بها في الشمال.

«إن الجهاد في الشيعة أولى من جهاد الروم يقول ابن أبي العافية ... والله إن عندهم اليوم في عسكرهم وأخبيتهم بنات من صدينة وغيرها من قبائل البربر يعبثون بهن. وبلغني أنه يكون في الخباء ثلاثة رجال أو أكثر يتداولون امرأة واحة، فأي قربى أدنى إلى الله من جهاد هؤلاء !»

فشل المبادرة الادريسية نحو قرطبة ...

ولا شك أن الأدارسة تنفسوا الصعداء من انهزام موسى ابن أبي العافية أمام القائد الشيعي ميسور عام 323=935.

هنا وجد الأدارسة الفرصة لكي يكشفوا عن موقفهم الحقيقي أمام الناصر، أنهم ليسوا شيعة ولكنها الضرورة هي التي جعلتهم يداهنون... فعلى الأمويين أن يتفهموا قضية بني ادريس، وعليهم أن يختاروا حلفاءهم وأولياءهم من معشر بني ادريس.

فماذا كان موقف الناصر من هذه المبادرة ؟

إن مكانة بني ادريس على ما نعرف... وهكذا فإن أي فرصة تعطاهم لاستعادة أنفاسهم ستكون على حساب الوجود الأموي بالمنطقة. وهكذا تجاهل الناصر عرض السادة الأدارسة واستمر في مؤازرة حلفائه بالأمس !!

وهكذا ففي الوقت الذي استجاب فيه الخليفة الناصر لمطالب ابن أبي العافية وجدنا أن جوابه عن مبادرة الأدارسة يتلخص في أنه يلوذ بالصمت !!

وقد حملت سنة 325=936-937 نشاط الأسطول الأندلسي على ساحل المتوسط على نحو ما طلبه ابن أبي العافية حيث وجدناه يحتل نكور ثم جزيرة أرشقول ثم يعيد الكرة على جراوة...

وإذا ما انتقلنا إلى الأحداث عام 326=938 وجدنا أيضا جملة من أخبار العلاقات المغربية الأندلسية عبر الرسائل التي كان أرشيف قرطبة يتوفر عليها، وجدنا أن أبناء موسى ابن العافية أخذوا يتقلدون تدريجيا مهام والدهم بعد وفاته ... وكانوا بدورهم يحملون من الحقد على بني إدريس ما تنطق به مراسلاتهم للخليفة الأموي ...

وقد شهدت رحاب قرطبة سفارة هامة وردت عن الأمير مدين بن موسى بن أبي العافية... وكان على رأسها ابنه محمد وطائفة من وجوه قومه فاستقبلهم الخليفة بالجيش والعدة، وكان دخول الوفد إلى قرطبة يوم السبت 19 شعبان 328=30 مايه 940... وتم اجتماع الوفد بالخليفة أكثر من مرة...

وكما رأينا الناصر بالأمس يبعث برسوله للإصلاح ذات البين بين ولاته المتنافسين بالمغرب، وجدناه هذه السنة أيضاً (328=940) يبعث بسفير جديد هو منذر ابن سعيد القاضي ليقوم بنفس المهمة بين الزعيمين المغربيين : الخير محمد ابن خزر ومدين ابن أبي العافية...

كان مما قدمه الخليفة إلى الأمير الخير خاتماً (مُهْراً) من أختامه الخاصة كان فصه زمردة رفيعة القدر، نقش عليها اسم الناصر وطلب اليه أن "يمهر" بها على ما ينفذه من كتبه اليه.

وفي أواخر ذي القعدة من عام 338=غشت 940 ورد وفدٌ على قرطبة عن المغرب الأوسط : (جزائر بني مزغنة) يحمل خطابا عن سكان تلك الجزائر يخطبون ولاء الخليفة ملتمسين إنفاذ عامل اليهم من لدن قرطبة...

وقد سجلت نهاية هذه السنة حجة 328=أكتوبر 940 حدثا طريفا في العلاقات بين بني أمية وبين بني ادريس... يعتبر في نظرنا متعدد الدلالات.

ويتعلق الأمر بوصول كتاب من الأمير أبي العيش بن ادريس وابراهيم أخيه إلى الخليفة الناصر من حصنهما شمال المغرب يسألانه انفاذ طبيب من أطبائه إلى حضرتهما لعلاج علة بأحدهما استعصى علاجها على من عندهما من الأطباء... وهنا وجدنا الناصر يبادر لاسعافهما بما طلباه ويوجه اليهما الطبيب سليمان بن عبد الملك المعروف بابن باج... وليس هذا فقط ولكنه قبل أن يأذن له في الانصراف فتح له خزائن الصيدلة ليحتمل منها الأدوية والأشربة والعقاقير وغيرها ما يصلح لعلاج العلة التي ذكراها، ونفذ سليمان نحوهما وطب علتهما وأقام مدة عندهما...

وتشاء الأقدار الا أن تعاكس باستمرار الرغبة في تصفية دائمة للعلاقات بين بني أمية وبني ادريس، وهكذا فبعد فترات سلم هشة بين الجانبين سمعنا عن توتر جديد يحدث عندما أقدم بنومحمد بن القاسم على بناء تطاون [1]، فقد فُسر صنيعهم المعماري هذا بأنهم يريدون قطع المرافق عن سبتة !!

1) البكري : ص 120-121 - ابن عذاري 2، 216.

فشل محاولة للتقارب الأموي العبيدي

وهناك لقطة من التاريخ تجاهلها مؤرخو بني أمية وقد استأثر بالتعرض لها مؤرخو الشيعة وبحاصة القاضي النعمان صاحب (كتاب المجالس والمسايرات)

ويتعلق الأمر بمحاولة للخليفة عبد الرحمن الناصر تهدف لابرام الصلح مع العبيديين... وهكذا ففي أعقاب هدنة بين المعز الفاطمي وبين الروم عام 346=957 بعد انتصار المعز عليهم، انتهى الخبر «إلى الأموي الخاسر فخاف الوقيعة به، فدس رسولا من قبله، وكتب كتابا على لسان بعض رجاله إلى بعض رجال أمير المؤمنين في الموادعة والصلح، ويذكر ما يتوقع في ذلك من سفك دماء المسلمين واشتغال بعضهم ببعض عن غزو المشركين. وجاء الرسول بالكتاب وأدى بلسانه عن الخائن ما لم يؤده الكتاب من طلب الصلح والألفة وكف الحرب والفتنة، وذكر ذلك لأمير المؤمنين شفاها...

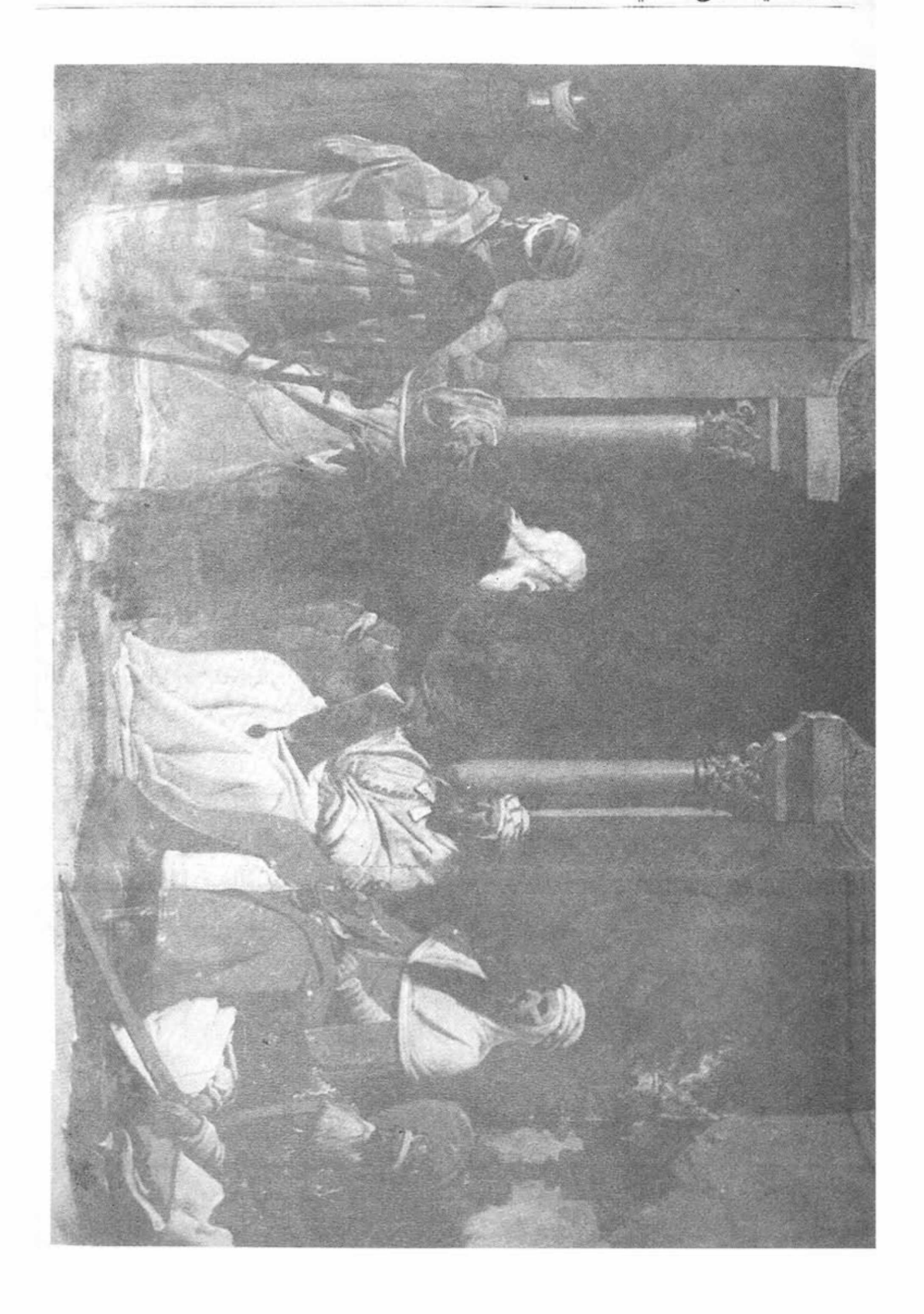
وصرف الرسول، وأمر الذي ورد عليه الكتاب أن يجيب عن كتابه اليه جوابا غليظا ويتواعده فيه، ففعل. وانصرف الرسول بالجواب والكتاب [1].

الحسَن بن كنون يؤكد التمسك باستقلال المغرب

لقد اتبع الخليفة الحَكمَ المستنصر الذي خلف والده عام 350=961 نفس السياسة التي كان عليها سلفه من الاحتفاظ بالصداقات القديمة والحذر ممن كان يحذره الناصر بالامس...

وهكذا وجدناه يستقبل في منتصف شوال من عام 356=967 سفيرين وصلا إلى قرطبة عن الأمراء الأدارسة قعد لهما -على العادة- في قصر الزهراء وتسلم منهما الكتاب الذي يؤكد فيه الأمراء أنهم على محبة صادقة ومودة مستحكمة مع التزامهم للطاعة واعتقادهم للولاية فقرب الحكم الرسولين وألطف جوابهما على ما يفيدُه ابن عذاري...

1) كتاب المجالس ص 169



وفي محرم سنة 360=نونبر 970 قعد الخليفة المستنصر على السرير بقصر قرطبة على جري العادة من الاحتفال والزينة فاستقبل : عيسى بن محمد ، ومحمد بن العالي، وحسن ابن علي رسل بني محمد بن ادريس.

لقد وصلوا خطاب مرسليهم وذكروا ما هم عليه من الطاعة وطلبوا من الخليفة أن يساعدهم على بعثة رماة تقوية لهم لما يترفعونه من حركة معادية من الجانب الشيعي... وتقربوا باهداء الخيل والجمال... لكنه إذا كان هناك فريقٌ من الأدارسة قد اقتنع بضرورة الاعتراف لولاية قرطبة، فإنه ما يزال هناك فريقٌ آخر يصمم العزم على مواصلة المقاومة، ومن هنا وجدنا الخليفة المستنصر بالله يدعو في رمضان عام 360=يوليه 971 وزيره ابن طُمْلُس ليأمره بالتأهب للخروج إلى مدينة سبتة قائدا على ما يضمه اليه من طوائف الأجناد... تمهيدا لمقاتلة الأمير الحسن بن كنون الذي بدأ «نقضه للعهد وللولاية، واستدعاؤه أحزاب الضلالة مستعينا بهم فيما اعتزم عليه ابقاء الدعاء له على منابر عمله» على ما يقوله ابن حيان...

وفي أثناء استقبال الخليفة لقائده الوزير ابن طملس... زوده ببعض التوجيهات والنصائح التي تهدف إلى «ايقاظ الرأي والعزم واستعمال الجهد والجد في مغاورة»، الفاسق حسن وإخماد ناره» !

وكان من التوجيهات الذكية التي قدمها الخليفة : »أنه متى أظهر الله القائد على طائفة من أنصار الحسن... أوغلب على أرض من طاعته... أن يأخذ بالعفو ويوثر بالصفح ويحسن التجاوز... وأن يتحرى العدل في السيرة، وحسن النية في حب السلامة وإصلاح البلاد واستصلاح للرعية... فإن خير الولاة -يقول الخليفة- من يصلح ما أفسدت من أنفسها الرعية...

---

1) أسرة بن طملس أسرة زندلسية ينتسب اليها بعض الزعماء ورجال الفكر ومنهم الطبيب ابن طملس الذي شرح أرجوزة ابن سينا، وربما كا طملس تحريفا ليطلموس شبه جد لهم قديم ببطوليمي...
دائرة المعارف الاسلامية...

وقد صار الوزير عقب شوال من السنة إلى مدينة تطاون ومن تطاون تقدم إلى طنجة...

وفي رابع ذي القعدة 360=29 غشت وصل كتاب صاحب الشرطة العليا ابن رماحس يبشر بفتح طنجة بالقوة وكان بداخلها الأمير الحسن ابن گنون الذي كان يلهب حماس السكان !

وبعد خطاب قائد الأسطول ورد خطاب الوزير ابن طُمْلُس يوم تاسع ذي القعدة وهو يتحدث عن «حرب شديدة جرت من ضحى النهار إلى اصفرار الشمس أجلت عن هزيمة الأمير الذي تمكن مع جماعة من رجاله إلى الاعتصام بجبل الريف...»[1]

وقد شهدت سنة 362=973 اصطدامات أخرى بين الأمويين والأدارسة مما أدى إلى استنفار القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن من قبل الخليفة مهيباً به لحرب الأمير الحسن بن گنون عندما تفاقم أمره وأثخن في قتل الجند وانتحل ولاية الدّعى الشيعي، كما يقول ابن حيان.

ولقد تمكن الحسن بن گنون –يوم الأحد 23 ربيع الأول 362 أول يناير 972- من الاجهاز على ابن طملس القائد الكبير الذي بعث به الحَكَم المستنصر لمطاردة الأدارسة. الأمر الذي زاد في استفزاز الخليفة الذي لم يعد يحتمل أية وساطة بينه وبين الحسن وهو الأمر الذي يفسره الخطاب الوارد في أثناء عام 362=972 جوابا على كتاب صاحب الشرطة ابن رماحس... ويفسره كذلك الخطاب الذي بعث به إلى قائد أصيلا...

كان هذا يتم في الوقت الذي ظل فيه بعض الأدارسة يوالون الخليفة ...

ومن الطريف أن نجد الكتاب الخلافي يحتوى على فقرة تتعلق بإرسال أحد الشعراء من الأندلس ليستعين به الوزير غالب في الرفع من معنوية الجيش، وقد كان القائد الأعلى التمس فعلاً التحاق أحد الشعراء به، ويتعلق الأمر بمحمد بن حسين التميمي الطبني [2].

1) المقتبس نشر الحجي ص 90-91.

2) حول أشعار الطبابنة. انظر الذخيرة 1، 1 ص 23-535

الاستعداد الضّخم للتخلص من الحسن بن كنون!

وقد شهد رمضان 362=يونيه 973 اتخاذ القرار الحاسم بتصفية الأمير الحسن بن كنون حيث شاهدنا حركة تعيينات واسعة في ولاة العدوة المغربية شملت خمسة عشر من كبار القادة، وطائفة أخرى من المتصرفين والعمال... وقد استقدم كل أولئك الرجال إلى العاصمة الأندلسية ليتسلّموا «السجلات» التي نسميها اليوم بالظهائر أو المراسيم الملكية، ويطلب اليهم في هذه «السجلات» أن يؤدوا يمين الاخلاص أمام الوزير القائد الأعلى (غالب)الذي انتدبه الخليفة لمواجهة الحسن. وينبغي أن نتصور رحاب قصر الزهراء وهو يستقبل هذه الوفود الفخمة، بما يتبعها من حاشية وزبانية...

ولقد عهد أمير المؤمنين يوم الثلاثاء سادس رمضان إلى الوزراء بالقعود في بيتهم للرؤساء المغاربة القادمين من العدوة لتوزيع الصلات والكُسَى التي أمر الخليفة بتسليمها لأولئك الرؤساء.

ولما حضروا دعى بامامهم أبي العيش ابن أيوب رئيس كتامة الذي دفعت اليه خرائط عدة من المال... وخلعت على ابنه خلعة فاخرة ثم دعى من صحبه من الرؤساء أولا بأول حيث سلمت اليهم الصلات والعطايا...

وبهذه المناسبة سلم للرئيس الكتامي أبي العيش بن أيوب (السجل) الذي أصبح أبو العيش بمقتضاه أميرا على كتامة، وكان عدد فرسانهم ثلاثة آلاف وخمسمائة ونيف ورجالتهم ستة آلاف وأربعمائة.

ويخصص «السجل» فضلا عريضا للزكاة وحدودها... وتعيين المستحقين لها من الأصناف الثمانية وكأنَّ القصد قطع الطريق على الذين كانوا يتقوون بالزكاة والخمس من خصوم الخليفة..!

وكان من أهم النقاط التي نصّ عليها السجل قضية الاهتمام بتتبع الأخبار وتصيد الأنباء وبعثها إلى دار الخلافة في أسرع وقت!

وفي هذه الأثناء وصل إلى قرطبة عدد جم من قبائل البربر [1] الجانحين إلى الطاعة المتعرضين للنوال...

---

1) ابن حيان : المقتبس : نشر الحجي ص 115

وقد شملهم الخليفة بالعطاء وصب المال في أطنابهم صبا، وقعد لاستقبالهم قعوداً فخماً محكم النظام شهده الوزراء وأكابر أهل الخدمة...

وقد بلغت الأخبار في هذه الأثناء بركوب الوزير القائد الأعلى غالب البحر في الأسطول من مدينة الجزيرة رمضان بعد أن استكمل أهبته فيها، وقدم إجازة الأجناد والخيل والأثقال وآلات الحروب.

وقد وافى كتاب الوزير القائد يوم الاثنين 26 رمضان يذكر أنه احتل بمرسى أصيلا على مقربة من مدينة طنجة يوم الخميس 22 رمضان وقد أنفذ كتابه عشية ذلك اليوم.

وقد ورد الخبر بانتقال الوزير غالب من محلته بطنجة يوم الأحد ثاني شوال في اتجاه محلة الحسن بن كنون بجرماية حيث وصل كتاب القائد يوم عاشر شوال يذكر احتلاله بمحلة الأمير الادريسي يوم الأربعاء خامس شوال 362=9 يوليه 973 وحكى أن الحسن التجأ إلى الجبال المتصلة بجبل الكرم فرارا من القائد.

وورد كتاب صاحب الشرطة وقائد ابن رماحس يذكر تحرك الأسطول نحو ميناء أصيلا نظرا لما في الاقتراب من الوزير القائد الأعلى واجتماع الأسطولين، من صواب التدبير والأخذ بالحزم... الأمر الذي وافق عليه أمير المؤمنين الذي أجاب الوزير غالب بمثل الجواب... وتكريما للوزير غالب أرسل الخليفة اليه بقبة حمراء فخمة المرأى بديعة الصنع، كان أمر باتخادها له خصيصا ليأخذ مكانه فيها وسط محلته كانت القبة غريبة الابتداع، عجيبة الاختراع، لها منظر فائق ومرأى فائق[1].

وفي إطار الاستعداد الضخم لمواجهة الحسن بن كنون شاهدنا في قرطبة استعراضا نسمع به لأول مرة في التاريخ العسكري لبني أمية، ويتعلق الأمر بالرجال الشداد الجلاد الذين أرسل بهم قائد طليلطة، وانتقاهم في ثغرها من ذوي البأس والرجولة، وكانت عدتهم ألفا وسبعمائة، وكان دخولهم معبئين في الزي الخاص والشكل التام، قد لبسوا الأقبية البيض وتقلدوا السيوف الأفرنجية

---

1) المقتبس : 116.

وبأيديهم التراس، فتقدموا إلى الزهراء وعليهم العرفاء الموكلون بهم، وقعد الوزراء لاستعراضهم قبل أن يزعجوا مع النظار عليهم، إلى العسكر بالعدوة المغربية.

وقد تميزت احتفالات عيد الفطر لهذا العام بعدد من المظاهرات التي كان يقصد بها الفات النظر لما تعيش عليه المملكة من ظروف، وخاصة منها تلك التي واجهت المستنصر بالحسن !!

لقد كان في صدر الحاضرين أولاد علي بن يحيى الادريسي وكل من وجد في قرطبة من رهائن بني ادريس فوصَلوا زمرا وأقعدوا في البهو الذي قعد فيه أمير المؤمنين.

كان وصف ابن حيان لاحتفالات هذا اليوم رائعا بديعا حرك عبقرية الشعراء الذين توالوا على الرحاب يشيدون بشأن الخلافة بهذه المناسبة، ولكنهم، أي الشعراء، تجنبوا النيل من نسب بني ادريس الذين كان معظمهم حاضرا ! على عكس ما كان في عيد الفطر من السنة الماضية عندما لم يكن ضمن الحضور أحد من بني إدريس !!

وفي صدر شوال أرسل الخليفة محمد بن أبي عامر بأحمال المال والحلي لتوزيعها على أنصار بني أمية وولاه أيضا قضاء القضاة بالعدوة المغربية إضافة إلى ما يتقلده من خطتي الشرطة الوسطى والعليا والمواريث وقضاء اشبيلية...

وفي اليوم 26 من شوال أرسل الخليفة إلى محمد بن أبي عامر -وهو بطنجة- مالا واسعا لينفقه بطنجة وأصيلا.

وقد كان يوم السبت منتصف شوال موعدا لاستقبال الخليفة لبني خزر الذين كانوا وما يزالون مقيمون بقرطبة منذ أن أتوا مع جعفر ابن علي ابن حمدون، حيث بسط لهم وشكر سلفهم وأمرهم بالتهيؤ بدورهم للالتحاق بعسكر القائد الوزير غالب لاسكات حسن بن كنون...!

وفي اليوم العاشر من شوال ورد كتاب الوزير القائد الأعلى غالب يتحدث عن ميل عدد من القبائل اليه، ومطاردته للحسن الذي وجده قد ضبط جبل مهران بابنه وابن عمه، وضبط هو جبل الكرم بنفسه مؤملا أن يمنع الجيش من الانبساط في الوادي الذين بين جبل الكرم وجبل مهران وهو نهر المصارة ! [1]

---

1) نريد أن نؤكد على أهمية هذه المصادر في رسم الخريطة الجغرافية للمنطقة...

ولم يكن للجيش الأموي بد من منع الأمير الحسن من الماء ! واصطدم الفريقان يوم الجمعة 14 شوال وطال أمر الحرب وحال الليل دون اقتفاء أثر الفارين، لكن القائد غالب تمكن من كسر قوة الحسن وقطع رؤوس كثير من قادته والاستيلاء على كمية من الماشية، الأمر الذي طير القائد أخباره إلى الخليفة الذي أجاب عنه أمير المؤمنين بأنه جاد في حرب «الفاسق حسن» ومحاكمته إلى الله ما امتدت به حياة حتى يحكم الله بينهما بعد له!!

وإن أمير المؤمنين قد أمر بإرسال قوة أخرى إلى العدوة من القادة التُّجيبيين مع مائة من الرماة المماليك وطائفة من فرسان الرياضة. وإن بني خزر لاحقون بالقائد غالب كذلك إلى أن يلتحق بهم بنو عمهم إذ صاروا اليوم في بادية فاس على ما ذكره رسول عبد الكريم صاحب عدوة الأندلسيين منها...

وقد طالب الخليفة من القائد غالب أن يكرم القادمين التائبين ويتلقاهم أحسن التلقي لشرفهم وقديم طاعتهم...

وقد ورد كتاب من الوزير القائد يوم السبت 15 شوال يتحدث فيه عما دار بينه وبين «الملحد» حسن بن كنون من قتال عظيم كانت له، أي للوزير، النصرة، وهو الخبر الذي سر له أيضا الخليفة حيث رأينا يبعث بالعطايا والهدايا علاوة على الذخيرة الحربية...

وفي يوم الاثنين ثاني ذي القعدة 362=4 غشت 973 ورد كتاب الوزير القائد الأعلى عن محلته بالمصارة يتحدث فيه عن تنبه الحسن بن كنون لضعف أركانه وعلى إعادة تنظيم جنده ونجاحه الآن في استمالة ابن عمه «الناقض للعهد» محمد بن أحمد بن عيسى صاحب البصرة[1]... وأنه أخرج خيلا كثيفة نحو الوزير يوم الثلاثاء 20 شوال متعرضا للحرب... وحمي الوطيس... واتصل العراك وقتا كانت الدائرة فيه على «الفاسق» ورجاله... وأصيب من الجند من كتب الله له الشهادة... وكان من هؤلاء محمد بن فرتون أحد الرؤساء البارزين في الجند الأندلسي !

1) نريد أن نؤكد على أهمية هذه المصادر في رسم الخريطة الجغرافية للمنطقة...

وفي نفس اليوم الاثنين ذاك، صدر جواب من الخليفة لصاحب عدوة الأندلسيين، من فاس، الأمير عبد الكريم بن يحيى عن كتابه الذي أكد فيه الولاء لأمير المؤمنين معتذرا عما كان بَدَر به...

وفي خط القرار الصارم الذي اتخذه الخليفة للتخلص من الحسن بن كنون وخاصة بعدما بلغه عن مصرع ابن فرنون. وجدناه يقوم يوم الخميس خامس ذي القعدة من نفس العام 362=7 غشت 973 بإحضار الوزير يحيى بن هاشم التُّجيبي مع جملة من أصحابه من الوزراء حيث أبلغه بإنفاذه عاجلا إلى العدوة المغربية قائدا معززاً للوزير القائد الأعلى غالب.

وفي يوم الاثنين سابع ذي القعدة غادر الوزير التجيبي قرطبة نافذا إلى العدوة وبين يديه التعبئة الكاملة والترتيب المنظوم بصحبة إخوته وبني عمه التجيبيين... وخرج بخروجه الخازن أحمد بن حاجب وبين يديه ستة عشر حملا من المال وعدة أحمال من الكسى الفخمة والسيوف المرسلة إلى الوزير غالب من أجل توزيعها على الأكابر...

ودائما وفي إطار استقطاب كل القوى والعناصر للدفع بها في المعركة الفاصلة بينه وبين الحسن، استقبل الخليفة في أواخر ذي القعدة القائد يحيى بن علي الأندلسي، فأمره بالتأهب للالتحاق بمعسكر القائد الأعلى غالب مع من يصحبه من الرجال وأغدق عليه الخليفة بالعطايا والهدايا.

وقد ورد على الخليفة في هذا الوقت كتاب من الوزير القائد الأعلى غالب حرره من مقر قيادته بالمصارة يذكر فيه ارتفاع أسعار المواد باكتمال أعداد الحاضرين معه وكثرة كراعهم عنده!!

وقد أجابه الخليفة بكتاب طويل متناسق الفصول، حيث بدد مخاوفه فيما يتعلق بتعذر الأقوات، «وقد كفاك الله الاشتغال بالتفكير في مال أو طعام فمواردها موصولة بك، متلاحقة لديك ولو أتى ذلك على بيوت الأموال المترعة وأهراء الأندلس المغتصة»!!

ومن المهم أن نجد أمير المؤمنين يتوقع -بعدما وصله من أصداء حول شراسة المعارك الدائرة إمكانية سقوط سبتة في يد الحسن بن كنون. ولذلك نراه يقوي من عزيمة قائده الأعلى ويقوي معنويته وينصحه بأن لا يفكر في العودة الا بعد أن يُنصر أو يموت فيعذر.

وفي يوم الاثنين 11 ذي القعدة ورد كتاب القائد الأعلى غالب بما صنع الله له من استباحة (حصن الكرم) وفرار الحسن بن كنون عنه مع صهره محمد بن حنون صاحب البصرة ومعهما بعض الحاشية.

ولقد أجيب القائد الأعلى على بشراه برسالة تقدير وتحذير في الوقت ذاته : وقد ضمن هذا الكتاب تعليمات الخليفة حول تعزيز البريد بمدينتي طنجة وأصيلا بما يراه الوزير القائد كافيا للركض بالأخبار لانتظام الناحية، فتعجل -يقول الخطاب- باتخاذ الدواب لذلك وتعهد إلى الخارجين بدفع أجر خدمته لكل شهر وإلى الخازن بإجراء العلوفة على الدواب والنفقة على الفرانقين (يعني رجال البريد)...

وقد حلت سنة 363 أكتوبر 973 بتسجل بدايتها قدوم مبعوث خاص من القائد غالب، حمل أخبار الاستيلاء على مدينة البصرة التي كان بها محمد بن كنون، لقد تقدم اليها القائد الأعلى غالب تاركا الوزير التجيبي في حصن الكرم.

وفي الكتاب الذي رفع إلى الخليفة من لدن القائد غالب وجدنا هذا ينتظر تعليمات الحكم المستنصر في أمر زوجة محمد ابن كنون التي هي بنت الحسن بن كنون. ،التي عثر عليها ضمن الحريم المتروك في البصرة... ونجد أن الخليفة يستوصي بها خيرا ويطلب إرسالها لوالدها بمعقله بالحَجَر [1] الأمر الذي تم في ظروف جد حسنة...

وبعد تحقيق هذه الانتصارات المتوالية أصبحت قرطبة بطبيعة الحال ! كعبة المبعوثين والسفراء الذين وردوا لتأكيد الولاء وأداء مراسيم الطاعة، وهكذا رأينا الخليفة يقعد أتم قعود بقصر الزهر يوم الاثنين 18 صفر 363=منتصف نونبر 973 ليستقبل عيون هاته الوفود الحاشدة بمحضر الوزراء والكبراء...

---

1) يعتقد زميلنا الراحل عبد الله كنون أن هذا الحصن يقع بقبيلة سماتة (بضم السين) وهو يسمى لحد الآن بحَجَر النسر... وقد جزم بهذا ابن رحمون في كتابه «شذور الذهب»

د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 4 ص 280.

ولقد كان في جملة من استقبلهم الخليفة السادة عبد الرحمن ابن محمد بن أبي العيش، وحسين بن يحيى بن حسن ابن ابراهيم، وحسن ابن حنون ومعهم رجالهم، ثم شيوخ مدينة البصرة وحملة العلم فيها، فأقبل على جميعهم وتوسع في مساءلتهم وأحسن الاستماع لأجوبتهم...

ولم تلبث قرطبة ان استقبلت أفواجا أخرى وردت للتهنئة. كان على رأسها وفد مدينة فاس الذي ورد في أواخر ربيع الأول وهم يحملون هدية صاحب فاس وكانت تحتوي على خمسة وثلاثين فرسا...

وفي يوم الأربعاء سابع ربيع الثاني ورد كتاب من الوزير القائد غالب يتحدث عن تدهور حال الحسن بسبب إحكام الحصار المضروب عليه... ويبشر الكتاب بأن المنصور ولد الحسن بن كنون طلب الأمان مع أخته وأمها مع رجال لأبيه...

وحدث أن الضابط الذي كان مكلفا من قبل الحسن بحراسة الرهائن أقدم على إطلاق سراحهم حيث بادروا بتقديم الطاعة للقائد غالب...

ولا شك أن كل هذه الأحداث كان لها أثر على معنوية الحسن الذي أصبح قاب قوسين من مصيره...

وفي يوم الجمعة آخر جمادى الثانية 363=27 مارس 974 شهد الخليفة المستنصر بالله صلاة الجمعة بجامع قرطبة... وقعد بعد انتهاء الصلاة ليستقبل الزوار ويعلمهم باستسلام الحسن بن كنون... وأنه ورد عليه بذلك كتاب مستعجل من الوزير القائد غالب، وأن الخطبة كانت باسم أمير المؤمنين في الحَجَر يوم الجمعة 22 من جمادى الثانية (20 مارس 974) وقد أمر الخليفة بإرسال الخيول والعدة ليتلقى بها السيدين عليا والمنصور ابني الحسن بن كنون، وكذلك ابن عمه ابراهيم بن حسن ومحمد ابنه، وكان الخبر قد ورد بأنهم على الجواز...

ولقد تميزت حفلات عيد الفطر لهذه السنة 363=25 يونيه 974 بجلوس الخليفة أفخم قعود وأبهاه زينة، تعبيرا عن السرور بالظفر بخصمه السياسي الحسن بن كنون ومثواه بين يديه وبسط سلطانه على العدوة المغربية.

وكانت مناسبة جيدة لتباري الشعراء في مدح أمير المؤمنين مما يكون ديوانا على حدة!

وفي العشر الأواخر من شوال 363= آخر يوليه 794 ورد كتاب الوزير القائد الأعلى غالب يذكر فيه انصراف سفيريه : محمد بن وليد ومحمد بن موسى من بني الطويل إلى مدينة فاس، وكانا توجها إلى أميري المدينتين : عبد الكريم بن يحيى، صاحب عدوة الأندلس، ومحمد ابن الحسن، صاحب عدوة القرويين... يحملات رسالة القائد الأعلى اليهما باستجابة جميع المخالفين لما دعوا اليه من الطاعة والقيام بالبيعة واتباع السنة والعمل بمذهب مالك ابن أنس وإقامة النافلة في رمضان وتوقفهم عن العمل بما كانت الشيعة زرعته عندهم...!

وقد ساق ابن حيان نص بيعة عبد الكريم بن يحيى صاحب عدوة الأندلس التي لم تكن تختلف عن نصوص بيعة محمد بن الحسن صاحب عدوة القرويين. إن الأميرين يتبرآن من الشيعة وأهلها... وقد أرخت البيعة في عقب رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة=الأربعاء 24 يونيه 974[1].

وقد صدر أمر في هذه الأثناء إلى القائد غالب يقضي بأن ينوب عنه في المهام بالمغرب القائدء التَّجيبي صحبة الشاعر الطبني سالف الذكر ...

وبمناسبة الانتصار على الحسن بن كنون حررت عشرات الرسائل في صدر ذي القعدة سنة 363=يوليه 974 إلى العمال والقواد من شتى الأقطار لتخبر بترحيل الحسن بن گنون إلى الحضرة وعودة الوزير القائد غالب بعد أن أنجز مهمته، وتختم بهذه العبارة : «وأمير المؤمنين يامرك أن تقرأ كتابه هذا على منابر عملك لتسر المسلمين بما تضمنه، ويحمدوا الله عليه...

وقد اقترنت حفلات عيد الأضحى لهذا العام بتوالي أخبار النصر من كل الجهات، وهكذا جلس أمير المؤمنين أفخم جلوس لتقبل التهاني...

1) ابن حيان : المقتبس ص 174-175، د. التازي : جامع القرويين 1، ص 58.

وفي يوم الأربعاء ثالث المحرم 364=23 شتنبر 974 قفل القائد غالب من بلاد العدوة، ومعه بنو ادريس : ملوك الغرب المستنزلون من معاقلهم حافين بشيخهم المشتهر بحنون صاحب مدينة الأقلام وما والاها من بلد العدوة ومعه أخوه ابراهيم وابن عمه ميمون بن القاسم وأخوه وبنوهم وأهلوهم... وتكريما للعيال احتملهم تحت جناح الظلام -إلى أماكن مُعَدَّة لهم مؤثثة مزودة على أتم حال !

وقد تحرك الوزير غالب والاشراف وراءه قد رتبوا في الموكب على حسب أعمارهم ومنازلهم ونزلوا في خيام رفعت لهم فأقاموا بمحلتهم هذه يوم الخميس ويوم الجمعة، وفي يوم السبت نفذ الأمر إلى الوزير القائد غالب بالحركة فركب الاشراف مع بنيهم وبني عمهم ورجالهم... أصحاب البنود والرايات الرفيعة الرائقة وما معها من الرايات المصورة : صور الأسود والنمور والثعابين والعقبان وغيرها من التصاوير الهائلة، وتقدم الوزير القائد غالب فدخل على باب السدة إلى القصر، وبنو ادريس معه، وقعد أمير المؤمنين أفخم قعود وأسراه، وأعظمه وأبهاه.

وأخذ علية الناس يتوافدون... ويأخذون مكانهم على ترتيب جليل... الأمراء، الوزراء، والقضاة والأكابر... وعند استيعاب هذه المراتب واستواء نظمها صدر الأمر لبني ادريس بالخروج فقدموا الأسن فالأسن... إلى أن انتهوا إلى المجلس الذي قعد فيه أمير المؤمنين ...

وأقبل الحسن بن كنون فسلم على الخليفة الحكم المستنصر الذي عفا عنه ووفى له بعهده وأوسع له ولرجاله في العطاء ثم أمر بايصال بنيهم الأكابر تشريفاً لهم[1].

وإثر خروج بني ادريس أذن أمير المؤمنين لمن حضر من عسكر أهل الأقاليم بالوصول، فقدموا على مراتبهم... الكتيبة التي تحمل اسم دمشق -ثم كتيبة حمص- ثم الأردن -ثم فلسطين - ثم قنسرين - ثم مصر إلى آخره...

1) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، طبعة الرباط، 193 ج 1 ص 138.



الأمير الإدريسي الحسن بن گنون
بريشة عبد السلام الگنوني

لقد استمر الأمير الحسن بن كنون مقيما زهاء سنتين على مرأى ومسمع البلاط إلى أن وقعت النفرة بينه وبين الخليفة. ويذكر صاحب روض القرطاس وصاحب كتاب مفاخر البربر أن السبب في ذلك يرجع لطمع الخليفة الحكم في الحصول على قطعة عنبر غريبة الشكل ثقيلة الجرم كان الحَكَم يتوقَّر عليها، لقد بلغ الحكم خبرها فسأله حملها إلى خزانته على أن يرضيه عنها... فضن الحسن بها على الخليفة.

وقدح ذلك في قلب الحكم نارا أضرمت سريعا العداوة، وبعثت مكامن من الضغينة... وما انفك الحكم يبحث عن تلك العنبرة حتى استولى عليها...!

وعندما ضعف الخليفة بسبب الفالج الذي نزل به، أصبح الأمر بيد وزرائه وكان على رأسهم جعفر ابن عثمان المصحفي الذي استثقل نفقات بني ادريس. فرأى اخراجهم عن أرض الأندلس وشرط عليهم الاتجاه نحو المشرق، وأخذ على زعيمهم بذلك العهد ولا يكون له على المغرب تعريج، ووكل بهم من أخرجهم على طريق ألمرية، فعبروا البحر هناك في سنة 365=975-976 إلى تونس ثم ساروا نحن مصر ووصلوا إلى صاحبها الفاطمي العزيز بالله نزار بن معد، فرحب بهم ووصل أرحامهم وأجرى عليهم من فضله وأقرهم مدة، ثم تهيأ الحسن بن كنون للحج في جملة من أصحابه.

● العلاقات المغربية الأندلسية في بداية أيام هشام

وعندما بويع هشام مكان والده الحكم لم يلبث حاجبه محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور أن أخذ يدبر شؤون الدولة بكل من العدوة الأندلسية والعدوة المغربية...

غير أن الأصداء لم تلبث أن دوت بالمغرب من جديد مرددة اسم الحسن بن كنون. لقد نازعته نفسه بالعودة إلى وطنه ... ووجد في حكام مصر الفاطميين المساعدة والتشجيع، حيث وجدناهم يكتبون إلى عاملهم بُلُقين بالمغرب الأدنى في إنفاذ الأدارسة إلى المغرب الأقصى وإعانتهم على ما يحاولونه...!

وهنا أنفذ الحاجب محمد بن أبي عامر لمطاردة الحسن بن گنون ابن عمه المدعو عسكلاجة في ربيع الأول سنة 375=غشت 985 ، حيث أخذ في تجويز الناس إلى العدوة بالعتاد الكثيف والمال الوافر والرجال الأشداء.

ولما لم يكن للحسن سند ولما كان سنّه قد تقدم فقد التجأ إلى الاستسلام طالبا من ابن عمه القائد عسكلاجة الأمان على نحو ما فعله معه بالأمس القائد الأعلى غالب.

وقد أعطاه عسكلاجة ما طلب وأشخصه إلى الحضرة قرطبة موكلا به... لكن الحاجب ابن أبي عامر لم يمض أمان عسكلاجة، وهكذا بعث من ثقاته من أمره باستقبال الحسن وتصفيته، فلقوه بالقرب من بريد (الثنية)، وعدلوا به عن الطريق فضربوا عنق الأمير الشيخ وواروا جسده بعد أن حمل رأسه إلى قرطبة في عين المكان وكان ذلك في جمادى الأولى عام 375=شتنبر - أكتوبر 985 [1]. وبذلك خبا النور الذي بزغ قبل أكثر من قرنين على يد الشهيد إدريس الأول !

إنه إذا كان هناك من مثل ينبغي أن يضرب للثبات والجلد والصبر والدأب من أجل الحفاظ على الكيان المغربي، فهو هذا المثل المنقطع النظير الذي قدمه الأدارسة طوال أزيد من مائتي سنة ظلوا فيها يصارعون ويصانعون دولتين عظيمتين، حتى لنعتوا بالتقلب والتلون، وحتى لاضطروا إلى إبرام عقود محكوم عليها سلفا بالفشل، وحتى لبلغ بهم الاصرار أن رضوا بتقسيم العاصمة فاس بين دعاة المهدية وقرطبة...!

لقد لزمتهم روح الطموح إلى اخر لحظة من حياتهم بل أن مطامحهم ظلت في الأندلس - ممثلة في تلك المجموعة التي احتفظ بها الخليفة في ديوانه بقرطبة منذ عام 364=924 والتي تكونت منها الطلائع الأولى لدولة علي بن حمود الذي سنراه يقتحم قصر قرطبة يوم 28 محرم 407= أول يوليه 1016. فيجعل بذلك لدولة العامريين الحدّ، وله الأمر من قبل ومن بعد !

1) ابن عذاري : البيان المغرب 2، ص 281.

الفصل العاشر

علاقة الزيريين المغراويين بالأمويين

- زيارة زيري ابن عطية لقرطبة
- تهدئة زيري لأطراف المغرب
- هدايا زيري للمنصور بن أبي عامر
- الزيارة الثانية له إلى الأندلس
- ثورة زيري على الأندلس وإنشاء العاصمة المغراوية : وجدة
- تغيّر المنصور على زيري ومحاربته له
- اقتحام عبد الملك ابن المنصور العامري مدينة فاس 378=997
- عودة زيري لموالاة المنصور ...

علاقة الزيريين المغراويين في المغرب بالأمويين في الأندلس ...

وباختفاء الأدارسة من المسرح السياسي بالمغرب برزت جيدا مناصرة زيري بن عطية المغراوي للنظام الأموي...

وكانت مغراوة وبنو إيفرن قبيلتين من زناتة تواليان بني أمية، وهكذا ندب المنصور بن أبي عامر في إثر نهاية بني ادريس، وزيره الحسن بن أحمد السلمي لحكم بلاد المغرب وأمره أن يعمل على استمالة البربر في تلك الأقطار، وسار الوزير لفاس 376=986، واتخذ من زعيم مغراوة : زيري بن عطية، مستشاره ومفوضه الأول.

وإعرابا لتقدير المنصور ابن أبي عامر للعون الذي أسداه اليه زيري ابن عطية في تصفية الأدارسة وجه اليه الدعوة لزيارة قرطبة حيث احتفى به احتفاء بالغا وأسبغ عليه من مظاهر العطف والتكريم ما كانت تقتضيه المهمة الجديدة التي تنتظره، فلقد أوعز اليه المنصور بالتجرد لمقاتلة بن يفرن الذين كانوا قد انضموا بالأمس إلى الحسن ابن كنون.

تهدئة زيري لأطراف المغرب

وهكذا عقد المنصور لزيري على المغرب كله أقصاه ووسطه وأدناه طالبا اليه أن يتعاون مع جيش الخلافة... وقد كان زيري حقا في مستوى المسؤولية التي حمله إياها المنصور ابن أبي عامر

حيث نراه يحقق انتصارات ساحقة ضد الذين نكثوا عهد المروانيين في تلمسان ووهران والمهدية بعد أن تلقى عهد المنصور وهداياه وخلعه مع أربعين ألف دينار...

هدايا زيري للمنصور بن أبي عامر

وقد كتب زيري بأمر ذلك الفتح «المغاربي» إلى المنصور بن أبي عامر وبعث له هذا العام 381=991 بهدية عظيمة، فيها مائتا فرس من عتاد الخيل وخمسون مهرية سوابق وألف درقة من اللمطية وأحمالٌ كثيرة من قِسي الزارة وقطوط الزبد والزرافة وأصناف من الوحوش الصحراوية كاللمط وغيره، وألف حمل من التمر الجيد في جنسه، وأحمال كثيرة من ثياب الصوف الرقيقة المجلوبة دون شك من مدينة سجلماسة العظيمة، الأمر الذي أدخل سرورا كبيرا على المنصور.

الزيارة الثانية للأندلس

ولهذا فقد وجه اليه المنصور سنة 382=992 الدعوة ثانية لزيارة قرطبة... وهنا استخلف زيري على المغرب ولده المعز وأمره بسكنى تلمسان، كما استخلف على عدوة الأندلس من فاس عبد الرحمن ابن عبد الكريم بن ثعلبة، وعلى عدوة القرويين علياً بن محمد بن علي ابن قشوش وولى قضاء المدينتين الفقيه أبا محمد عامر الأزدي، ثم سار في طريق الأندلس يحمل معه هدايا عظيمة وثمينة، كان جملتها طير فصيح يتكلم بالعربية والبربرية ودابة من دواب المسك ومهاة وحشية تشبه الفرس وحيوانات غريبة وأسدان عظيمان في قفص من حديد وتمر كثير في غاية الفخر، التمرة منه تشبه الخيارة في عظمتها... وقد صحبه من قومه وعبيده ثلاثمائة فارس وثلاثمائة راجل... فصنع له المنصور بروزا عظيما وأنزله بقصر وزيره جعفر المصحفي ووسع له في الجرايات والاكرام وأعطاه مالا جسيما وخلعا نفيسة، وودعه إلى مقر عمله مجددا له العهد على المغرب وعلى جميع ما يتعلق به من أطراف البلاد.

ثورة زيري على الأندلس وإنشاء العاصمة المغراوية : وجدة

ويظهر أن زيري استصغر صفة «الوزير» التي كان المنصور يضفيها عليه أثناء الزيارة، بل أنه استاء منها حيث كان يعتبر نفسه في مرتبة الامارة، وهكذا عبر البحر إلى العدوة وهو يشعر بالمرارة والخيبة. ويذكر صاحب روض القرطاس أن زيري لما وصل إلى طنجة وضع يده على رأسه وقال: «الآن علمت أنك لي»

ولقد حدث أن خاطبه بعض جلسائه بالوزير فنهاه عن ذلك قائلا « ويحك وزير مَن يالَكَع؟ لا والله، أمير ابن أمير، وأعجبا لابن أبي عامر ومخرقته، لان تسمع بالمعيدي خير من أن تراه! ولوكان بالأندلس رجل (يعني هشام بن الحكم) ما تركه على حاله !!

وقد أصبح زيري صاحب الكلمة في بلاد المغرب كلها ولو أن نفسه أخذت تجيش بمطامح أخرى الأمر الذي يفسره اعتزامه على إنشاء قاعدة جديدة لحكمه تقع بين المغرب الأقصى والأوسط، فكانت مدينة (وجدة) سنة 384=994 التي أسس بها قصبة منيعة وقصرا وأحاطها بأسوار ضخمة ونقل اليها أمواله وذخائره وسكنها بأهله وخاصته...

تغيّر المنصور على زيري ومحاربته له.

لقد كان رد فعل المنصور بالنسبة لزيري بن عطية - وهو يراه ينشئ ويعمر- أنه قطع عنه أرزاق الوزارة ونحّى اسمه من ديوان الخلافة واعتبره خارجاً عن القانون...!

ولم يكن موقف زيري بأقل مما سلكه المنصور، ولهذا نراه يقدم على الاقتصار في الدعاء بالمنابر المغربية على اسم هشام ويمنع ترديد اسم المنصور من خطب الجمعة، ويطرد سائر عمال المنصور من المغرب ويجليهم إلى سبتة بل ويعلن الاستقلال التام عن قرطبة [1]

وهنا جهز المنصور جيشا عظيما بقيادة فتاه (واضح) قائد الثغر الأوسط وامده بالأموال والذخائر... وعبر (واضح) البحر في قواته إلى طنجة وهناك انضمت اليه جموع غفيرة من المغاربة واحتدمت المعارك طوال ثلاثة أشهر لكنها انتهت بهزيمة القائد واضح الذي التجأ إلى طنجة مستصرخاً المنصور!

1) د. التازي : زيري ابن عطية وسياسته الخارجية، محاضرة بكلة الآداب بوجدة، مارس 1986.

ولأجل ما كان يوليه المنصور من أهمية لثورة زيري خرج بنفسه من قرطبة حتى الجزيرة الخضراء بالرغم مما كان يشكوه من داء النقرس حيث أشرف من هناك على حشد جيوش كثيفة سيرها عبر أسطول ضخم بقيادة ابنه عبد الملك نفسه... وقد استنفر زيري بدوره جميع بطون زناتة، ودارت بينهم حروب لم يسمع بمثلها قط [1]، وتمت الهزيمة هذه المرة بأحواز طنجة على جيوش زيري الذي فر إلى الصحراء مثخنا بالجروح التي أصابته من طعنات غلام أسود كان زيري قتل أخاه!

اقتحام عبد المالك العاصمة فاس 378=997

ودخل عبد الملك مدينة فاس ظافرا في نهاية شوال سنة 378=4 نونبر 997 وكتب إلى أبيه المنصور يبشره بالاستيلاء على العاصمة.

وتعبيرا عن البهجة في الأندلس تلى نص الكتاب علي منبر جامع الزهراء في قرطبة، وعلى منابر قواعد الأندلس كلها شرقا وغربا... واعتق المنصور زهاء ألفي مملوك ومملوكة شكرا لله... ووزع أموالا كثيرة على أهل الفقر وذوي الحاجات، وفيما كان عبد الملك المظفر ينتظر تهنئة والده المنصور بفتح مدينة فاس مترقباً مرسوم تقليده ولاية المدينة قام في جامع القرويين بتشييد المنبر الجديد : المنبر الأموي.

لقد اختفى منبر الصنوبر الذي أقامه العُبيديون الفاطميون بالأمس، وعوضه منبر من عود الأبنوس والعناب... وإذا كان العبيديون قد أغفلوا ذكر أسمائهم على ذروة ذلك المنبر، فإن هؤلاء الأمويين اليوم خلدوها في هذه الكلمات :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، هذا ما أمر بعمله الخليفة المنصور سيف الله عبد الله هشام المؤيد أطال الله بقاءه على يد حاجبه عبد الملك المظفر بن محمد المنصور بن أبي عامر وفقهم الله تعالى وذلك في سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة [2].

---

1) البيان المغرب 2، ص 282.

2) هذه رواية الجزنائي في زهرة الآس وهي التي تتفق مع تسلسل الأحداث التاريخية التي مرت بها البلاد. القرطاس 1، ص 166. د. التازي : جامع القرويين 1، ص 59، 63.

ولا شك أن عظم الفرحة أخذت بلب المظفر وهو يستمع من أعلى منبر القرويين الجديد يوم الجمعة منسلخ ذي القعدة 387=3دجنبر 997، يسمع اسمه واسم والده واسم الخليفة الأموي!

وكتب المنصور إلى ولده عبد الملك بعهده على المغرب، وعاد القائد واضح إلى قرطبة بالجيش «لكن عبد الملك لم يلبث أن عاد للأندلس بعد ستة أشهر مستخلفا صاحب الشرطة عيسى ابن سعيد القطاع الذي استمر إلى شهر صفر 389=يناير 999 حيث أقيل وخلفه القائد واضح...

عودة زيري لموالاة المنصور

وفي هذه الأثناء كان زيري بن عطية يجمع فلوله في قوات من زناتة، ولكن لا ليصارع قوات هشام المؤيد بالله بلْ ليزحف شرقا على بلاد صنهاجة، وينتزع من يد بادس بن منصور بُلُكين، مدينة تاهرت وتلمسان ويحاصر مدينة (أشير) قاعدة صنهاجة [1] معلنا في نفس الوقت عن دعوته للخليفة هشام.

وقد بعث بسفارة إلى المنصور -برئاسة الحاج دقاق والقاضي فتوح بن الأزرق- تؤكد التقرب والتعلق وتطلب الرضى ... وعفا المنصور عن خصمه السياسي بالأمس وأعاده لولاية المغرب بيد أنه لم يعمر طويلا فقد توفي 391=1001 متأثرا بتلك الجراح التي أصابته بالأمس. وخلفه في الولاية ابنه المعز فأقره المنصور على هذه التولية، ولبث المعز واليا للمنصور مقيما على دعوة بني أمية إلى أن اضطرب حبل الخلافة بالأندلس.

1) (أشير) مدينة في جبال البربر أسسها زيري بن مناد الصنهاجي، لما استقل بولاية الزاب سنة 324 وبني على جبلها حصناً منيعاً ليس إلي المتحصن به طريق الا من جهة واحدة... والي هذه المدينة ينتسب إمام أهل الحديث والفقه والأدب بحلب خاصة، والشام عامة، الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد الأشيري، استدعاه ابن هبيرة وزير المقتفى والمستنجد وطلبه من الملك العادل نور الدين محمد بن زنكي فسيره الله وقرأ له كتاب الايضاح في شرح معاني الصحاح بجضوره. البكري : ص 64 - ياقوت=المعجم ص 252 - القرطاس 1، 168.

وبعد وفاة المنصور ابن عامر عام 393=1003 حدا ابنه عبد الملك حذوه فيما يتعلق بالسياسة المغربية فظل مواليا لزناتة ومغراوة ومؤيدا للمعز بن زيري الذي لم يفته -وقد بلغته أخبار وفاة المنصور-أن بادر بإعلان الطاعة لعبد الملك، حيث تلقى عهدا مكتوبا على عَدْوَتَي فاس وكافة أقطار المغرب على أن يؤدي للمعز مقادير معينة من المال والخيل والدرق ويبعث بولده معنصر رهينة إلى قرطبة. وقد كان العقد مؤرخا بذي القعدة عام 397=يوليه-غشت 1007 [1]

واستمر المعز بن زيري وفيا لقرطبة كذلك أيام أخي عبد الملك عبد الرحمن الملقب بشنجول[2] الذي تولى سنة 399=أكتوبر 1008.

وهكذا نراه يبعث لشنجُول بسفارة هامة تحمل هدية عظيمة، فيها مائة وخمسون من عتاق الخيل... وقد تأثر عبد الرحمن لمبادرة حليفه المعز بن زيري فأحضر معنصر بن المعز الذي كان رهينة بقرطبة وخلع عليه وعلى السفراء الذين قدموا عليه بالهدية وأعاد به إلى والده مكرما...

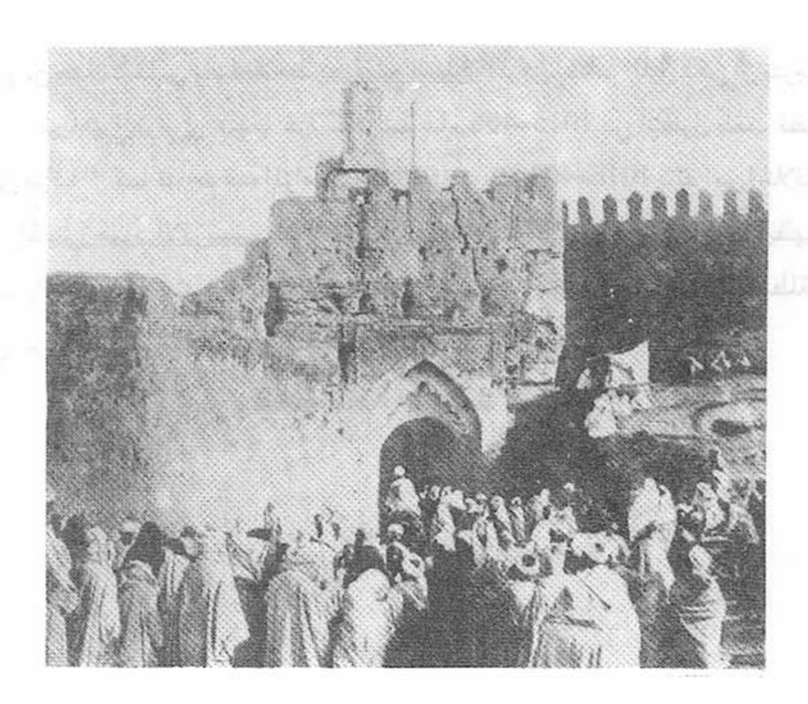
وقد وقع هذا الصنيع موقعا حسنا من المعز الذي اجتمع بولده بعد طول غياب... ولهذا نراه يجمع جل الخيول التي كانت توجد تحت تصرفه ويبعث به إلى قرطبة وكان مبلغها تسعمائة فرس. ولم تصل من المغرب إلى الأندلس هدية أعظم منها في تاريخ العلاقات بين المغرب والأندلس[3]

ولم يطرأ على الصلات بين البلدين ما يكدر صفوها وقد اشتغل كل منهما بأحداثه، فمن جهة المغرب استمر بنو مغراوة وبنو يفرن في منافساتهم، بل وتقاتل الاخوة من القبيلة الواحدة على امتلاك العاصمة فاس.

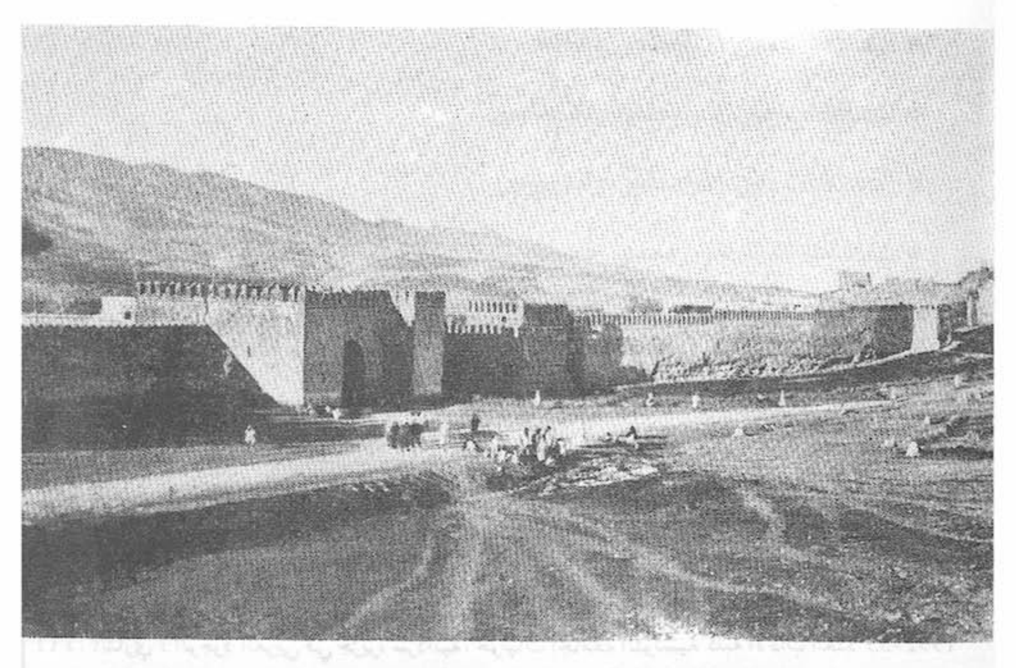
وهكذا عشنا في هذه الفترة (452=1060) أياما استبد فيها الأمير (الفتوح) بضفة الأندلسيين التي كانت تدعو له وجعل لها بابا يحمل اسمه، كما استبد الأمير (عجيسة) بضفة القرويين الني كانت تخطب باسمه ،جعل لها بابا يحمل اسمه.

---

1) مفاخر البربر : نشر ليفي بروفينصال، الرباط 1934 ص 40/39.
2) أتى لقب شنجول أو سانشول أو شانجة الصغير من أنه كان حفيدا لسانشوغرسيه ملك نافار، وكانت أمه حينما تزوجت المنصور اعتنقت الإسلام، وتسمت باسم (عبدة). عنان 2، 570.
3) روض القرطاس 1، ص 169-180-181



باب عجيسة من عدوة القيراونيين



باب الفتوح من عدوة الأندلسيين

ومن جهة الأندلس فإننا نلاحظ تضعضع السلطة المركزية الأمر الذي يمكن أن يترجم عنه ما تعرض له مجاهد العامري عندما غزا سردانية عام 406=1015 في اسطول بلغت قطعه مائة وعشرين مركبا [1] كما تترجم عنه المؤامرات التي انتهت سنة 407=1016 بانقراض الخلافة الأموية وقيام دولة بني حمود الادريسية علي ما قلنا في علاقات الأدارسة مع الأمويين، وبظهور ملوك الطوائف واستبداد كل منهم بجهة : بنو عباد في اشبيلية... وبنو ذي النون في طليطلة... وبنو هود في سرقسطة وبنو الأفطس في بطليوس، وبنو جهور في قرطبة...

1) د. التازي : الوجود العربي في جزيرة سردانية، حوليات الجامعة التونسية كلية الآداب العدد 33-1992

الباب الثالث

دولة المرابطين

- بداية المرابطين
- العلاقات بين المرابطين وغانة
- العلاقات بين المرابطين والأندلس
- العلاقات بين المرابطين والزيريين
- علاقات المرابطين ببني حماد
- بين المرابطين وصقلية والجمهوريات الساحلية
- بين المرابطين والبابا ...
- بين المرابطين والعباسيين في بغداد والفاطميين بالقاهرة

الفصل الأول

دولة المرابطين

- بداية المرابطين
- رباط عبد الله بن ياسين
- نجاح الدعوة الإسلامية
- توحيد البلاد على كلمة سواء
- معالم الدولة
- القضاء على البرغواطيين بالمغرب
- المرابطون وامبراطورية غانة
- الأسطول المرابطي
- الدينار المرابطي

دولة المرابطين

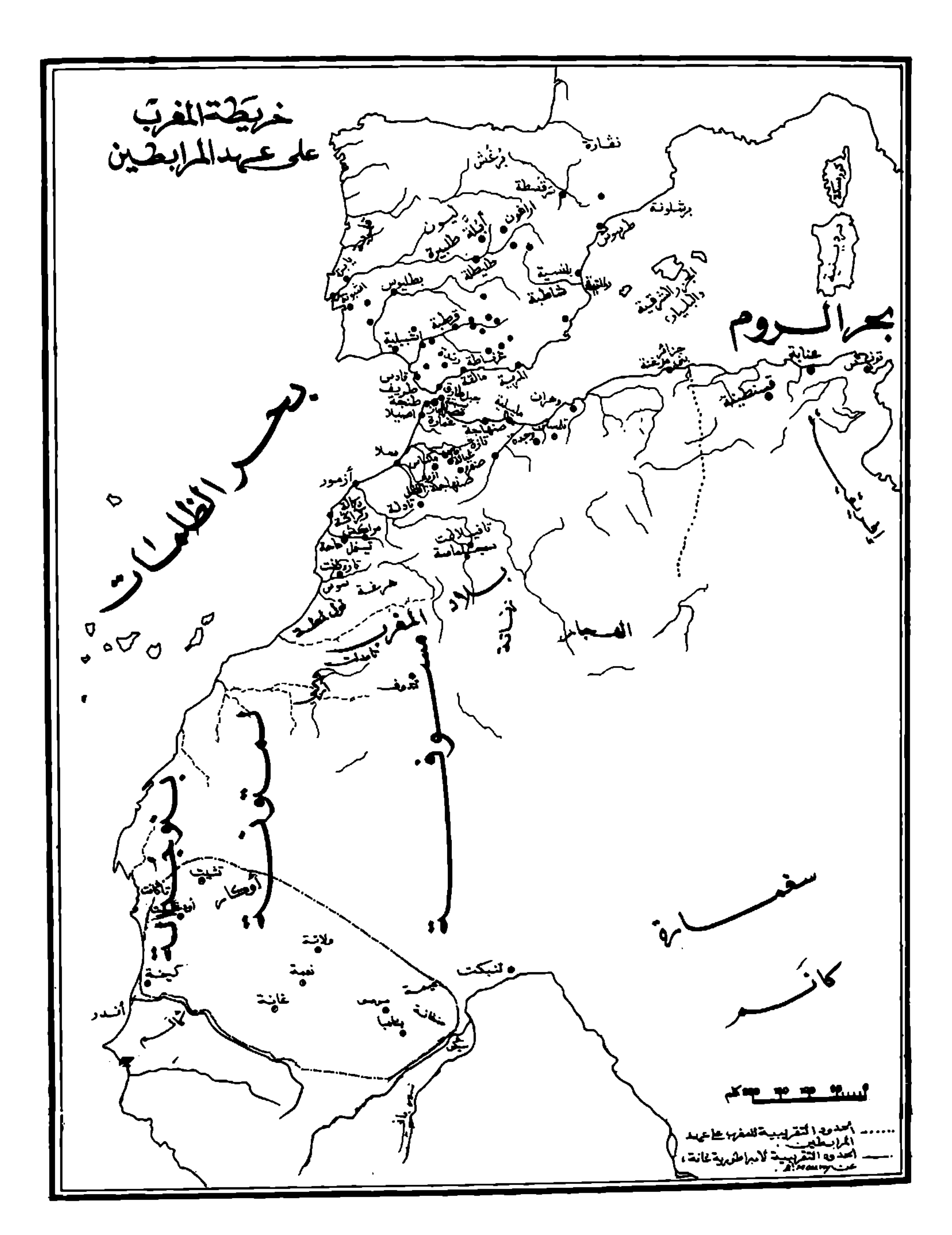
1147-1970 = 541-462

دولة المرابطين هي الدولة التي غيرت خريطة المغرب طولا وعرضا! فأين هي تلك الإمارات المتناثرة هنا وهناك في شرق البلاد وغربها ؟ وهل ما يزال هناك مطمع للذين كانوا يريدون القضاء على الدولة التي رسم الإمام إدريس ملامحها وخطط معالمها ؟

إننا هنا مع دولة استمرت نحوا من ثمانين سنة (من سنة 462 إلى 541 هجرية = 1070-1147م وامتدت شمالا حتى أروبا، وجنوبا نحو تخوم السودان وشرقا نحو المغرب الأوسط وغربا إلى المحيط الأطلسي ...

هؤلاء الصنهاجيون هم الذين استطاعوا أن يجمعوا المغرب على كلمة سواء، مذهبا وعقيدة وسلوكا وهدفا، وأن يرفعوا إسم الأمة المغربية عاليا مدويا في مختلف جهات المعمور، وقد أصبحت عاصمتهم مراكش محورا للإلتقاءات الدولية ومركزا أسهم في صنع تاريخ مجيد ظل رصيدا مشرفا يعطر أرجاء البلاد وزواياها عبر التاريخ ...

لقد كانوا أوفياء لخطوات طارق بن زياد في الأندلس، فأحيوا ماكاد يندثر من الوجود الإسلامي هناك، وكونوا لهم أسطولا لم يلبث أن أمسى سيد البحر المتوسط والأطلسي تحت قيادة الأميرال داواد ابن عائشة والرئيس علي ابن ميمون وغيرهما، واستقرت وحداته - على الخصوص -



خريطة المغرب على عهد المرابطين

في سبتة أو ألمرية أو في قادس .. وقد كان من أهم مؤسساتهم العسكرية لما عظم ملك يوسف بن تاشفين أنه ضم عام 470 = 1078 من جزولة ولمطة وقبائل زناتة ومصمودة جموعا كثيرةً أطلق عليها إسم (الحشم)[1] ...

وقد عكس ذلك النفوذ الذائع الصيت آثاره على المركز المالي المرموق الذي كان ينعم المرابطون به حتى لكانت القيمة النقدية لعملتهم في تصاعد مستمر، وتهافتَتْ على الدينار المرابطي (El Maravedi) دول البحر الأبيض المتوسط وإمارات إسبانيا بل وصل إلى القسطنطينية الأمر الذي يؤكد ما ذهب إليه المتخصصون في شؤون العملات القديمة من أنه أصبح العملة القوية التي تحكمت في أسواق العالم لفترة طويلة من الزمن [2].

وإذا ما حاولنا أن نستعرض العلاقات الخارجية لدولة المرابطين، فإننا نجد أنفسنا أمام الحديث عن صلاتنا بامبراطورية غانة، وعن العلاقات مع ممالك الأندلس ومع إمارة تونس وبني حماد ومع الخلافة في بغداد ومع حكام القاهرة، إضافة إلى الحديث عن الصلات بين المرابطين وبين بعض الممالك المطلة على المتوسط في الضفة المقابلة.

توحيد البلاد ...

لقد كان المرابطون حريصين كل الحرص -وهم يسعون لتوحيد أطراف البلاد وجمعها تحت راية واحدة - كانوا حريصين على أن لا يهرقوا دما ولا يروعوا أحدا لكنهم اصطدموا بمجموعة ظلت تتقوى عبر السنين الماضية، تلك إمارة برغواطة التي اتخذت من إقليم تامسنا وطنا لها وجعلت من مدينة آنفا عاصمة لها [3]

---

(1) الحلل الموشية لمؤرخ مجهول نشر وتصحيح يـ.سـ. علوش، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الجزء السادس 1936 دوزي (Dozy)

(2) د. التازي : التاريخ الديبلوماسي للمغرب ج 5 ص. 83-84

(1) الحسن بن الوزان : وصف إفريقيا ... ترجمة د. عبد الرحمن حميدة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1399، ص. 200.

لقد استعصت هذه المنطقة على من تقدموا، ولما ظهر المرابطون كانوا يعتقدون أن في استطاعتهم أن يصلوا عن طريق الحوار، إلى إيجاد صيغة للتفاهم مع هؤلاء القوم الذين لم يترددوا، على ما قدمنا، في إرسال سفرائهم إلي قرطبة للإتصال برجال الحكم هناك .. لكن الطموح المتزايد للبرغواطيين كان فوق أن يتنازلوا للجلوس مع المرابطين على مائدة واحدة ... !

وهكذا ففي الوقت الذي بعث فيها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بعدد من الرسل والعلماء إلى زعماء برغواطة أملا في تجنب الحروب بين الطرفين، وجدنا أن هؤلاء البرغواطيين يقدمون، في أنفا، على فعلة هزت من مشاعر المرابطين .. فلقد أجهزوا على السفراء الذين وصلوا إلي تامسنا من أجل التفارض.

وهنا جند المرابطون عددا ضخما من الرجال للإنتقام من قتلة السفراء .. وكان الصدام عنيفا ورهيبا، حتى لتحدثت الكتب عن هلاك نحو من مليون نسمة (كذا) من أتباع برغواطة كان فيهم حتى النساء والرضع، وغدا إقليم تامسنا بكامله مأوى للأسود والذئاب والبوم ! [1]

لو أننا حاولنا أن نرتب مراحل الإتصالات الخارجية لدولة المرابطين حسب التوقيت الزمني لكان علينا أن نذكر أن أول مملكة سجل المثلون لقاءهم معها هي امبراطورية غانة [2]

وينبغي أن نرجع لإفادة البكري عن غانة، وبمخطوطة جغرافية المامون [3]، ولا ننسى أن الخطاب الذي رفعه المرابطون إلى العباسيين ردد أصداء غانة وأنها بلاد معادن الذهب

رباط عبد الله ابن ياسين ...

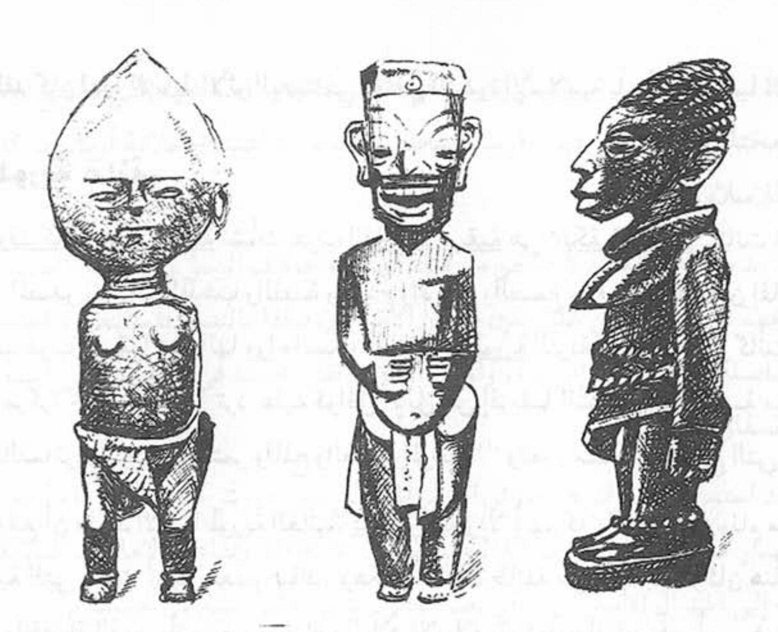
ولا مجال هنا لذكر تفاصيل الدعوة التي قام بها في الصحراء كل من عبد الله بن ياسين ويحيى بن إبراهيم الكدالي، إلى أن أقاما رباطهما في جزيرة على ضفاف المحيط الأطلسي، أو على النيل كما يُعبِّر ابن خلدون

---

(1) مارمول كربخال : إفريقيا، ترجمة محمد حجي، مكتب المعارف الرباط 1984 ص. 304-.404

(2) ينبغي أن نميز بين مملكة غانا القديمة تلك، وبين جمهورية غانة الساحلية الحديثة التي يبعد موقعها عن الأولى بآلاف الأميال فإن إسم غانا الحديثة إنما اقتبسه الرئيس نكروما من إسم غانة القديمة إحياء لذكرى تلك المملكة وتفاؤلا بعودة مجدها...

(3) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب 5 ص. 17-18.



نماذج من الدكاكير (ج. دگور) التي كانت تعبد (LES FETICHES)



من دكاكير متحف Brooklin نيويورك رقم 86

لقد كان لهذا الرباط الأثر البعيد في تغلغل الدعوة الإسلامية بأعماق إفريقيا السوداء ...

امبراطورية غانة

وقد كانت أشهر مملكة نشأت غرب القارة الإفريقية هي مملكة غانة التي كانت في العصور الوسطى المصدر الأساس للذهب والفضة والعاج والريش والصمغ والعبيد، وقد كان إنماء المبادلات بين جنوب غرب إفريقيا وشمالها وراء اتساع هذه الإمبراطورية الثرية الكبرى، التي كانت عاصمتها (غانة) مركزا تجاريا عظيما ترد عليه قوافل الإبل من إفريقيا الشمالية، وخاصة من المغرب، محملة بالقماش والنحاس والتمر والملح والعنبر والمرجان [1] وتعود مثقلة بالبضائع التي أسلفنا ...

ومع أن ملوك الإمبراطورية الغانية كانوا وثنيين إلا أنهم كانوا على شبه وئام مع الأقليات الإسلامية التي كانت توجد معهم هناك، وهكذا أنشئت طائفة من المساجد، وكان هناك عدد من العلماء والقضاة الذين يأتون من مختلف البلاد الإسلامية لتفقيه الناس في أمور دينهم ...

وفي ضمن الممالك التي كانت تدين لغانة مملكة أوداغُشت (Aoudaghost) البربرية التي تحدث ابن حوقل -كما أسلفنا- عن ازدهار التجارة في حاضرتها، الأمر الذي يدل على وفر المبادلات التجارية إذ ذاك بين المغرب وغانا ...

ولما كان المرابطون يشعرون بعبء الرسالة الملقاة على كاهلهم في مقاومة الوثنية بالمنطقة، فقد تاقوا إلى التمكن من أوداغُشت .. وقد استطاعوا بعد معارك ضاربة خاضوها مع حامية غانة أن يقتحموا المدينة سنة 447 = 1054، واستشهد الأمير يحيى ابن عمر اللمتوني في هذا القتال، فعهد عبد الله بن ياسين بالأمر إلى أخيه أبي بكر الذي قرر أن يتفرغ كلية إلى شؤون الصحراء والسوادين فاستخلف ابن عمه يوسف ابن تاشفين حوالي 452 = 1060 بالشمال وأقنع زوجته زينب بضرورة بقائها بالحاضرة بعيدة عن متاعب الصحراء ...!

(1) يتحدث الشريف الإدريسي عن (شجر) مرجان خليج سبتة الذي لا يعد له صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار.
الشريف الإدريسي : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق نشر دورزي ودي خوجي ليدن بمطبع أبريل سنة 1866.

وقد استطاع الأمير أبوبكر أن يتوغل في تلك الممالك وخاصة منها التي تخضع للامبراطورية غانة في مختلف جهات إفريقيا الغربية وسجلت التقديرات اعتناق ثلاثة أرباع سكان الغرب الإفريقي للإسلام.

ولا بد من ملاحظة أنه لا مناص من قيام الدعاة واختلاف الرسل وتبادل الخطابات والوفادات بين هذه الجهة أو تلك، ونحن على يقين من أن الأمر كان هكذا بالنسبة للمرابطين والغانيين أيضا، وهو وجهٌ للصلة بين المغرب وإفريقيا، ولو أن التاريخ ظل يخذلنا في الوقوف على أسماء السفراء وتواريخ السفارات ...

وقد استمرت المعارك بين جيوش الأمير المرابطي وبين جيوش ملك غانة زهاء أربع عشرة سنة انتهت بنهيار معظم الإمبراطورية الغانية سنة 469 = 1076 وتداعي الإمارات التابعة لها، ولو أنها أدت إلى اغتيال الأمير أبي بكر بعد حوالي اثنتي عشرة سنة من استسلام غانة ...

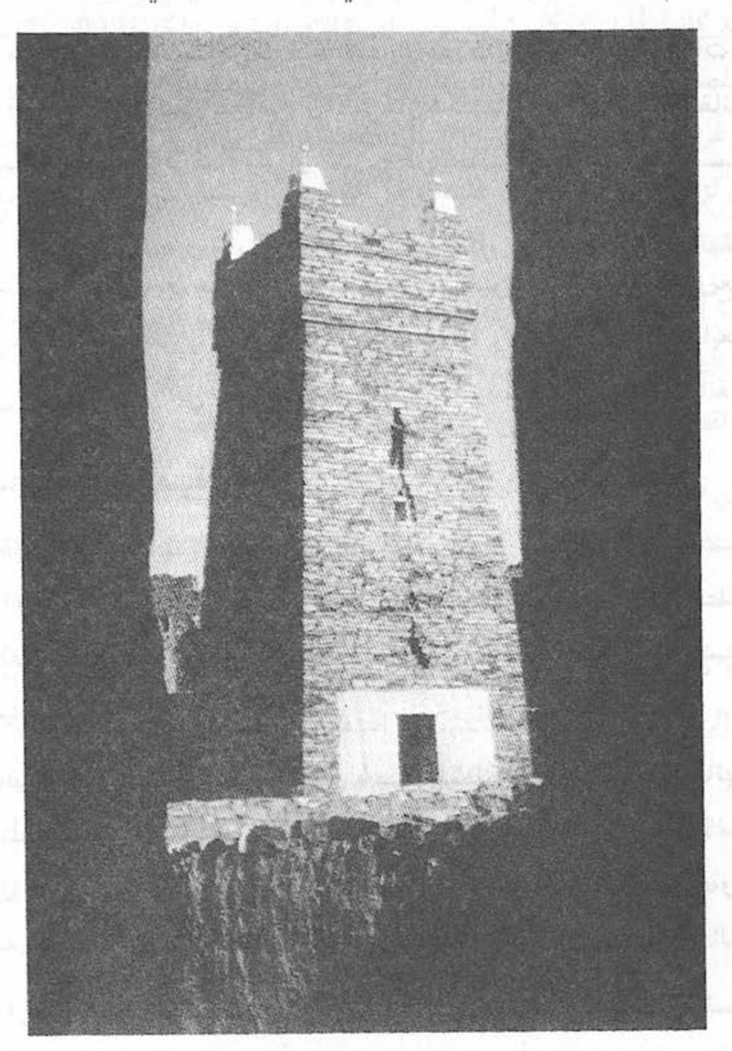
امتداد الدعوة الإسلامية

ومن خلال هذه الأحداث نلاحظ انتشار الدعوة الإسلامية على شكل واسع واعتناق الإسلام من طرف أمراء الأقطار التي كانت خاضعة لسيطرة ملك غانة الأمر الذي زاد من أنصار المرابطين بين مختلف القبائل فاكتسح الإسلام بذلك رقعة ممتدة الأطراف وقُضي على نفوذ الوثنيين في جميع الجهات المتبقية.

وقد أصبح معظم هؤلاء الغانيين الدرع الحصين للمملكة المغربية منذ احتضانهم للإسلام، فدافعوا عن المغرب وعن الإسلام دفاع الأبطال وانتقلوا نحو الشمال المغربي ليأخذوا مكانهم على ظهر الأسطول المغربي عبر بوغاز طارق حيث شاركوا في حركات الجهاد بالأندلس، وكانوا لأمير المسلمين قلعة منيعة

ولقد ارتبط تاريخ الجزائر الشرقية : (البليار) باسم معروف هو ابن غانية نسبة إلى أمه التي يقال إن اسمها يعود إلى غانة .. أي إنه ابن سيدة تعتبر أصلا من غانة .. وقد تحدث ابن خلدون عن حج ملوك هؤلاء الأفارقة : مذكرا بأن أول من حج منهم برمندانة، الذي قام بأداء مناسك الحج في نهاية القرن الخامس الهجري = أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ...

وستكون معلوماتنا أكثر دقة وأوفر فائدة حول التأثير المرابطي في أواسط إفريقيا عندما نقوم بدراسة بعض شواهد القبور التي ترجع للقرن الثاني عشر، والتي كتبت باللغة العربية، كذلك الأمر عندما تقوم بدراسة جيدة لبعض الأثار التي اكتشفت أخيرا في كاو [1]



مسجد شنقيط القديم مئذنة مربعة مغربية المعمار كانت أعاليها تزين ببيض النعام

The Golden Trade of the Moors, London 1958 P. 101 Note 1(1)

الفصل الثاني

- الوضع في الأندلس
- سفارة ملوك الطوائف لدى يوسف بن تاشفين
- الجواز الأول ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس
- استعمال الحمام الزاجل كوسيلة من وسائل البريد
- معركة الزلاقة وانهزام الفونس
- صدى النصر في مختلف الأرجاء

علاقة دولة المرابطين بالأندلس

لم تعد الأندلس كما كانت بالأمس تحت قيادة واحدة، ولكنها أمست بعد أيام العامريين، موزعة بين إمارات متنافسة في البداية، متقاتلة في النهاية! وهكذا في الوقت الذي تتفاهم فيه قشتالة ونافارة تحت قيادة ألفونس السادس ملك قشتالة وحليفه سانشو الثاني ملك أراغون، في ذلك الوقت يتوزع الأندلسَ "ملوكُ الطوائف" ! ولم يعد من الصعب أنئذ على ألفونس أن ينتزع طليطلة من يد يحيى بن ذي النون، ثم يهدد سرقسطة وصاحبها ابن هود وبعدها بطليوس، ويطالب المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية بتسليم بعض الحصون ... [1] ! ولم يلبث ملوك الطوائف أن تراسلوا فيما بينهم حول ما ينبغي أن يقوموا به، لكنهم إزاء هاجس الخوف من هيمنة يوسف بن تاشفين ووقع اتفاقهم على مراسلته يخبرونه بعدم الحاجة إلى مساعدته ويؤكدون له مودتهم وأنهم معه على وفاق، ولكن من بعيد !!

ولقد أتى المقري صاحب نفح الطيب بنبذة من رسالة هؤلاء الملوك إلى يوسف[2]

---

(1) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد 1971، ص. 103.

(2) المقري : نفح الطيب، تحقيق د. إحسان عباس دار صادر، بيروت، مجلد 4، ص. 355.

ولقد أمسى على المعتمد -بناء على معاهدةٍ مع ألفونس- أن يؤدي جزية سنوية باهظة في مقابلة أن يقوم ملك قشتالة بمعاونته، أي المعتمد، في حروبه ضد سائر أعدائه من الأمراء المسلمين! وحدث أن تأخر المعتمد في دفع الضريبة ذات مرة فأرسل ألفونسو وفادته سنة 475 (يونيه 1082 - مايه 1083) إلى المعتمد يطلب الجزية، وكان على رأس الوفادة سفيره ومعه كذلك يهودي يدعى ابن شاليب بينما رابط عسكر ملك قشتالة بظاهر المدينة، فأرسل إليهم المعتمد المال مع بعض أشياخ المدينة، وفي مقدمتهم الوزير الشهير ابن زيدون، فلما شاهد ابن شاليب المال والسبائك، رفض تسلمها بغلظة بحجة أنها من عيار زائف! فلما بلغت المعتمد أصداء ذلك الحدث، بعث رجاله - على ما تقوله بعض الروايات - فقبضوا على ابن شاليب ومن معه من الفرسان القشتاليين وأمر باليهودي فصلب، وأودع الفرسان النصارى في السجن! ولما علم ملك قشتالة بما وقع لسفرائه اضطر أن يرد (حصن المدور) القريب من قرطبة إلى المعتمد ثمنا لافتداء سفرائه، بيد أنه أقسم أن ينتقم من المعتمد أبشع انتقام حيث بعث سرياته فعاثت في الأحواز. وسار يحرق القرى وينتسف الزرع.. حتى وصل إلى مدينة طريف...

ويدل على تردي العلاقات الإسلامية المسيحية -سنة فقط بعد الإستيلاء على طليطلة من لدن ألفونسو السادس عام 479 = 1086 ما نقرأه في الرسائل المتبادلة باللغة العربية بين ألفونسو السادس من جهة وبين بعض أولئك الملوك من جهة أخرى، وهي تعبر عن تصاعد الأزمة يوما عن يوم بما تحتويه من عبارات التهديد والشتم الرخيص ...

سفارة ملوك الطوائف لدى يوسف بن تاشفين

لقد كانت السفارة تتألف من شخصيات ذات انتماءات مختلفة حتى تعبر عن وجهة النظر الأندلسية بجميع ما تضمه من أمراء وفقهاء وزعماء، وهكذا بعث المعتمد بن عباد وزميلاه ابن الأفطس صاحب بطليوس، وابن بُلُقين صاحب غرناطة وفادتهم الرسمية إلى أمير المسلمين مؤلفةً من الشخصيات التالية : أبي بكر عبيد الله بن أدهم قاضي قرطبة، وأبي إسحاق ابن ماقانا قاضي بطليوس، وأبي جعفر القليعي قاضي غرناطة، وناب عن المعتمد وزيره أبو بكر بن زيدون، وفي رواية لابن بسام : أبو بكر بن القصيرة الكاتب.

وهنا تختلف الروايات في التفاصيل، فتقول رواية ذكرها عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب وذكرها ابن عذاري في البيان المغرب، إن المعتمد ابن عباد نفسه قد عبر البحر في جماعة من الزعماء وسار إلى مراكش [1] حيث تم احتماع قمة تحدث فيه العاهلان عما ينتظرهما من خطوات . . .

ولعل من الإنصاف أن نذكر هنا ما ترددت حكايته من أن قرار المعتمد بإرسال هذه السفارة لم يصدر بسهولة، فقد تعرض لمعارضة شديدة من ابنه الرشيد مع جماعة من زعماء إشبيلية، كانوا ينصحون إليه بأن يقوم بمحاولات جديدة للتفاهم مع ملك قشتالة وإبرام صلح معه، كيفما كان الثمن، مخوفين المعتمد من مضاعفات الاستنجاد بالمرابطين وأنهم قد يسلبون ملكه ! -ولكن المعتمد- وقد كان يدرك جيدا الوضع السائد - وجد نفسه أمام اختيارين فإما أن يذعن للقشتاليين ويرضى بإمارة قد تنتهي إلى أن يصبح عبدا لالفونسو. . ! وإما أن يمد يده لإخوته ويقبل سائر الإحتمالات الممكنة، وهنا سجلت عليه كلمته الوطنية الرائعة : "والله لا يسمع عني أبدا أنني أعدت الأندلس دار كفر فتقوم على اللعنة في منابر الإسلام . . . رعي الجمال عندي والله خير من رعي الخنازير"

يعني أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً يرعى جماله في الصحراء خير من كونه مغلوبا للاذفونش أسيرا له يرعى خنازيره في قشتاله ! [2]

ولقد وقعت في هذه الأثناء بين ابن عباد وبين أمير المسلمين عدد من المشاورات والمكاتبات على ما نجده في المصادر التاريخية، [3] لقد كتب المعتمد بتاريخ فاتح جمادى الأولى 478 = 25 غشت 1085 : "ونحن، أهل هذه الأندلس، ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره أو أخيه . . . وقد ساءت الأحوال وانقطعت الامال -وأنت أيدك الله- سيد حمير وملكها الأكبر وأميرها وزعيمها نزعت بمهمتي إليكم واستنصرت بالله وبكم". . .

---

(1) لا يدرى هل أن المعتمد نزل بسبتة وأخذ طريق البر مارا بفاس مثلا، أم إنه أخذ الطريق البحري من سواحل الأندلس إلى ميناء في الجنوب المغربي حيث أخذ طريقه من هذا الميناء لمراكش.

(2) المقري : نفح الطيب ج 4 ص. 159.

(3) الحلل الموشية : ص. 32-33. التاريخ الدبلوماسي للمغرب 5، ص. 53-54.

وكان من رسالة أخرى : "وقد جاءنا إبراق العدو وارعاده، ووعده وإيعاده لنسلم له المنابر والصوامع، والمحارب والجوامع ليقيم بها الصلبان، ويستنيب بها الرهبان..."

وكان من رسائل استصراخ ابن الأفطس أمير بطليوس (Badajoz) " ... لما كان نور الهدى -أيدك الله- دليلك وسبيل الخير سبيلك ... وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعي لما أعضل من الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء..."

تلبية المرابطين لنداء الأندلس

لقد جمع العاهل المرابطي كبار قومه للتشاور فكان من رأيهم أن لا نفرط في الجار وبيننا وبينه ساقية ماء ! وقد كان من أكابر العلماء الذين أفتوا بضرورة التدخل أبو الحجاج يوسف الملقب بالمجوم [1] ... وهكذا نجد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يبعث بوفادة إلى المعتمد بن عباد، لتطلب أن يجعل الجزيرة الخضراء تحت تصرف المرابطين على ما يوخذ من الرسالة التي حملتها السفارة المغربية إلى المعتمد :

"... فنحن يمين لشمالك، ومبادرون لنصرتك وحمايتك ... وإنه لا يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا... [2]"

وقد أذن المعتمد بن عباد لابنه بإخلاء مدينة الجزيرة الخضراء وحينئذ عبر أبو سليمان داود بن عاشة قائد الأسطول المرابطي للإطلاع على الأحوال إلى أن تم العبور النهائي. [3]

ويذكر كتاب (الحلل الموشية) وكذا شهاب الدين الحلبي (ت 7725 = 1324) في كتابه : "حسن الترسل" أن ألفونسو خاطب الأمير يوسف بن تاشفين برسالة استفزازية، ولكن من غير أن يذكر الطريق الذي بعث به هذه الرسالة :

---

(1) د. التازي : جامع القرويين ج I ص. 159-159.

(2) الحلل الموشية 37/36.

(3) A. Huici Miranda : L'invasion de Los Almoravidines : y. La batalla de Zalaca, Hesp. 1953 T. XII er-2ème tr. PP. 17-76

" ... وقد علمتم ما عليه رؤساء جزيرة الأندلس من التخاذل والتواكل ... وأنا أسومهم الخسف وأخلي منهم الديار ... ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم، وأنتم تعتقدون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ..." [1]

ويذكر صاحب الحلل الموشية هنا أن أمير المسلمين أمر أن يكتفي بجواب ألفونس على ظهر رسالته، بهذه الكلمة : "الجواب يا أدفنش ما تراه لا ما تسمعه إن شاء الله" [2]!!

الجواز الأول ليوسف بن تاشفين

وفي ضحى يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة 479 هـ (30 يونيه 1086) عبر العاهل المغربي البوغاز في بقية قواته، ويظهر أن أمير المسلمين الذي يركب البحر لأول مرة في حياته شعر باضطراب البحر وتعالي الأمواج فتوجه نحو السماء يقول : "اللهم إن كنت تعلم أن جوازنا هذا خير للمسلمين فسهل علينا جواز البحر ... " [3]

وقد قرأنا أن الأمير الراضي بن المعتمد بن عباد وواليه على الجزيرة الخضراء كتب إلى والده رسالة ربطها في جناح حمامة[4] وأطلقها صوب إشبيلية مخبرا بأنه ينتظر تلقي الأوامر التي لم تلبث أن وصلت إليه بتسهيل مهمة الواردين الجدد ...

(1) الحلل الموشية : 29-30. شهاب الدين الحلبي : كتاب حسن التوسل -القاهرة 1298=1880 ص 4.

(2) الحلل الموشية ص. 28-29-30.

(3) ابن أبي زرع : الأندلس المطرب بروض القرطاس تحرير وتعليق محمد الهاشمي الفيلالي، الرباط.

(4) كانت هذه أول إشارة - على ما يبدو - في المصادر المغربية لاستعمال الحمام الزاجل في البريد ... وسنرى أنها وسيلة ستتجدد مباشرة بعد الانتصار الذي أحرز عليه المسلمون في وقعة الزلاقة ومن المعلوم أن خلفاء بني العباس اعتنوا بالحمام الزاجل وخاصة المهدي ثالث الخلفاء، وقد تنافس فيه رؤساء الناس في العراق ولا سيما بالبصرة، لكن السلطان الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام كان أول من اعتنى به عام 565 = 1170 وذلك لتسهيل الاتصال بمختلف المواقع والحصون أيام الحروب الصليبية، وقد حافظ الفاطميُّون بمصر على هذا الفن حتى أفردوا له ديواناً خاصا وجرائد بأنساب الحمام ... صبح الأعشى ص 389-390 ... ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، للعلامة دوزي مترجمة بقلم كامل كيلاني، الطبعة الأولى، القاهرة، 1933-1351 ص. 290/291.

ولما اقترب يوسف من إشبيلية خرج المعتمد إلى لقائه في وجوه أصحابه وفرسانه، وتعانق الملكان وعقدا احتماع قمة بينهما، وفي اليوم التالي دخل أمير المسلمين الى اشبيلية تلاحقه قواته، وقد كان كتب في هذه الاثناء الى سائر ملوك الطوائف يدعوهم الى اللحاق به ... وانتهت الجيوش الاسلامية المتحدة الى سهل يقع شمالي بطليوس الذي تسميه الرواية العربية بالزلاقة، بينما يعرف عند الاسبانيين بـ : صاكرا خاس (Sacrajas).

معركة الزلاقة 479 = 1086

وقف الجيشان كل منهما تجاه الآخر : ثمانون ألف مقاتل من الجانب المسيحي وثمانية وأربعون ألفا من الجانب الاسلامي. وطوال أيام ثلاثة، ظل السفراء يترددون بين الطرفين يتبادلون رسائل التهديد والوعيد [1].

والتقى الجيشان يوم الجمعة 12 رجب 479 (23 أكتوبر 1086) وكانت المعركة العظمى التي تم النصر الكبير فيها للمرابطين فضمنوا بذلك الوجود الإسلامي بالأندلس بضعة قرون أخرى...

وقد سجل الأدباء هذه الموقعة في عدد من القطع الشعرية تعتبر بدورها مصدرا من مصادر تاريخ العلاقات بين المغرب والأندلس [2].

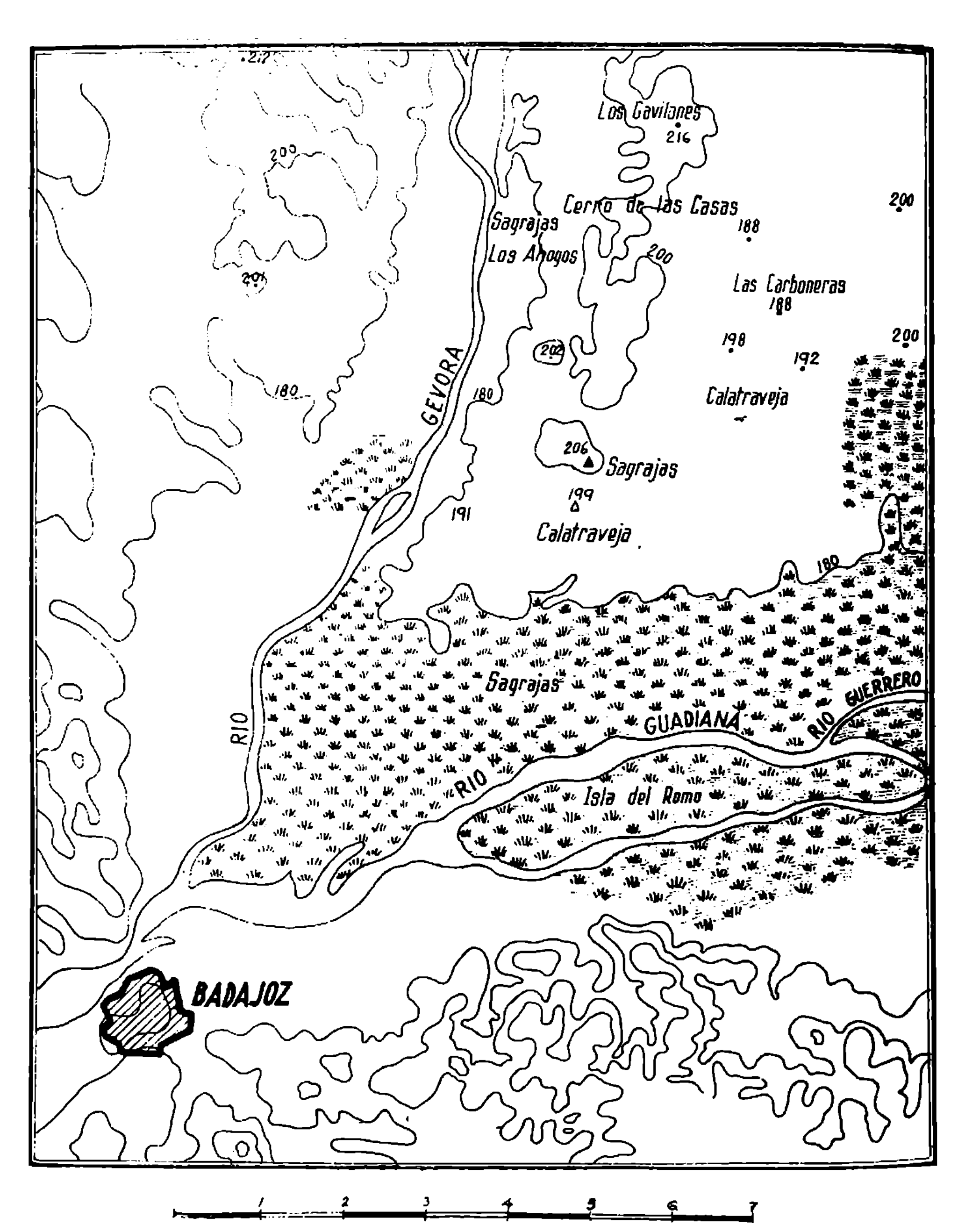
ولقد استطاع أحد المقاتلين من الأفارقة السود أن ينفذ إلى قلب المعمعة وأن يطعن ألفونسو ملك قشتالة في فخذه فيبث بذلك الإضطراب والرعب في البقية الباقية من الجيش القشتالي على نحو ما ورد في خطاب الفتح الرسمي الذي بعث به أمير المسلمين إلى بلاد المغرب بهذه المناسبة وكان يحمل تاريخ 12 رجب 479 = 23 أكتوبر 1086 :

---

(1) الحلل الموشية.

(2) ابن بسام : الذخيرة، القسم الثاني المجلد الأول ص. 247.

(3) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ج 2 ص. 62 وما بعدها



حيث وقعت معركة الزلاقة (هيسبريس 1953)

"... وانقضّت جيوش المسلمين على جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته ... ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج ... وولى ألفونس مطعونا في إحدى ركبته طعنةً أفقدته إحدى ساقيه إضافة إلى المئات ممّن قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل ..."

صدى النصر في مختلف الأرجاء

وقد تهافت الأمراء والزعماء على الورق لكتابة الرسائل المبشّرة، كل إلى جهته ... وكان من الرسائل السريعة التي طيرت رسالةً علقت إلى جناح حمام زاجل كان المعتمد حمله معه خصيصا لمثل هذه المناسبة [1].

تم ذلك عند الزوال من يوم الجمعة ... فكان الناس بإشبيلية أقنط ما يكونون في ذلك اليوم، فوصل الحمام في يومه، وقرأت الرسالة على الناس بمسجد إشبيلية فعم السرور وكثر الدعاء.!!

ولم تكن "برقية" المعتمد بن عباد وحدها التي راحت مع الحمام، فقد أورد ابن بسام رقعة قال : "إنها وردت على الجناح، تخبر بهزيمة الطاغية أذفونش قصمه الله يوم الجمعة المشهور (12 رجب 479) على يدي أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين [2].

وقد كان مما سجله التاريخ رسالة لأبي عبيد البكري مرفوعة إلى المعتمد ابن عباد تهنئه بهذا الفتح المبين [3].

---

(1) ثاني إشارة في المصادر المغربية لاستعمال الحمام الزاجل في البريد على ما قلنا في تعليق سابق.

(2) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني المجلد الأول، تحقيق د. إحسان عباس 1398=1978، 241.

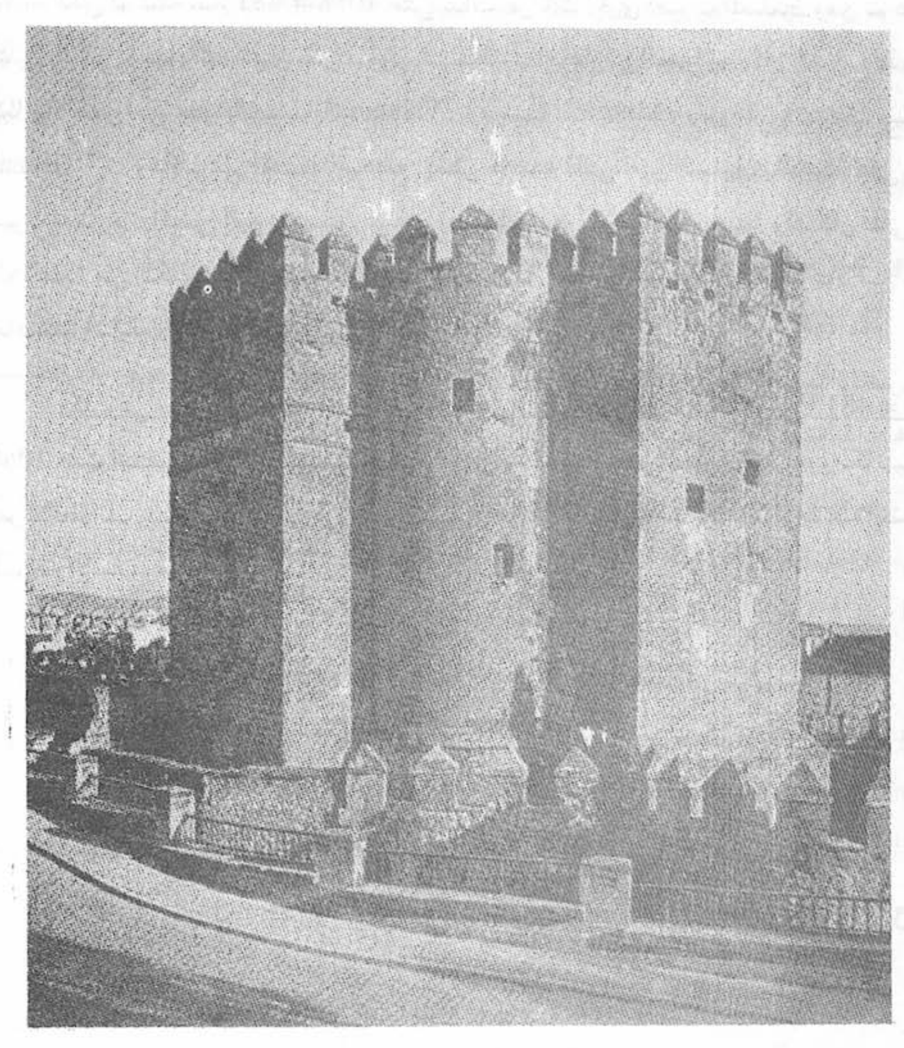
(3) الذخيرة : 1 ق 2 ج ص. 237 نهاية الأدب 5، 148.

لكن لم تنته سنة 481 = 1088 حتى بدأت حركات أخرى لضرب المسلمين ومن تم عادت كتب الأندلس وسفاراتهم تترى على المغرب لتستجير بالعاهل من العدوان، وكان الصريخ هذه المرة آتيا بالأخص من أهل بلنسية (Valancia) ومرسية (Murcia) ولورقة (Lorca) وبسطة (Baza)[1].. وهكذا عبر المعتمد البحر مع بعض خاصته فلقى أمير المسلمين بالدتملة على وادي سبو بالمعمورة وأفضى إليه بملتمسه، فوعده أمير المسلمين بالإستجابة، سيما وقد كان تلقى قبل ذلك عددا من المكاتيب من فقهاء الأندلس وأعيانها يشرحون ما يلحقهم. وقد عاد ابن عباد لعاصمته إشبيلية بعد أن اطمأن لوعود أمير المسلمين ...

وقد وفي يوسف بالتزامه وعبر إلى الجزيرة مرةً ثانية في شهر ربيع الأول [2] 481 = يوليه 1088 حيث استقبله بالجزيرة المعتمد بن عباد ، ومن هناك أنفذ أمير المسلمين سفراءه ومكاتيبه إلى ملوك الطوائف يدعوهم إلى ضواحي حصن لييط (Aledo) الذي كانت قشتالة توجه منه الضربات للمواقع الإسلامية.

(1) الحلل الموشية 54-55

(2) هذه تقديرات روض القرطاس



القلعة الحرة بقرطبة

الفصل الثالث

- الجواز الثالث إلى الأندلس لتصفية ملوك الطوائف
- المرابطون ومملكة بني هود في سرقسطة
- تقرير الفقهاء وجواب الأمير علي بن يوسف
- جواز الأمير للأندلس ومعركة الكونتات السبعة
- الجواز الثاني للأمير وطموحه إلى استرجاع طليطلة

الجواز الثالث لتصفية ملوك الطوائف! 483 = 1090

ولم يمض عام آخر حتى أعد يوسف بن تاشفين عدته للجواز إلى الأندلس مرة ثالثة، وكان ذلك أوائل سنة 483 = 1090، وخلافا لما كان عليه الحال في المناسبتين الماضيتين، فإن الإلتحاق بالأندلس كان هذه المرة بغير دعوة!، ولكن لضم إقليم الأندلس إلى الأمبراطورية المغربية !!

لقد أبلغ يوسف -علاوة على ما كان يعرفه عن الأحوال بالأندلس- أن بعض ملوك الطوائف لم يتردد في ممالأة ألفونسو ملك قشتالة أن أولئك الملوك أخذوا يستسلمون أمام قشتالة الواحد تلو الآخر .. متنكّرين بعضهم لبعض[1]!

وقد أقدم يوسف ابن تاشفين على مبادرته تلك بعد مشاورات مع الزعماء والفقهاء سواء في المغرب أو في الأندلس، فقد تلقى عدة فتاوي تبرر خلع أولئك الملوك وانتزاع الأمر من يدهم إبقاء على الوجود الإسلامي بتلك الديار بل وحفاظا على سلامة المغرب ذاته!

وقد اعتمد العاهل المغربي كذلك على رأي عدد من علماء المشرق حول هذا الموضوع على ما سنرى بمناسبة الحديث عن سفارة الإمام ابن العربي إلى بغداد ...

وعندما اقترب يوسف من أهدافه بالجزيرة، أدرك بعض الأمراء ضرورة إلقاء السلاح، وهنا نلاحظ عددًا من السفارات تحمل معها رسائل رؤسائها مبدية استعدادها لتنفيذ الأمر الذي ورد لأجله أمير المسلمين، وكان في صدر أولئك الأمير عبد الله بن بُلُقين صاحب غرناطة الذي استسلم يوم 10 رجب 483 = شتنبر 1090.

وشعر المعتمد بخطورة هذا النذير ولم تلبث العلاقات أن ساءت بينه وبين أمير المسلمين بسرعة، ولم تلبث العاصمة اشبيلية أن سقطت في يد المرابطين يوم الأحد 22 رجب 484 = 7 شتنبر 1091 .. ونقل المعتمد وأسرته إلى (أغمات) العلى مقربة من مدينة مراكش قاعدة يوسف بن تاشفين.

---

(1) تاريخ ابن الكردبوس تحقيق الدكتور العبادي ص. 88.





الدّينار المرابطي :

نقش على الوجه وسطا : لا إله إلا الله محمد رسول الله أمير المؤمنين علي بن يوسف

ونقش على المحيط : ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين

ونقش في الخلف وسطا : الإمام عبد الله أمير المؤمنين

ونقش على المحيط : بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بمرسية سنة أربع وخمسمائة.



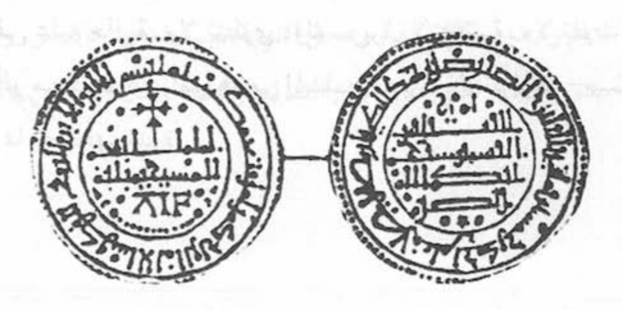

عملة ذهبية مرابطية تحمل إسم الأمير إبراهيم بن أبي بكر ضربت بسجلماسة بتاريخ 462 هـ




الدنانير المرابطية في عدن

"قال كاتب هذه الأحرف : دخلت عدن سنة 540 وكان العميد بها بلال بن جرير والمشرف عليه خالي أحمد بن غياث من قبل سلطانها محمد بن سبأ وكان ضمان عشر المراكب فحسب مائة ألف وأربعة عشر **ألف دينار مرابطية**، وهذا أكثر مما ذكره مصنف الكتاب بأضعاف ...

في ذيل لكتاب المسالك والممالك لأبي القاسم ابن حوقل



تقليد «الدينار المرابطي» من طرف ألفونسو الثامن، عملة ذهبية (بالمتحف البريطاني)

المرابطون ومملكة بني هود

ولم تبق بالأندلس ولاية مستقلة إلا مملكة بني هود في سرقسطة، ويرجع السبب في ذلك لكون المستعين بالله بن هود، أقام بشرق الأندلس فلم تدخل بينه وبين أمير المسلمين داخلة، هذا إلى ما ظل محتفظا به من عادة مكاتبة العاهل المغربي وإرسال السفارات لديه ومهاداته باستمرار. وقد قال له في إحدى المكاتبات : "ونحن بينكم وبين العدو سد لا يصل إليكم منه ضرر ما دامت فينا عين تطرف، وقد قنعنا بمسالمتكم، فاقنعوا منابها إلى ما نعنيكم به من نفيس الذخائر ..."[1]

فعلا وجه ابن هود إلى يوسف بن تاشفين ابنه عماد الدولة أبا مروان عبد الملك، على رأس سفارة ضمت الوزير أبا الأصبغ وأبا عامر وبعث صحبتها بهدية جليلة منها أربعة عشر ربعة من آنية الفضة مطرزة باسم ابن هود، فأمر يوسف بن تاشفين بضربها قراريط ووزعها ليلة عيد النحر في طبقات المرابطين! وقد أجابه يوسف بن تاشفين إلى ما أراد على ما يؤكده الخطاب المرفوع إلى سرقسطة ... [2]

جواب الأمير علي بن يوسف على التقرير الذي رفعه الفقهاء

وفي إطار الإتصال المستمر بمراكش وجدنا رسالة أنشأها الكاتب ابن القصيرة بحضرة مراكش بتاريخ آخر ذي الحجة 499 = 1 شتنبر 1106 وقد وجهت عن الأمير علي بن يوسف قبل وفاة والده بيوم واحد.. لقد كانت جوابا عن الخطاب الذي حمله إلى أمير المسلمين عدد من الفقهاء الأندلسيين أطلعوا العاهل المغربي على أحوال ذلك الجزء من الامبراطورية الموحدية : "... ويعلم الله الذي لا تخفى عليه خافية، ولا تنطوي دونه سريرة ولا علانية، ولا تفوت إحاطته قاصية ولا دانية - أنا لا نألو من قلدنا الله أمورهم من المسلمين نصرة، ولا ندخرهم -حيث كانوا- نظرا فيما يحوطهم وعملا بما يصلحهم قدرة ..."

---

(1) تاريخ ابن الكردبوس 113- الحلل الموشية ص. 60.

(2) A. Huici Mirand A Un Frangmento inédito de Ibn IDARI sobre Los Almoravides, Hesp. Tamuda, 1961 P.63.

ويلاحظ أن الحديث عن أمثال هذه الوفادات قد تكرر في عدد من الرسائل المرابطية مما يدل على أن اهتمام أمراء المرابطين بالأندل لم ينقطع طوال عهدهم حتى في الوقت الذي اضطربت فيه الأحوال هنا وهناك.

جواز الأمير للأندلس ومعركة الكونتات السبعة .... 501 = 1108

واستمر الحال أيام أمير المسلمين علي بن يوسف تقريباً على ما كان أيام والده يوسف، حيث تم تحقيق عدد من الفتوحات كان في أبرزها افتتاح قلعة أقليش (Ucles) المنيعة حيث وجدنا الأمير علياً بن يوسف يضرب حصاره الشديد عليها، الأمر الذي جعل ألفونو السادس -وقد حالت الشيخوخة دون حضوره بنفسه -يبعث بابنه الوحيد مانشو الذي سقط في المعركة وسقط معه في الميدان زهاء عشرين ألفا من المقاتلين وسبعة من كونتات قشتالة، ولذلك تسمى هذه المعركة أيضا بموقعة "الكونتات السبعة (Batalla de los Sieta condes)"

لقد اعتبر بعض المؤرخين انتصار المرابطين في أقليش يوم 16 شوال 501 = 29 مايه 1108 قمة لأيامهم في الأندلس لأن المعركة فعلا كانت على نحو معركة الزلاقة ... [1]

وهذا خطاب الوزير ابن شرف عن بعض رؤساء الغرب إلى أمير المسلمين رحمه الله في فتح أقليش وهو منقول عن مخطوط بالأرشيف الإسباني يقول فيه من جملة ما يقول : "... وجئنا بكل ضرب من الحرب، نخسف عاليها وننسف هاويها، ونلزها بالرماح، ونهزها هز الغصن في أيدي الرياح، حتى فض الختام وعض منه الابهام، وعجل الله بالنصر وفتحها بالقسر، ونفخ في صورهم، ودارت دائرة السوء بدورهم ... حتى علا على الشرك الإيمان، وبدل الناقوس بالأذان، وزحزحت

(1) حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي : مجلة كلية الآداب، القاهرة مجلد 11 جزء 2، دجنبر 1949 - مجلة تطوان سنة 1957، العدد الثاني ص. 115/130 - جزء من كتاب نظم الجمان لابن القطان تحقيق د. محمود علي مكي بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ص 6/7 مع التعاليق ... مارمول كربخال : إفريقيا، ج الأول ترجمة جماعة من الأساتذة، الرباط 1984 ص. 313.

الهياكل عن موضعها، وطرحت النواقيس عن بيعها ... ومات جلهم بل كلهم، وما نجا إلا أقلهم وحانوا فبانوا، وقيل كانوا ثم أمرت بجمع الرؤوس، فاحتيزت الدانية وزهد في جمع النائية، فكان مبلغها نيفا على ثلاثة آلاف، منهم قواد بلاد طليطلة، وأكابر لم يكمل الآن البحث عنهم، فكانت كالهضب الجسم، بل الطود العظيم، وأذن عليها المؤذنون، يوحدون الله ويكبرون ... [1]

وبالرغم من كساد سوق الشعراء بالنسبة للفقهاء ! فقد سجلنا بعض الشعر مما قيل حول هذه الأحداث الجارية، ومن ذلك قول الأعمى التطيلي يمدح أحد أبطال موقعة أقليش :

سل الروم في أقليش يوم تجايشوا * ألم يعلموا أن الفرائس للأسد
تباروا إلى تلك الحتوف فسَلْهُم * أما كان عنها من محيص ولابدٍّ

ومن شعره أيضا في بطل آخر من أقليش :

وصبحت أقليش في جحفل * أغص الوهاد وآد الرعانا
بكل كمي يروع الأسود * خماصا، ويرعى عليها بطانا

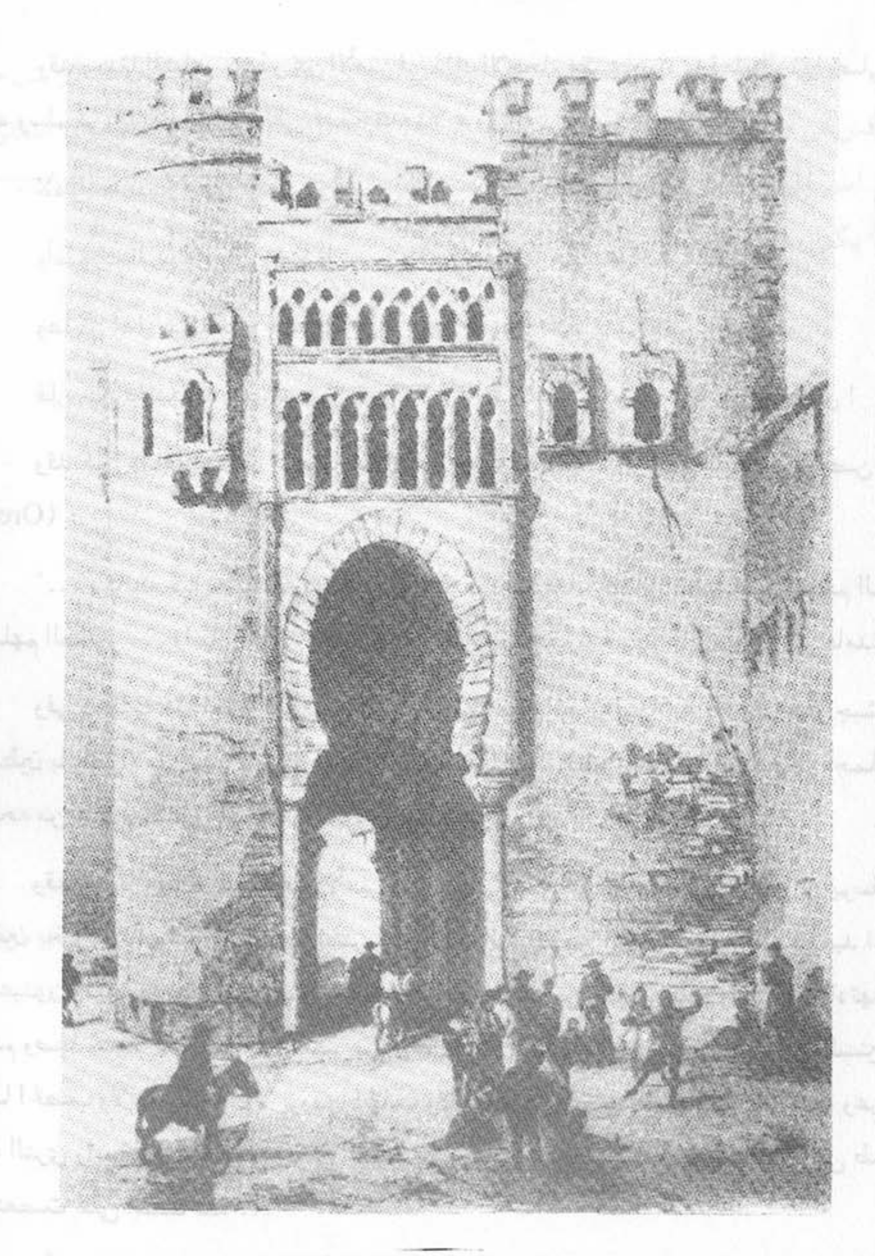
الجواز الثاني للأمير وطموحه لاسترجاع طليطلة

لقد سار الجيش المرابطي هذه المرة صوب طليطلة عاصمة مملكة قشتالة، وكان يمني نفسه بإرجاع هذه المدينة إلى حكم المسلمين، خاصة بعد موت ملكها القوي، وقد حاصر الجيش في أول الأمر مدينة طلبيرة (Talavera) غربي طليطلة فدخلها وخلص من كان بها من أسرى المسلمين .. وقد تم هذا في شهر صفر وربيع الأول عام 503 = 1109.

وبعد أن استرجع العاهل المرابطي مجريط (Magerit) ووادي الحجارة قصد مدينة طليطلة وضرب حولها الحصار بقيادته الفعلية.

وقد سجلنا نونيةً طويلةً يشيد فيها الشاعر التطيلي بالأمير علي بن يوسف عند هذا الجواز التاني للأندلس 503 = 1110، ثم يذكر استيلاءه على طلبيرة ومحاولة الأمير المذكور، محاصرة طليطلة قبل أن يقلع عنها بعد أن تبين له أن الأمر يحتاج إلى استعداد أكثر ...

(1) هذه العبارة تدل على أن الكتاب خرر في عد الموقعة مباشرة.



أحد أبواب طليطلة وإلى اليمين بعض المخلفات الأندلسية

وقد وجدنا الشاعر يعتذر عن الأمير في ذلك الإحجام مشبها إياه بما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في هدنة الحديبية التي أصبحت مثلا يروى :

لأمر ما رددت الخيل عنهم * وقد جعلت محاينهم تحين

وأسوتك الرسول وإن يشكوا * فعند جهينة الخبر اليقين !

وها دن أهل مكة عن حماها * وقد تكفي عن الحرب الهدون

فإن تحرز طليطلة الليالي * فسيفك يا علي بها ضمين !

وقد كان من المراسلات المتصلة بمحاولة ارتجاع طليطلة ما وجدناه مما يتصل بحصن أرلبة (Oreja) :

"... وكانت خيل طليطلة بدّدها الله عند مقدمنا هذا الحصن، مجتمعة فوقذهم الرعب وشملهم الصغار ... وانباء العدو -قصمه الله- الآن خامدة وعزائمهم هامدة وأيديهم حامدة..."

وفي أعقاب هذا الجواز الثاني لعلي بن يوسف بن تاشفين (503 = 1110) سار جيش من المرابطين بقيادة الأمير سير بن أبي بكر إلى المنطقة الغربية (البرتغال)، وافتتح في جملة ما افتتحه من مدن وحصون، اشبونة، ويابرة، وشنترين ...

وقد وجدنا رسالة طويلة عن الأمير سير بن أبي بكر إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين يخبر بالاستيلاء على قلعة شنترين. وكانت الرسالة من إنشاء الوزير الشهير عبد المجيد ابن عبدون وفيها يتحدث عن حصار الجيش المرابطي لشنترين حتى سقطت واستسلم قادتها ... ويقدم وصفا جميلا للمدينة التي تعتبر من أرحب المدن أمدا للعيون وأخصبها بلدا في السنين، لا يريمها الخصب ولا يتخطاها، ولا يرومها الجذب ولا يتعطاها، فُروعها فوق الثريا شامخة، وعروقها تحت الثرى راسخة، وكانت في الزمن الغابر، أعيت على عظيم القياصر، فأبت على طاعته واستعصت على استطاعته ... "

وأمام توالي الشكوى من المسلمين الذين يتاخمون الممالك النصرانية، وجدنا أن العاهل المغربي يقوم بتعبئة الجيش المغربي لتلبية نداء الذين يستصرخونه من كلّ جهة.

وهنا وقفنا على بيان من أمير المسلمين : علي بن يوسف بن تاشفين صادر من حضرة مراكش في منتصف شوال 507 = 25 مارس 1114 إلى أهل الأندلس كافة يعلمهم بما استقر عليه عزم أمير المسلمين من التجهيز للغزو... ويطلب إليهم أن يتوجهوا أيضاً إلى الله بالدعاء "قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم"...

الفصل الرابع

- المرابطون والجزر الشرقية
- تدهور العلاقات بين المرابطين وبني هود وسقوط سرقسطة
- وفادة القاضي ابن رشد لمراكش
- الوضع في الأندلس يسير نحو الأسوأ
- استصراخ سرقسطة
- معركة افراغة
- أيام الأمير تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين

المرابطون والجزر الشرقية

وقد تميزت أيام الأمير علي بن يوسف كذلك بافتتاح الجزر الشرقية (الباليار) سنة 509 = 1116 ....

والمعروف عن أمر هذه الجزر : ميورقة، منورقة، يابسة، أن العلاقات بين أمرائها وبين المرابطين كانت على نحو علاقات المرابطين ببني هود، سالفي الذكر، أي إن كلتي الجهتين كانتا تقفان حائلا بين المرابطين وبين الإمارات النصرانية المتاخمة للمملكتين المذكورتين إضافة إلى أنهما لم تقفا موقف خذلان ولا تقاعس من الدولة المرابطية.

لهذا نلاحظ أن المرابطين سواء أيام يوسف أو بداية عهد ولده علي، لم يصلوا إلى أمراء تلك الجزائر، إلى أن كانت نة 508 = 1114-1115 حيث سمعنا عن حملة كثيفة على تلك الجزائر من قبل بعض الممالك المسيحية : من البيزيين والجنويين والقطلانيين ... أسطول من ثلاثمائة قطعة عبئ لاحتياج الجزر. هنا وجدنا الأمير (مبشر بن سليمان) -وقد شعر بحجم الغارة- يبعث سفارة عاجلة إلى أمير المسلمين .. وكان الذي يحمل الرسالة قائدا بحريا مرابطيا كان بالصدفة راسياً في ميناء ميورقة، هو أبو عبد الله ابن ميمون الأميرال البحري، المشهور، الذي تمكن من تبليغ الرسالة، لكن الأمير مبشر بن سليمان كان مات أثناء الحصار المضروب على الجزر، وتولى أحد قرابته : أبو الربيع سليمان الذي واصل المقاومة عبثاً!!

وهكذا استولى النصارى على معاقل الجزيرة يوم 7 ذي القعدة 508 = 3 أبريل 1115 فخربوها! هنا وجدنا الأمير عليا بن يوسف يجهز أسطولا من 300 قطعة برئاسة الأميرال ابن تافرطست !! الأمر الذي أدخل الرعب على المهاجمين الذي فروا تاركين وراءهم الخراب والدمار ...

لقد كان هذا بعض موضوع الرسالة الهامة التي صدرت عن أمير المسلمين بمراكش تحمل تاريخ 20 أو 21 ربيع الأول سنة 510 = 2 -3 غشت 1116 وهي من إنشاء أبي القاسم ابن الجد رفعت إلى (من) ولي على جزيرة ميورقة، ولم يذكر إسمه ... وهي تفيد أن الجزيرة تعاقب عليها ثلاثة عمال من فترة قصيرة : "إنها بلدة كبيرة تحتاج إلى من يسوس أمرها ويحوط أهلها" إن بعض العمال كإبن أبي السداد لم يكونوا جديرين بها! ولهذا توصي الرسالة العامل الجديد قائلة : "واسع بحسن سياستك في استرجاع من خرج من جيرانهم واجتهد في صرفهم إلى أوطانهم حتى يكثر بفضل الله عددهم وينجبر بلدهم".

وفي نهاية الرسالة إشارة إلى الأسطول وضرورة اهتمام عامل الجزيرة به، ويبدو أن مقر قيادة الأساطيل الأندلسية في ذلك الوقت كان مدينة دانية... [1]

تدهور العلاقات بين المرابطين وبني هود وسقوط سرقسطة

ظلت مملكة بني هود المستقلة على عهودها ومجاملاتها لأمير المسلمين بالرغم مما أشار به أهل الدولة على العاهل المغربي للإستيلاء على مملكة بني هود مبررين تدخلهم بمسالمة سرقسطة للروم!...

ولهذا فبمجرد ما بلغت أصداء تلك "السعايات" إلى أمير بني هود الجديد أبي مروان عبد الملك لم يتردد في إرسال سفارة للعاهل المرابطي تحمل معها رسالة تتضمن تذكير أمير المسلمين بالعهود التي قطعها والده يوسف على نفسه فيما يتعلق بكيان مملكة شرق الأندلس، تلك العهود التي شهدها علي بن يوسف عندما كانا ما يزال ولياً للعهد ...

وقد أتت هذه الحركة الديپلوماسية من أبي مروان، بثمرتها، وهكذا فبالرغم من أن أمير المسلمين أعطى تعليماته بالإجهاز على المملكة الأندلسية الباقية، عاد فأصدر أوامره بالكف عن بني هود، على ما تكشف عنه بعض الرسائل[2]

لكن الخلاف لم يلبث أن دب بين المرابطين وبين بني هود، الأمر الذي أدى إلى هيمنة المرابطين على سرقسطة وهكذا وجدنا ابن هود يعقد مع ألفونسو الأول ملك أراغون من أجل استرجاع المدينة ".. لكن الذي حصل أن الحلفاء أتوا كالنمل والجراد، فنزلوا بها وشرعوا في قتالها، وصنعوا أبراجا من خشب تجري على بكرات وقربوها منها، ونصبوا عليها الرعادات، المنجنيقات... واستمر الحصار عليها حتى فنيت أقوات المرابطين ومات أكثر الناس جوعا ..."

---

(1) محمد علي مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد المجلد السابع والثامن، مدريد 1959-1960 ص 157-158-185 .

(2) الحلل الموشية ص 81-82 .

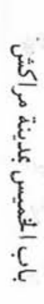
وهكذا سقطت سرقسطة نهائيا ولكن في يد ملك أراغون ودخلها ألفونسو في رمضان عام 512 (دجنبر 1118)! وبانهيار سرقسطة ينهار معقل من أهم المعاقل الإسلامية [1].

ولا بد أن نلاحظ هنا إلى جانب كلّ ذلك الصراع من لدن المرابطين ضد النصرانية، نلاحظ تلك الخلافات التي أخذت تظهر في بعض القواعد الأندلسية والتي كانت تهدد بانتشار بدور الفتنة بين المسلمين، الأمر الذي كان يعكس بآثاره على المواجهات المسلحة التي يخوضها المرابطون حيال الذين يعملون على نسف الوجود الإسلامي بالجزيرة، تلك هي الحقيقة المزعجة التي تكشف عنها الرسائل الرسمية التي كان العاهل المرابطي يرفعها إلى أهل اشبيلية والتي نشير إلى إحداها وهي المؤرخة يوم 24 جمادى الأولى عام 512 = 12 يوليه 1118 والمثبتة في قلائد العقيان ابن خاقان....

وفادة ابن رشد لمراكش ...

ومع كل تلك الأحداث نجد سفارة شعبية -إذا صح التعبير- ببلاط مراكش برئاسة القاضي أبي الوليد ابن رشد، لقد أدرك قاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد بن رشد (الجد) أن الأحوال في الأندلس تسير على غير هدى، وأنها تنذر بخطر يهدد الوجود الإسلامي بتلك الديار ... فلقد برزت مشكلة النصارى المعاهَدين التي أخذت تستفحل يوما عن يوم، وهناك السلوك الغير المحمود الذي يسير عليه بعض ولاة الأندلس من المرابطين مما يضاعف من الشعور بالكراهية ضد الآخذين بزمام الحكم ...

(1) ابن أبي زرع : روض القرطاس 2، ص 83-88-89 أشباخ : تاريخ الأندلس ص 144 .



باب الخميس بمدينة مراكش

لقد كان هناك بالجزيرة عدد من النصارى "المعاهدين" (بفتح الهاء) يعيشون في جل القواعد الأندلسية مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وبلنسية آمنين مطمئنين وكانوا إلى جانب لغتهم الرومانية الأصلية مستعربين يتكلمون اللغة العربية، [1] وقد تمتعوا في أكثر الأحيان بامتيازات خاصة إلا أن الملاحظ مع كل ذلك أنهم لم يتوفروا في وقت من الأوقات، على عاطفة الولاء نحو الحكومات المسلمة! بل إنهم دائما، ينتهزون أية فرصة لممالأة الملوك النصارى ومعونتهم بكل وسيلة علي محاربة المسلمين ... وهناك أمثلة من الوقائع التاريخية لا حصر لها حول الموضوع ... [2]

وبهذا نفسّر ارتفاع أصوات الفقهاء المطالبين بالتشدد في معاملة هؤلاء "المعاهدين" وتجريدهم من كثير من ضروب الحرية والتسامح التي كانوا يتمتعون بها ...

وشعورا من القاضي ابن رشد (الجد) بالخطر المتزايد لأولئك الذين "يأكلون خيرنا ويعبدون غيرنا" تطوع نيابة عن زملائه الفقهاء ورجال الدين، بالقيام بالسفارة لدى أمير المسلمين، وهكذا رحل في نفس هذه السنة 519 إلى مراكش، حيث تلقاه العاهل بالمبرة والكرامة واستمع إلى تقريره عن الوضع في الأندلس، وبخاصة عن النشاط المعادي الصادر من النصارى "المعاهدين" ... وقد طلب ابن رشد إلى العاهل أن يصدر أمره بتغريب هؤلاء إلى العدوة المغربية، الأمر الذي لقى قبولا حسنا من أمير المسلمين الذي طير التعليمات إلى جميع بلاد الأندلس بإزعاج "المعاهدين" إلى إقليم مكناسة وسلا وغيرهما من بلاد العدوة.

ويحتفظ التاريخ برسالة من إنشاء أبي عبد الله بن أبي الخصال عن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وهي تتعلق بهذه الوفادة : وفادة الفقيه المشاور ابن رشد إلي المغرب والتقائه بأمير المسلمين على ما نستفيده من صاحب "الحلل الموشية" وعلى ما يقوله ابن الخطيب في الإحاطة...

---

(1) هؤلاء المعاهدون كانوا في مقابلة المسلمين الذين يعيشون في الأراضي النصرانية ويقال لهم المدجنون (Mudejares).

(2) الحلل الموشية 75/76- أشباخ الأندلس ص 146-147 .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه

كتابنا أبقاكم الله، وأمدكم بتقواه، وعصم جانبكم وحماه، وتمم عليكم عوارف نعماه
من حضرة مراكش حرسها الله، وقبل ما وصل إلينا وورد علينا الفقيه الأجل المشاور أبو الوليد
ابن رشد أعزه الله بطاعته، فبسط لدينا شأن تلك الجزيرة كلأها الله وجلاه، ووصف
من حال العامة أصلحهم الله حتى استوفاه، وجال فيه من البيان أفسح مجال، وعرض الأمور بمعرض فعال
بلا بلغ مقال، فأشفقنا على الله كل الإشفاق، وتضاعف ما كان عندنا وكيد الصلة التذكر
والاشتياق، ولم نزل نوجه فيه أمينا، ونجد أحفيا، ونعزم الإنابة والإكليل، فيما نذر وندع،
ونذود عن حوزة الملة ونمنع، ونتدارك الآن الآداب للعيش، ونتتبع الفحص فيه بالعينين، وننصب
له النصب الغريب حبله السبيل ولا النكيث، ولا يشغلنا عنه شاغل وإن أهم، بل نصرف نحو
جانبكم العزم الأتم الأهم، وجميع الكفاية ما يهم حاجاتكم، وإن استشعروا أن أموركم
إزاء ذلك أهم لنا، ومن آكد ما كنا اشتغلنا، وقد ع على الفقيه الأجل المتفنن الذكر
حقيقة الأمر، وسيبلغكم ذلك عنه، فلا تكونوا في ريب منه، والله تعالى يعيننا على ما فيه
بصلاحكم، ويمتعنا من تأييده بما يعز الإسلام ويقيم من قوته، بحوله وطوله، وعده وفضله

حول وفادة القاضي ابن رشد (الجد) إلى مراكش عام 519 هجرية (نسخة خاصة)

وفي نفس المعنى نجد رسالة من أمير المسلمين علي بن يوسف إلى ابنه أبي بكر قائد الجيوش المرابطية بالأندلس، وقد حررت بحضرة مراكش يوم الأربعاء 27 صفر 520 = 25 مارس 1126، ونستنتج من الرسالة أن أبا بكر بن علي قد كتب إلى أبيه شارحا الظروف التي تعيشها الأندلس، وبالنظر لسفارة ابن رشد فإنه يمكن أن نلحق بها الرسالة التي وجهها العاهل إلى ابنه يحثه على بذل أقصى الجهد والمال في سبيل حماية المسلمين وتجنب تكرار تلك الحملات النصرانية...[1]

لقد أصبحت أحوال المرابطين بالأندلس تسير نحو التقهقر بالرغم مما كانوا يبذلونه من مجهودات لإنقاذ الموقف .. إن الوسائل السياسية لم يعد لها ذكر في الساحة الأندلسية، وإنما الكلمة للمواجهة المسلحة.. لقد تحولت الجزيرة كلها إلى ساحة حرب رهيب يقتتل فيه النصارى مع المرابطين الذين كانت حالتهم المعنوية تسوء يوما عن يوم بسبب اضطراب أمور دولتهم في المغرب وتنكر الأندلسيين المسلمين عليهم ... !

وهناك وثيقة تتحدث عن بعض المحاولات لإنقاذ الأندلس وقد حررت بمراكش من لدن الكاتب الأندلسي أبي مروان بن أبي الخصال بتاريخ 7 شعبان 523 = 26 يوليه 1129، مرفوعة عن أمير المسلمين إلى الأمير ابن أبي بكر ابن سير حول هزيمة القلعة (Alcolea) أو القلاعة على مقربة من جزيرة شقر (Alcira).

وفي نفس المعنى : انهيار الأحوال في شرق الأندلس نجد أن أمير المسلمين لم يقبل معاذير القائد العسكري المرابطي في تأخره عن القيام بواجبه للدفاع عن القلعة المذكورة، لقد كتب إليه يلومه عن "خزية المقادير" هذه، في أسلوب عنيف.

لقد حملت هذه الرسالة تاريخ 11 شعبان 523 = 11 غشت 1129 [2]

---

(1) محمود علي المكي : وثائق تاريخية جديدة، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، 1959-1960 .
(2) حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، مجلة كلية الآداب - القاهرة مجلة 11 ج 2 - دجنبر 1149 ص 152 .

استصراخ سرقسطة ... رمضان 523 = غشت 1129

فهل نسي المرابطون سرقسطة التي وقعت في يد ألفونسو منذ 512 = 1118

لقد ظلت هذه القاعدة القضية البارزة في ملف السياسة الخارجية للمرابطين، وهكذا نقف على نموذج من خطابات الإستنجاد والإستصراخ التي كانت ترد على البلاط المرابطي، مما كتبه قاضي سرقسطة والجمهور فيها إلى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين أثناء الحصار، حيث كان المسلمون بها ما يزالون يؤملون الأفراج عنهم وتخليص المدينة، على ما يدل عليه الخطاب المؤرخ يوم 17 شعبان 523 = 5 غشت 1129 [1].

معركة إفراغة (Fraga) 528 = 1134

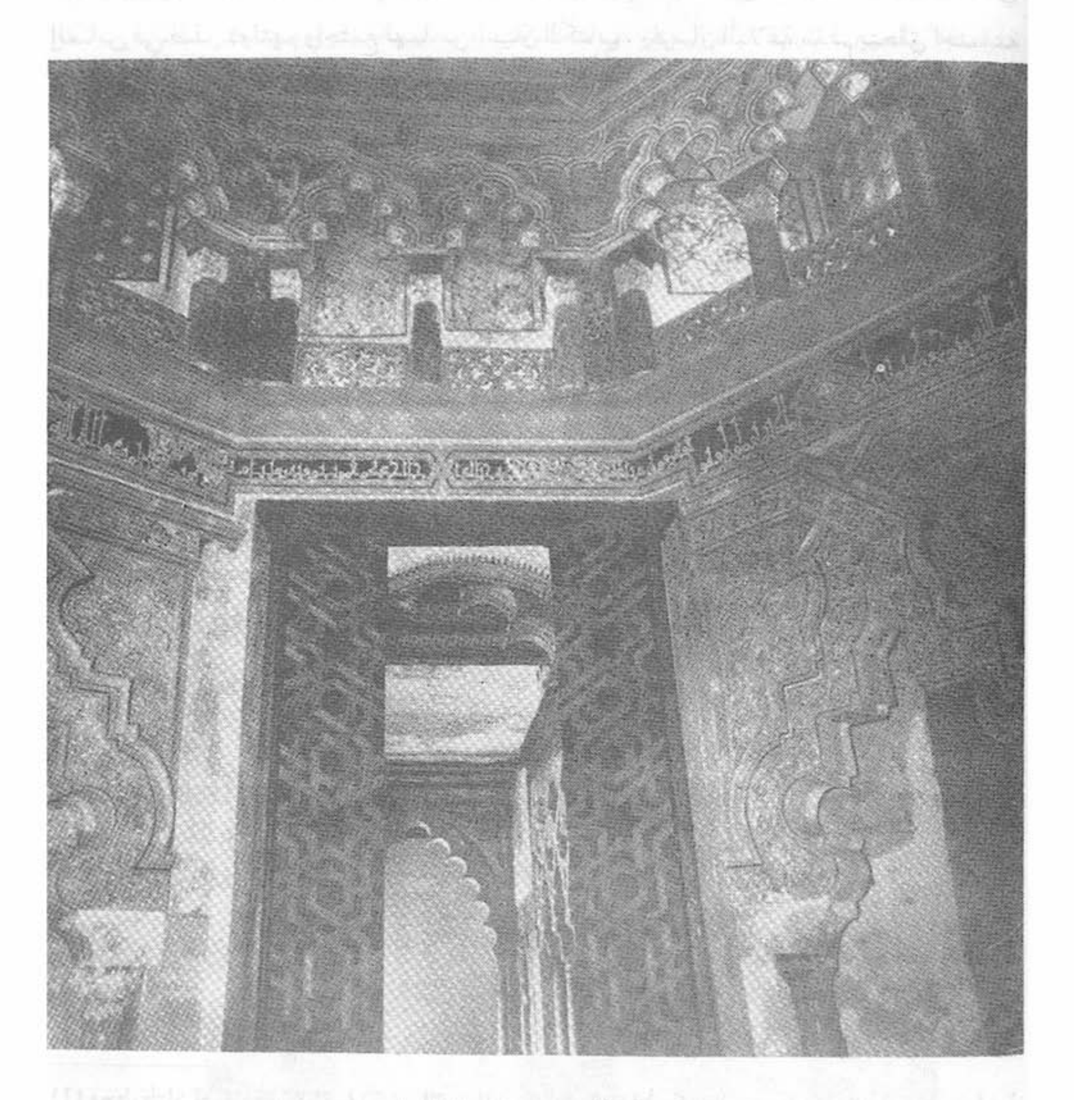
وقد شهدت الساحة الأندلسية موقعة لا تقل أهمية عن موقعة الزلاقة ومعركة الكونتات السبعة ... إنها الموقعة التي جرت يوم 23 رمضان 528 = 17 يوليه 1134 تلك المعركة التي تحمل إسم إفراغة (Fraga) والتي أسفرت عن هلاك ألفونسو الأول ملك أرغوان الملقب بالمحارب الذي يعتبر من أعظم ملوك إسبانيا في العصور الوسطى! وقد خصص لها ابن القطان في كتابه (نظم الجمان) حيزا مهما لها.

لقد كان لانتصار المرابطين -بقيادة العامل يحيى ابن غانية- صدى عميق في سائر أرجاء الأندلس والمغرب، وفي إسبانيا النصرانية بنوع خاص، وعادت سمعة المرابطين العسكرية إلى سابق مكانتها في شبه الجزيرة ... وقد كانت هذه الموقعة مناسبة أطلقت لسان الشعراء ...

أيام الأمير تاشفين بن علي بن تاشفين 537=1143

لقد كان أبو الحسن علي بن يوسف عهد بالأمر لابنه تاشفين الذي أنجبه من زوجة له من أصل رومي تحمل إسم "ضوء الصباح"، وهكذا تربع على كرسي الملك يوم 18 رجب 357 = يبراير 1143 في ظروف كانت فيها الفتن والاضطرابات قد أخذت تستفحل سواء في الأندلس أو المغرب وقد حاول العاهل الفتى، عبثا، أن يسترجع أيام جده ووالده حينما نحدث عنهما التاريخ بأنهما

(1) د. حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، مجلة كلية الآداب - القاهرة مجلد 11 ج 2 - دجنبر 1949 ص 132 .



سرقسطة مسجد قصر الجعفرية

معدودان من أكابر الملوك"وانقطع إليهما من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرتهما بني العباس في صدر دولتهم واجتمع لهما من أعيان الكتاب، وفرسان البلاغة ما لم يتحقق اجتماعه في عصر من الأعصار"على ما يقول المراكشي في المعجب

لكن طائفةً من المشاكل واجهت الأمير تاشفين بن علي : وكان من هذه المشاكل ذيول قضية إحراق كتاب الإحياء للإمام الغزالي التي وقعت في عهد والده علي بن يوسف بن تاشفين والتي كان من مضاعفاتها استشهاد أبي الحكم ابن برجان داخل سجن بمراكش عام 536 !!

وقد احتفظ لنا التاريخ -حول هذه الفترة- بوثيقة لا تهم فقط الذين يشتغلون بالفترة الأخيرة من أيام المرابطين [1] بل لدارس تاريخ الفكر في الأندلس والمغرب، وللمهتمين بالإمام الغزالي....

إننا مع الأسف لا نملك نص الأمر الرسمي الأول الذي كان صدر عن الأمير علي بن يوسف بتحريم تلك الكتب لكنا نمتلك صورة أحد الأوامر اللاحقة مما كانت الدولة تبعث به في هذا الشأن، ويتعلق الأمر بالخطاب الصادر عن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين، الذي أرسله من مكان يحمل إسم (كرناطة) [2] إلى إهل بلنسة بعد استعادة المرابطين إياها.

وقد ذهب كابانيلاس (Cabanelas) إلى أن هذا الخطاب لا بد أن يكون نتيجةً لوفود وردت على العاهل المغربي من أهل بلنسية أثناء مقامه بكرناطة.

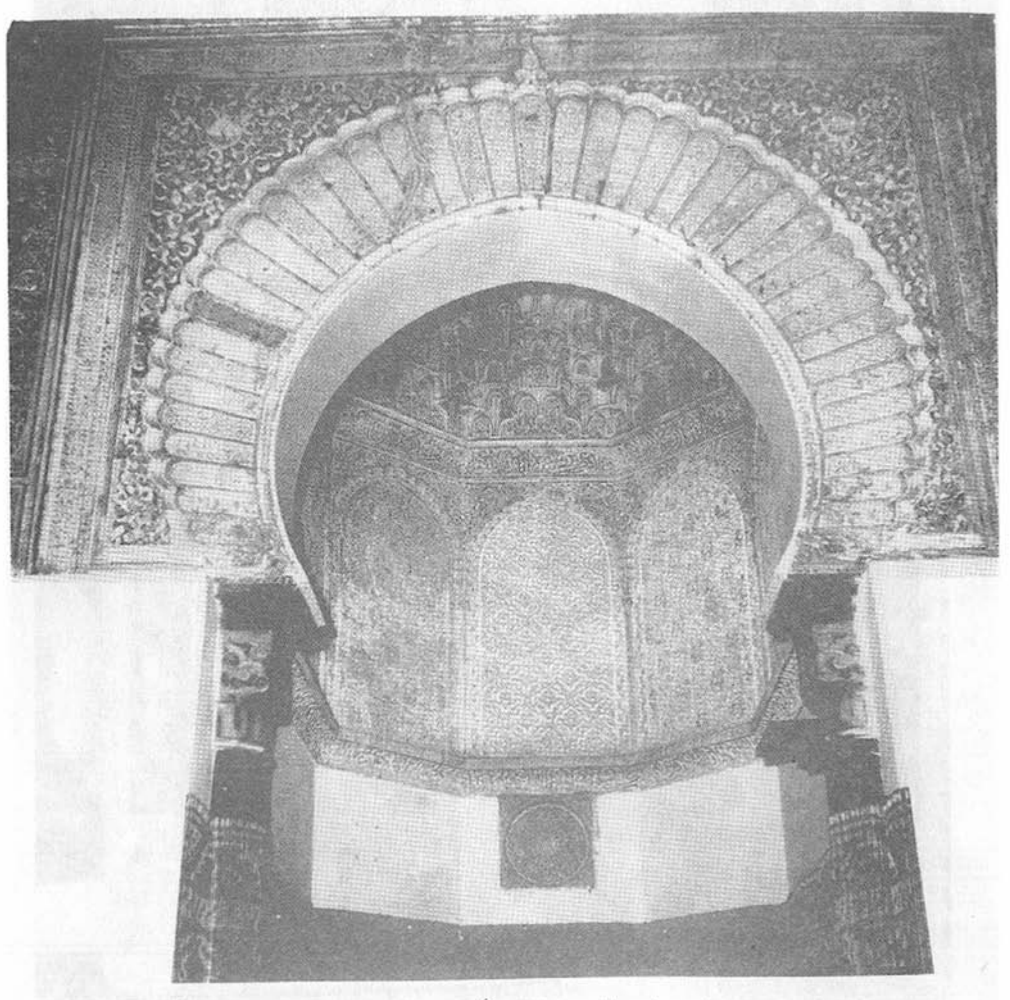
---

(1) مخطوطتان تحملان رقم 488-538 في القسم العربي من مكتبة الأسكوريال، حسين مؤنس : نصوص سياسية عن الفترة في الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، مجلة المعهد المصري - مدريد 1374-1955، المجلد الأول، العدد الثالث، ص 107 .

Ambrosio Huici Miranda : un Fragmento inédito de Ibn IDARI Sobre los Almeravides, Hesp Tamuda 1961 p. 76-90.

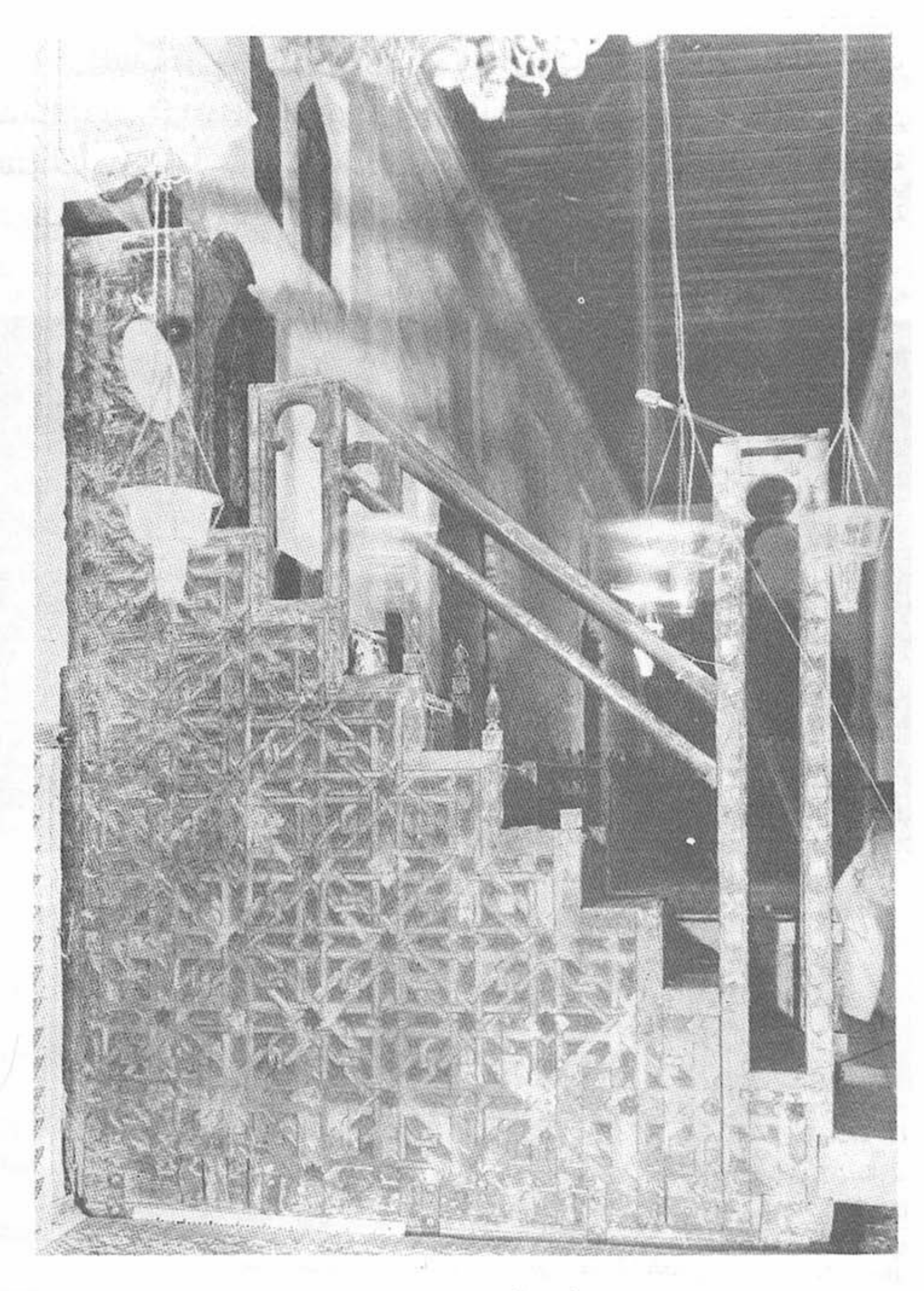
(2) يرسم هذا الموضع كرناطة، وكرنط وكرناط... جبل صغير في سلسلة المرتفعات بين تلمسان وسبتة، أنشأ المرابطون فيه حصنا يحمل نفس الإسم أثناء صراعهم مع الموحدين : المعجب ص 26 تعليق 1 .

إن الخطاب المؤرخ في العشر الأول من جمادى الأولى سنة 538 = 1143 يهدف إلى تثبيت قلوب الأندلسيين لمواجهة الأحوال وهو في معظم فقراته يحاول أن يقوي من معنوية الناس، ولكن الفقرة التاسعة منه على جانب عظيم من الأهمية، فهي تنص على أن مدار الفتيا في بلاد الدولة المرابطية ينبغي أن يكون على مذهب مالك وحده، وتحذر الناس من البدع وكتبها وأصحابها وخاصة كتب أبي حامد الغزالي ! [1]



محراب جامع القرويين الذي أسس على عهد المرابطين

(1) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 8 ص 170-171 .



منبر جامعة القرويين بفاس عملت فيه أيدي أندلسية، على هذا المنبر كانت تنشر القرارات الهامة للدولة، ظل اللسان الناطق للدّولة ... وظل المكان الذي يتنافس الملوك على تزكية بيعتهم من أعلاه. كما استمر مفخرةً للعلماء أن يوجِّهوا منه خطبَهم للجمهور ...

الفصل الخامس

- العلاقات بين المرابطين وبين بني زيري بالمغرب الأدنى
- سفارة المرابطين لدى تميم بن المعز بن باديس
- المرابطون في نجدة الزيريين
- علاقات المرابطين مع بني حماد بالمغرب الأوسط
- موقف المرابطين من الناصر الحمادي
- حول علاقة هذا الأخير بالروم

العلاقات بين المرابطين وبين بني زيري الصنهاجيين

جريا على عادة المرابطين فإنهم كانوا يحرصون على الإكتفاء بما تحت أيديهم دون أن يمتد فضولهم إلى ما وراء بلادهم، اللهم في حالة واحدة : عندما يُستصرخ بهم، في هذه الحالة أيضا نلاحظ أنهم لا يقومون بأية مبادرة دون أن يحصلوا من الفقهاء والأشياخ على إذن بالإستجابة، كذلك كان موقفهم إزاء كل حركة هامة تحركوها عبر تاريخهم، وقد رأينا الظروف التي تنقلوا فيها من المغرب إلى الأندلس على سبيل المثال، كما سنلاحظ الظروف التي حملتهم على الإستجابات المماثلة.

وهكذا فليس غريبا أن نجد المرابطين يفكرون في إدخال السرور على حلفائهم الزيريين أصحاب إفريقية (المغرب الأدنى) بمجرد إحراز النصر في معركة الزلاقة، حيث بعث السلطان أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية بسفارة تحمل رسالة هامة.

وإذا كان التاريخ لم يحتفظ لنا بأسماء السفراء الذين حملوا لنا الرسالة المرابطية فإنه لحسن الحظ ترك لنا نصوص هذه الرسالة الطويلة التي تعطي فكرة عن صراع المرابطين لإمارة برغواطة، كما تؤدي صورة مفصلة للمعركة الحاسمة التي دارت رحاها على مقربة من بطليوس: معركة الزلاقة ... وبصرف النظر عن البواعث السياسية التي كانت كامنة وراء "زف هذه البشرى"، فإن من الملاحظ أن الفرنجة أخذوا يهيئون استحكاماتهم في تلك المنطقة، مع الأسف، بمساعدة إمارة قلعة بني حماد بالمغرب الأوسط التي دخلت في تنافس حاد مع إمارة بني عمهم باديس، والتي نرى علاقتها مع الروم تتعزز يوما عن يوم على ما يشهد به أسلوب الرسائل المتبادلة بين بعض أمراء القلعة وبين عظماء النصرانية على ما سنستنتجه أيضا من رسائل يوسف بن تاشفين نفسه وهو يخاطب صاحب القلعة!!

لقد حملت الرسالة المرفوعة إلى الزيريين بين تاريخ شهر رجب تسع وسبعين وأربعمائةً دجنبر 1083، على ما يوجد في مخطوط تحتفظ به مكتبة الاسكوريال. [1]

---

(1) المخطوط رقم 488 - Fol 49 R 53 V. عبد الله عنان : دول الطوائف القاهرة - 1380=1960 ص 424 . المعتمد بن عباد، بغداد 1958 ص 152 .

المرابطون في نجدة الزيريين بالمغرب الأدنى

من المؤكد أن أصداء النصر الذي كان المغرب يحققه في الساحة الأندلسية نفذت بسرعة إلى سائر أولئك المسلمين الذين أخذوا يتحسسون شبح الخطر المحدف بهم من الدين يجاورونهم من النصارى، وقد كان مما لفت الأنظار حقا هو ذلك الجسر الذي استطاع الأسطول المرابطي، أن يربط، عن طريقة، القارة الإفريقية بالقارة الأوروبية، إن عبور تلك الجيوش نحو الأندلس جعل الحاجز المائي شيئا غير ذي بال بالنسبة للمرابطين، وبالتالي فإنه حرك من رغبة بني باديس بإفريقية والمهدية في الاستصراخ والاستنجاد عندما شعروا بمطامع حاكم صقلية في ديارهم !

وهكذا فعلى قياس ما قيل عن أن تدخل يوسف بن تاشفين في الأندلس -استجابة لملوكها- مدد في عمر الإسلام بتلك الديار زهاء أربعة قرون، على قياس ذلك ينبغي أن يقال أيضا: إن تدخل دولة المرابطين في إفريقية حافظ على الوجود الإسلامي بتلك الجهات وإلى الأبد.

لقد أحس الأمير أبو الحسن علي بن يحيى بن تميم (1116-1121) بمضايقات (روجي) حاكم صقلية فهدد بالإستنجاد بمراكش، بالسلطان علي بن يوسف بن تاشفين ! وقد وجه الأمير أبو الحسن فعلاً ببعثة تحمل إلى العاهل المغربي كتابا حول الموضوع، ويقترح عليه أن يقصد صقلية ! وكان مجرد التهديد بالإلتجاء إلى المرابطين كافياً لردع روجي الأول واقتناعه بالتراجع، سيما وقد وصلته الأخبار قبل غيره عن إمكانيات المرابطين في الأسطول الحربي ...

وقد جرؤ روجي بعد وفاة أبي الحسن أمير إفريقية على أن يجدد تهديده لخلفه ويستولي على طرابلس، فبعث الأمير الجديد الحسن بن علي بن يحيى بوفادة إلى المرابطين الأمر الذي دفع بهؤلاء إلى إعطاء الأوامر بتحرك القطع البحرية -برئاسة القائد ابن ميمون- عبر البحر المتوسط في اتجاه المنطقة، وقد وصل أسطول أمير المسلمين فعلا إلى بلاد (روجار) فافتتح من الحصون وغنم عددا من الذخائر وسبى منها سبايا كثيرة .. مما زاد في قوة نفس الحسن بن علي فاستمر في المقاومة وهُنئ بالفتح، وكتبت عنه في ذلك كتب إلى سائر الجهات. [1]

---

(1) رحلة التيجاني : تقديم حسن حسني عبد الوهاب - المطبعة الرسمية بتونس 1378=1858 ص 334-335 .
د. التازي : موقف المغرب من القرصلة في العصر الوسيط، أكاديمية المملكة المغربية، الدورة الأولى لسنة 1986- الرباط.

علاقات المرابطين مع بني حماد بالمغرب الأوسط

لم تكن العلاقات على ما ينبغي أن تكون عليه بين المرابطين وبين بني حماد جيرانهم المباشرين ! [1] لقد كان هؤلاء مرتبطين مع زعيم النصرانية في رومة بعلاقات جد طيبة الأمر الذي تكشف عنه الوثائق المحفوظة إلى الآن في أرشسف حاضرة الفاتيكان مما نشر بعضه ألكونط دوماس لا تري في كتابه بعنوان : "علاقات السلام والتجارة ... مع عرب إفريقيا الشمالية في العصر الوسيط" ...

ونحن قبل هذا وبعد هذا أمام وثائق معاصرة في منتهى الأهمية، ويتعلق الأمر أولاً بالرسالة التي يحتفظ لنا بها ابن بسام في ذخيرته وهي من إنشاء ذي الوزارتين الفقيه الكاتب أبي بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة الذي سفر غير ما مرة إلى الملوك ...

والرسالة موجهة من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين [2] جوابا عن خطاب سابق من صاحب قلعة بني حماد لم نقف مع الأسف على نصّه :

لقد كانت الرسالة المرابطية صريحة وقاسية كذلك لأنها لم تتردد في اتهام صاحب القلعة بأنه "يجتني ويُثرِّب على من لم يستوجب التَّثْريب ... وأن وراء كل حجة كان يدلي بها صاحب القلعة، يوجد عند أمير المسلمين ما يوضحها لولا استنكاف الجدال واجتناب تردّد القيل والقال... ».

الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه فلا عدول لعادل ولا ميل عن مذهبه ولا يأخذ بتحليل ولا تحريم إلا به ومن حاد عن رأيه بفتواه ومال من الأئمة إلى سواه فقد ركب رأسه واتبع هواه.

---

(1) إنما سجل التاريخ ربط صلات ودية مع الحماديين عندما بعث يوسف بن تاشفين بتهنئته للمنصور بن الناصر ابن علناس - ابن الأثير : الكامل ج 8 ص 147 .

(2) الذخيرة 2، 1 - 257 الذخيرة 3، 285 . القلائد طبعة تونس، تحقيق العنابي 1966 ص 199 .

وبعد أن تذكّر رسالة أمير المسلمين بما كان شبّ بين صاحب قلعة حماد وبين ابن عمه الزيريّ محمد بن يوسف، تتحدث عن انشغال يوسف بن تاشفين بالجهاد وتعير صاحب القلعة بأنه «يستدعي ذؤبان العرب وصعاليكهم فيعطيهم ما في خزائنه جزافاً وينفق عليهم ما كنزه أوائله إسرافاً... » ثم يؤنبه بأنه « « يتداوى من أعدائه بالسمّ ! وأنه يخلي للأعداء الطريق لإذاية المسلمين! «ولو أن صاحب رومة المشتمل معه (أي مع صاحب صقلية) بعباءة الكفر والشّرك... تقول الرسالة، يكون مكانك من جوارنا فوق ما أتيت !! وكل ما سفك من دم، وانتهك من محرم واستهلك من ذم فإليك منسوب وعليك محسوب !

وقد أشرنا إلى هذه الرسالة التي لها أكثر من دلالة لنذكّر بأنّ الأمير الناصري الحمادي، كان يرى أن من السياسة أن يحتفظ بعلاقات ودية مع الجماعات المسيحية التي تقيم بالإقليم الذي كان يحكمه، وكان لهذه الجماعات، كما هو معلوم، علاقات منتظمة مع المركز البابوي، وبخاصة في عهد البابا گريگوار السابع...

ونأتي هنا بترجمة حرفية لما أورده الكونط دوماص لاتري في تأليفه الذي سبق أن أشرنا إليه: «علاقات وتجارة إفريقيا الشمالية أو المغرب مع الأمم المسيحية في العصر الوسيط».[1]

«طبقا لتعليمات گريگوار السابع، اختار مطرانُ قرطاج وزميله من بين الرهبان للأسقفية مرشحاً، وقد حاولا في اختيارهما هذا إرضاء كل من الاكليروس والشعب « «الهيبوني» وكان الأسقف الذي اختير يسمى سبرڤان (Servand)، وقد قبل الناصر اختياره، وعندما ذهب سرڤان أسقف بونة إلى روما أعطاه الملك الناصر رسائل وهدايا ليقدمها إلى البابا، بل عمل أكثر من ذلك حيث إنه حرر كل الأسرى المسيحيين الذين عثر عليهم وذلك حرصا منه على إظهار الود والصداقة للبابا. وليؤكد له كذلك نيته الحسنة تجاه المواطنين الذين يعتنقون المسيحية».

---

(1) De Mas Latrie : Traités de Paix et de Commerce et Documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique Septentrionale au moyen âge... avec une introduction Historique. Paris 1866-1868 Page 22-23.

Relations et Commerce de l'Afrique Septentrionale ou Maghreb avec les nations chrétiennes au Moyen âge, Paris 1886 p. 41-42-43-44, Documents. P.7.

مولود قاسم نايت قاسم : شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830، دار البعث، الجزائر 1405=1985 ج 1 ص49-85-86 .

لقد كان لهذه المعاملة تأثير عظيم في نفوس الرهبان والرومان الذين أرادوا التقرب من الأمير الناصر وقد اغتنموا عودة سرڤان إلى إفريقية سنة 1076 أو 1077، فأرسلوا معه عدة رسل تكلفه بشكر الملك باسمهم. ونقل الأسقف الجديد، بالإضافة إلى ذلك، رسالة مجاملة من عند گريگوار نفسه، تتم بطابع الإنفتاح والصراحة، على خلاف الرسائل التي كان يتبادلها البابوات مع ملوك المغرب الأقصى وهاهو ذا مضمونها الكامل :

«من عند الراهب گريگوار، خادم عباد الله، إلى الناصر ملك موريطانيا من إقليم ستيف بإفريقيا ... تحية وبركة بابوية».

لقد تفضلت فخامتكم بالكتابة إلينا في هذه السنة طالبين منا أن نرسم كاهنا وذلك حسب القوانين التي تفرضها علينا المسيحية فبادرنا باختيار الأسقف سرڤان لأن طلبكم هذا كان صائبا. وبعثتم لنا في نفس الوقت بهدايا، كما أنكم احتراما لبيير أمير الرسل، وحبا لنا حررتم الأسرى المسيحيين ووعدتم أيضا بالعفو عن الآخرين الذين يوجدون عندكم.

إن الله الذي خلق كل شيء والذي بدونه لا نستطيع أن نفعل شيئاً هو الذي ألهمكم إلى هذه الأعمال الطيبة وهيأكم لهذا العمل النبيل.

إن الله العلي القدير الذي يحب السلام لكل الناس ولا يريد أن يهلك أحداً، لا شيء أحبّ إليه تعالى أكثر من حبنا له سبحانه وكذلك من التمعّن في هذا المبدأ «عامل غيرك بما تحب أن تعامل به».

فينبغي لنا أن نمارس فضيلة المحبة هذه أكثر من غيرنا من الشعوب. فنحن جميعاً، على أوجه مختلفة، نعبد إلاهاً واحداً، وإننا كلّ يوم نسبح بحمده ونجلّ فيه خالق العصور ورب العالمين.

فعندما أخبرنا شرفاء مدينة روما بالصنيع الذي ألهمكم الله إياه، أعجبوا بسمو أخلاقكم وأذاعوا مدحكم، وإن اثنين من بينهم هما اللذان يشاركانا الأكل والشراب عادة، ألبيرك (Al-Beric) وسنسيوس (Cencius)، وقد تربينا معاً في قصر روما منذ كانا في سن المراهقة، وهما يوذان بحرارة أن يربطا معكم أواصر الصداقة والمودة، وسيكونان سعيدين بقبولكم وسيبعثان لكم ببعض رجالهم ليبرهنوا لكم على مدى تقديرهم لخبرتكم ولعظمتكم وليظهروا لكم رغبتهم في خدمتكم. وإننا نوصي جلالتكم بهم ونطلب منكم أن تكنوا لهم الحب والوفاء مثل الحب والتفاني الذى نخصكم دائماً به وبأي أمير يعينكم.

إنّ الله العلّي القدير هو الذي يلهم عباده إلى الصداقة التي محضناكم بها.

وكم نتمنى لكم السلامة والنصر في هذه الدّنيا والفوز في الآخرة، وإننا نتوسل إليه تعالى من أعماق قلوبنا أن يمد في عمركم وينعم عليكم برضى سيدنا ابراهيم عليه السلام [1].

وقد علّق لاتري على هذا القول بقوله :

لم يعبّر حبر روما العظيم في يوم من الأيام عن وده لأمير مسلم بهذا النحو من العطف والحنو. خاصة أننا لم نلاحظ قط من قبل أن أحد البابوات قد صرح بمثل هذا الحب العظيم...

لقد كان كلّ شيء يحمل على الظن أن حسن علاقات الدولة الحمادية مع الكرسي الرسولي لم يكن غريباً عن الاتفاق الذي تمّ ضد دولة بني زيري التي تعتبر عدوّة لأسرة بني حماد.

وقد استمر الحماديّون في حماية المسحيين طوال ملكهم، وفي القلعة ذاتها عاصمة المملكة كانت توجد عام 508=1114 كنيسة أهديت لمريم العذراء، وكان يسكن فيها أحد الأساقفة[2]...

---

(1) من الطريف أن نجد البابا ليون الثالث عشر يلمح - عام 1888 - لرسالة البابا كريكوار السابع إلى الناصر بن علناس (من بني حماد - بونة) عام 469=1076، وذلك في جوابه على خطاب السفير المغربي الحاج محمد الطريس الذي بعثه السلطان المولى الحسن الأول إلى الكرسي الرسولي يوم 25 يبراير 1888 .

Jacques Caillé : Sur les Rapports du Maroc avec le Saint Siége Hesp. Tamuda 1969 p.87.

د. التازي : المحاولات التاريخية للتقارب بين الأديان. اللقاء الابراهيمي، قرطبة- يبراير 1987 .

(2) رشيد بوريبة : الدولة الحمادية : تاريخها حضارتها المركز الوطني للدراسات التاريخية - الجزائر 1977 ص 72-164 .

فصول من رقعة كتبها ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن سليمان
المعروف بابن القصيرة عن السلطان يوسف بن تاشفين
إلى صاحب قلعة بني حماد.

فصول من رسالة تاريخية للسلطان يوسف ابن تاشفين إلى الناصر صاحب قلعة بني حماد

Hanc utiq; caritatē nos & uos specialius nob quā cęris
gentib; debemus. q unū dm̄ licet diuerso modo
credim & cfitem. q eū creatorē sclox & gubnatorē
hui mundi cotidie laudam & ueneram. Nā sicut
aps dic. ipse ē pax nr̄a q fec utraq unū. Sed hanc
tibi grām a dō ccessā plures nobiliū Romanox p nos
cognoscentes. bonitatē & uirtutes tuas omino ad
mirant & p̄dicant. Int quos duo familiares nr̄i
Albericus & cincius. & ab ipsa pene adolescentia
in Romano palatio nobiscū enutriti. multū desi
derantes in amicitiā & amorē tuū deuenire. & de
his quę in partib; nr̄is placuerit t libent seruire.
mittunt ad te homines suos. ut p eos intellegas
quantū prudentē & nobilē habeant. & quantū tibi
seruire uelint. & ualeant. Quos magnificentię
tuę comdantes rogamus ut eā caritatē quā tibi
tuisq omib; semp impendere desidam. eis pamore
nr̄o & recōpensatione fidelitatis p̄dictox uirox
impendere studeas. Scit enī ds qa pure ad honorē
dī te diligimus. et salutē & honorē tuum in
p̄senti & in futura uita desidam. atq ut ipse ds
in sinū beatitudinis scīssimi patriarchę abrahę p
longa hui uitę spatia te pducat corde & ore ro
gamus. Explic lib. iij.
Incip lib. iiij. Registri GG papae. VII.
Anno dnicę incarnationis mill. lxxvi. Ind. xiiij.

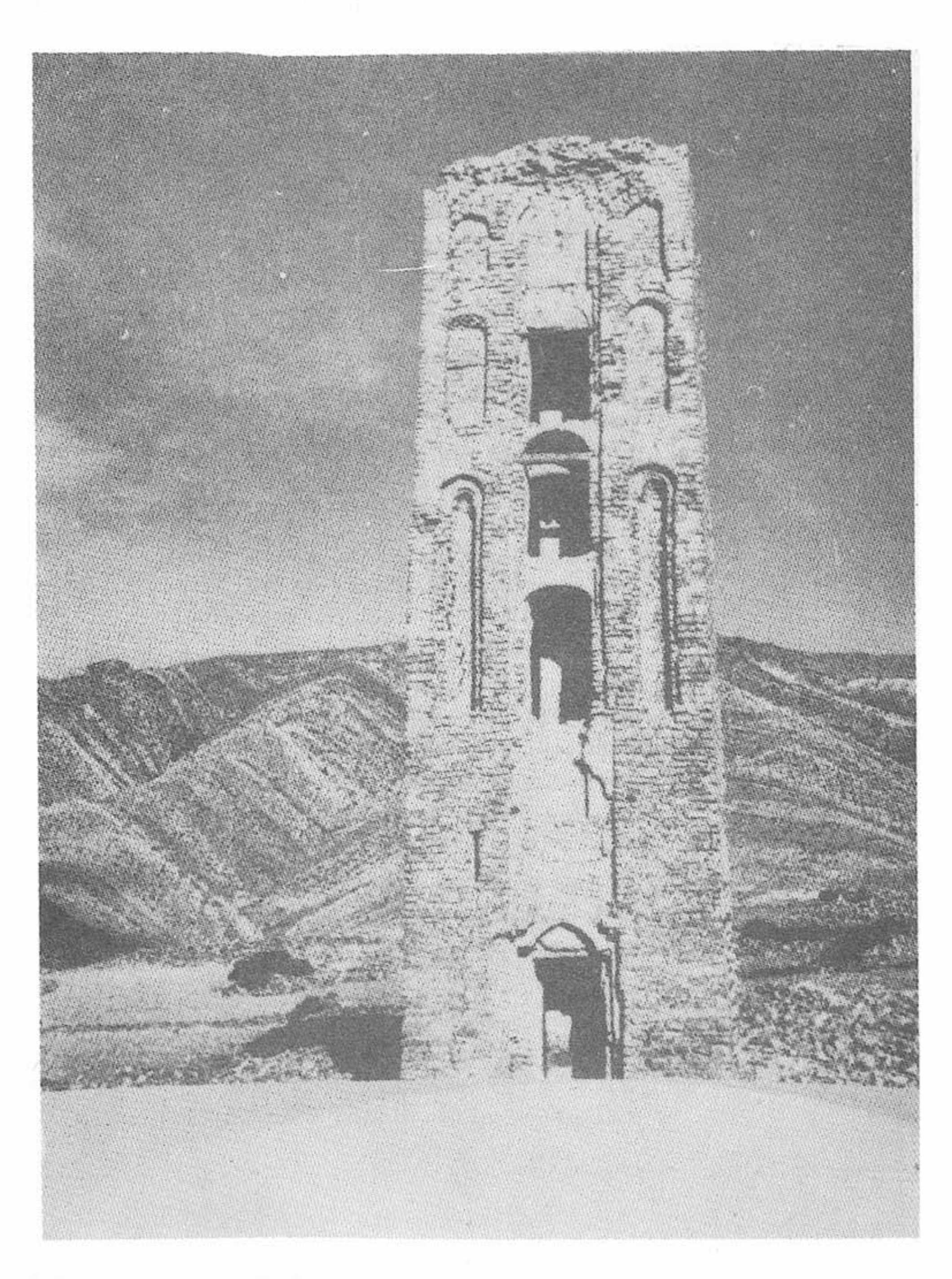
Lib. III.

niat et ego dilexi uos. Maiorē caritatē nemo habet
ut animā suā ponat quis p amicis suis. Apls qq
Paulus magister et doctor gentiū dicit. Si dns
nr ihs xps posuit animā suā p ouibus suis ac dedit
sanguinē suū redēptionē p multis. debemus et nos
p fribus animā ponere. Sic itaq uos sedulos erga
cultū xpianę religionis exhibete dilmi atq aman
tissimi fr quatn post huius uitę pelagus ad portū
ppetuę quietis. atq ętnę beatitudinis felicit p
uenire possitis. largiente ipso redēptore nro ihu
xpo. qui cū patre et spu sco uiuit et regnat ds
p omia secla seclorum am.

Regi mauritanie sitifensi. prouincie in africa. 21.

Gregorius eps seruus seruorum di Anazir
regi mauritanię sitifensi prouincię in africa.
Nobilitas tua hoc anno litteras suas nob misit. qua
tenus seruandū pbrm epm secdm xpianā constitu
tionē ordinarem. Qđ qa petitio tua iusta et opti
ma uidebat facere studuimus. Missis etiā nobis
muneribus xpianos q apud uos captiui tenebant
reuerentia beati petri pncipis aptorum et amore
nro dimisisti. alios qq captiuos te dimissurū p
misisti. Hanc denique bonitatē creator omnium
ds sine quo nichil boni facere immo nec cogitare
possumus cordi tuo inspirauit ipse q illuminat
omnem hominē uenientē in hunc mundū in hac
intentione mentē tuā illuminauit. Illā omps
ds q omes homines uult saluos facere. et nemi
nē perire. nichil ē qđ in nob magis approbet
quā ut homo post dilectionē suā hominē
diligat. et q sibi n uult fieri alii n faciat.

جانب من الرسالة البابوية إلى الناصر



المئذنة العمياء من قلعة بني حماد

الفصل السادس

- بين الدولة المرابطية وحكام صقلية
- وضع المسلمين في صقلية على عهد المرابطين
- صقلية من خلال الوثائق المعاصرة للمرابطين

1) الوثائق المجهولة التاريخ

2) الوثائق المؤرخة ...

- دولة المرابطين والجمهوريات الساحلية : بيزة، جنوة، مرسيليا
- دولة المرابطين والبابا ...

بين الدولة المرابطية وحكام صقليّة

كان مما نقله التيجاني أن النصارى (أهل صقلية) تغلبوا على جربة سنة 529=1135فقتلوا مَن قتلوا فلما كانت سنة 548=1153 ثار أهلها على النصارى فقتلوا منهم جماعة كثيرة، فغزاهم النصارى من عامهم وتغلبوا على الجزيرة ثانيةً فنقلوا أكثر أهلها سبايا إلى بلادهم ولم يبقوا بها إلا من لا بال له... عن هذه «الانتصارات» التي أحرز عليها ملك صقيلة، كتب هذا الملك إلى أحد خلفاء الفاطميين بمصر «يبشره» بذلك حيث وجدنا ذلك الخليفة يبعث بجواب لملك صقلية يزكي غزو روجي لجزيرة جربة [1]!

وكان على المغرب أن يواجه صقلية مساعدةً لتونس وهكذا وصل أسطول المرابطين من المغرب وقائده محمد بن ميمون فغاث في بلاد روجار وحمل نساءً سبيا إلى بلاده... وكان روجار كلما وصل أسطول من المغرب إلى بلاده نسبُه إلى استنجاد الأمير الحسن بن علي بن يحيى صاحب المهدية... [2]

وضع المسلمين في صقلية على عهد المرابطين

مهما قيل عن «التساهل» الذي عرفته الفترات المتقدمة من حياة الحكام الصقليين النورمانديين إزاء المسلمين الذين كانوا يعيشون هناك آنذاك، فإنه لا يمكننا بحال أن نغض الطرف عن «الوجه الآخر» من أنواع الضغط والقمع والقهر التي كانت تمارس ضد أولئك المسلمين حتى يعتنقوا الذين المسيحي أو يتركوا البلادللذين احتلّوها... ومن هنا فإنه سيكون مفيداً بالنسبة

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى ج 6 ص 458-463 .
DIPLOMI GRECI ED ARABI DI SICILIA PUBLICATI... DA SALVADORE CUSA. Nit I .1982 Eincm Worwart von Albecht-Noth,
DIPLOMI E CANCELLERIA DI RUGGERO II Con un contributo... di ALBRECH NOTH, 1983.

(2) رحلة التيجاني ص 334-335 . د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 5 ص 225 .

للذين يدرسون علاقة هذه الفترة من التاريخ ببلاد المغرب أن يقفوا على نماذج من الوثائق التي حرّرت باللغة العربية والتي تتصل بعقد صفقات بيع عقار أو تنازلات عن بعض الحقوق، وقد عثرنا في هذه الوثائق على :

1. ما لم يحمل تاريخاً، ومنها ما ضبط تاريخه،

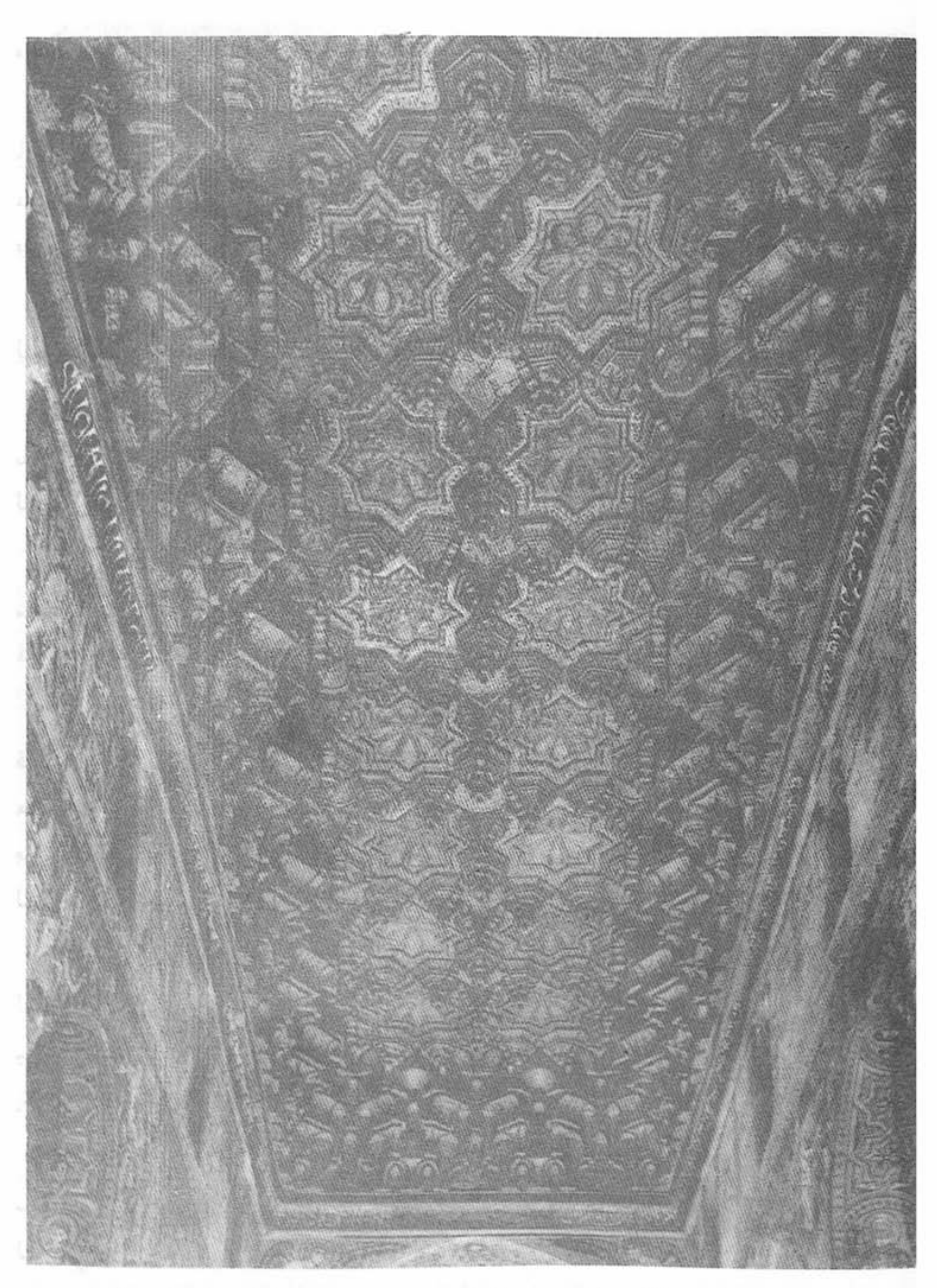
إن مثل هذه الوثائق تعطي الدّليل، إن كنّا نحتاج لذلك، على أن المسلمين هناك كانوا على حال من الحرج والشدة واليأس بحيث لم يكن في مستطاعهم إلا أن يقبلوا ما يفرض عليهم أو يرحلوا عن البلاد... ولا ينبغي بحال أن يغرّنا تعامل النّورمانديين مع الحرف العربي في الوثيقة وفي التخاطب، فإنه لم يكن في مستطاعهم غير ذلك في انتظار أن يجهزوا وبصفة نهائية على كلّ بقايا الإسلام والعروبة.

وقد رأينا أن نشير إلى بعض النّصوص التي تتصل بهذا الموضوع أملاً في إلفات النظر إليها، وفي دراستها لنعرف عن صلتها الوثيقة ببلاد المغرب التي توجد على مقربة من الجزيرة...

كان من بين الأسماء التي استرعت الانتباه اسم الرحالي والمجاطي والنواتي، والأشقر وأبو طالب والقيسي والهواري والزناتي [1].

---

1) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 5 ص 211 وما بعدها رقم الإيداع القانوني 1986/25–مطابع الحمدية- فضالة



السقف الرائع (للكابيلاً بلاتينا) في باليرمو (صقلية) وهو ينزع إلى هندسة السقف الذي شيده المرابطون في البلاط الأوسط من جامعة القرويين بفاس، ويلاحظ أن قبة (الكابيلا) ترجع لتاريخ 1150 بينما قبة القرويين

دولة المرابطين والجمهوريات الساحلية : بيزة، جنوة، مرسيليا

لقد أسهمت انتصارات المرابطين في وقعة الزلاقة ووصول أسطولهم إلى صقلية في الدفع بإسم المغرب إلى الأمام وغدت بعض الجمهوريات التي تقع على البحر المتوسط تتوسل للتعرف على هذا المغرب والتعامل معه ... وكان في صدر هذه البلاد طائفة من الدول الساحلية : بيزة، جنوة، مرسيليا ...

وهكذا عرفت أيام المرابطين عهداً جديداً على صعيد العلاقات الدولية، وفي ميدان التعامل التجاري على الخصوص مما سيتبلْور بصفة بارزة أيام دولة الموحّدين

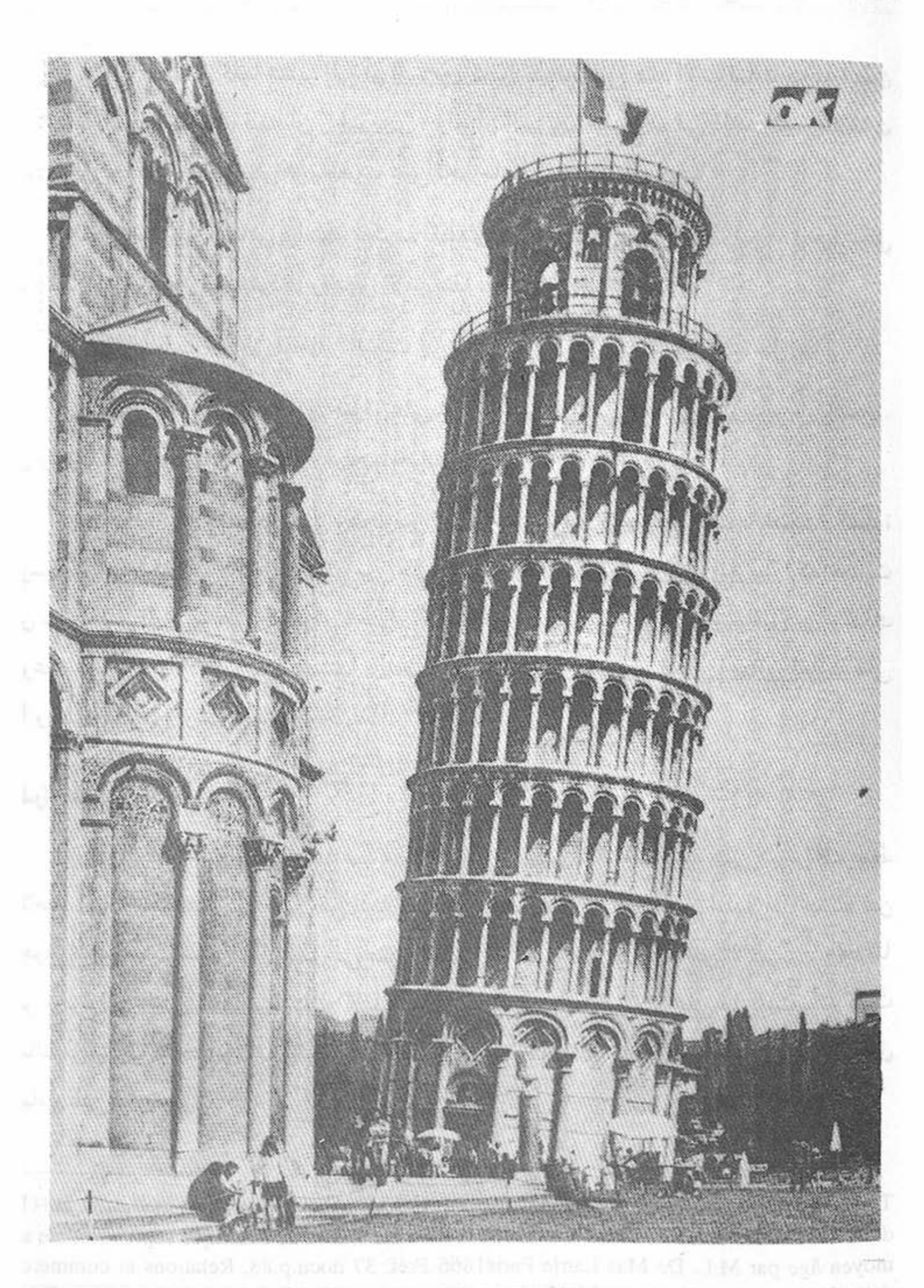
وإذا لم نعثر لحد الآن على آثار مكتوبة ومحددة عن الشروط التي كانت تجري على مقتضاها تلك الإتفاقيات، فإن هناك على الأقل، أذوناً بالمرور كانت تمنح بشكل أو بآخر لبعض السفن المتوسطية لتقصد الموانئ المغربية.

وإن بيزة وجنوة لم تتأخرا بدورهما عن التفاهم مع الملوك المغاربة من أجل عقد اتفاقيات محددة، سواء أكانت شفوية أو مكتوبة، وذلك لتتمكن تلك الجهات من التردد في آمان على الموانئ المغربية ... الأمر الذي كان أيضا هدفا من أهداف الأمراء المغاربة.

وهكذا فقد عرفت أيام المرابطين سنة 527 = 1133 عهدا جديدا حيث أبحرت باخرتان إفريقيتان إلى بيزة (Pise) من طرف "ملك المغرب" علي بن يوسف بن تاشفين، حملت على ظهرها بعثة ديلوماسية من المغرب، وكانت بيزة آنذاك مصدرا من مصادر قوة البحر المتوسط ... وهناك جرت مفاوضات بين قادة جمهورية بيزة وبين السفراء المغاربة تمَّ على إثرها التوقيع على معاهدة السلام والتجارة يوم 20 شعبان 527 = 26 يونيه 1133 ....

إن العقد كان يشمل منطقة أمير تلمسان، ويتحدث عن شخصية ثانية ربما كان حاكم الجزر الشرقية (بالياريس) أو أمير الأسطول المرابطي القائد ابن ميمون الذي لا نستغرب من وجوده في بيزة. لقد كان لبيزة على هذا العهد سمعة مدوية في البحر المتوسسط لم تعرفها مدينة أمالفي ونابولي.

لقد كان في استطاعة بيزة أن تجهز بورطو بيزانو (Porto-Pisano) بأسطول يتألف من مائة إلى مائة وخمسين قطعة، لقد كانت لها الهيمنة المطلقة بحريا وتجاريا علي كل ساحل البحر التيريني ...



برج بيزا الشهير شيد عام 1173 أي بعد نحو أربعين سنة من العلاقات المغربية الإيطالية !

ومع أن الدلائل كلها تشير إلى أن البيزيين كانوا سباقين إلى عقد الإتفاقيات مع المرابطين إلا أنه من غير المشكوك فيه أن "الجنويين" -ولو أن البيزيين تجاوزوهم في ذلك- لهم علاقات "امتياز في المستودعات والمراكز بالمعرب على نحو ما كان بالنسبة للبيزيين"

لقد كانت جنوة تُساس بواسطة حكومة يقظة ومنافسة للقوة البيزية حيث رأيناها تبحث بكل وسائلها عن توسيع رقعة نفوذها وانتهى الأمر بتفوقها على المصالح البيزية

وهكذا أخذت المناطق المجاورة تبحث عن التقرُّب إلى جنوة لمحالفتها والتوسل بها.

وهكذا أيضاً نرى أنها، أي جنوة، على عهد الأمير المرابطي : علي بن يوسف بن تاشفين، بل وقبل هذا، تنعم بوضع محترم ومريح بالمغرب.

وبالعودة إلى حلف دفاعي وهجومي عقدته جنوة مع مرسيليا، نجدها تتعهد لقادة مرسيليا بأن تساعدهم على التفاوض من أجل إبرام معاهدة مباشرة "مع ملك المغرب" وقد حصلت من سائر المدن البحرية على الإلتزام باحترام الأشخاص والممتلكات التابعة لأمير المؤمنين وكذلك الوعد، في حالة ما إذا أمرت قراصنتها بالتحرك بأن ترغم هؤلاء القراصنة على احترام المغاربة على ما وقفنا عليه في أرشيف الدولة بجنوة [1]

المرابطون والبابا

وفي الوقت الذي كنا نشاهد فيه مد اليد إلى الجمهوريات الساحلية على البحر المتوسط نلاحظ أنه لم يكن هنا رابط بارز في العلاقات بين البابا وبين قادة المرابطين اللهم إذا تحدثنا عن وجود "ميليشيات مسيحية" تعمل في صف الجيش المرابطي على ما أكده ابن الأثير ... وتحدثنا عن وجود الكنائس المخصصة لتلك "الميليشيات" مع العلم بأننا لم نعثر على ما يثبت بأنه كانت هناك مراسلات أو خطابات بين الباباوات وبين أمراء المرابطين الذين عرفوا بكثافة الحجاب وإغلاق الباب على ما يقولون ...

---

(1) انظر القسم الثاني من مقدمة هذا التاريخ ص 193-194 Traité de paix et de commerce et documents divers : concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge par M.L. De Mas Latrie Paris1866 Préf. 37 docu.p.88. Relations et commerce del'Afrique septentrionale ou Maghreb avec les nations chrétiennes au moyen âge - Paris 1886 Page 70.

من أقدم الوثائق الأوروبية التي تتحدث عن ملك المغرب (MURROCO)

وهي تحمل تاريخ 1138 (532-33 هـ) وقد وقفت عليها في أرشيف الدولة في مدينة جنوة ...

الفصل السابع

- العلاقات بين المرابطين والعباسيين وهاجس الوحدة الإسلامية
- حضور الخلفاء العباسيين في العملة المغربية
- وفادات المغرب على بغداد ...
- سفارة الإمام ابن العربي وابنه إلى بغداد
- شهادة ابن خلدون حول هذه السفارة
- التفكير في توحيد مداخل الشهور بين المشرق والمغرب
- العلاقات مع القاهرة الفاطمية

العلاقات بين المرابطين والعباسيين : هاجس الوحدة الإسلامية

إذا كان هناك من مثل يضرب لحسن النية وسلامة الطوية لحكومة من الحكومات التي عرفها التاريخ الإسلامي فهو المثل الذي ضربتْه دولة المرابطين في المغرب الأقصى، فلقد فصلتها عن الخلافة في بغداد الاف الأميال وكانت تسمع عن عدد كبير من الممالك الصغيرة التي ضربت بأمر الخلافة في بغداد عرض الحائط، لكنها - أي دولة المرابطين- بقيادة أميرها الشهم يوسف بن تاشفين- اتخذت منذ بدايتها شعار الانضواء تحت لواء الخلافة بالرغم من أنها أي دولة المرابطين كانت من القوة والمنعة بحيث لا تخاف بأس أولئك على ضفاف دجلة، وكان ذلك بدافع من أمل ظلّ يداعب المرابطين يتخلص في تحقيق الوحدة الإسلامية التي كانت هاجسهم !

وتؤكد سجلات النقود أن المرابطين دعوا للخليفة العباسي قبل معركة الزلاقة بوقت طويل، وهكذا نقشوا أسماء الخلفاء العباسيين على السكة منذ سنة 450 = 1058 أي أيام الخليفة القائم بأمر الله وكان عهده يصادف أيام الأمير المرابطي الشهير أبي بكر بن عمر الذي -كما نعلم- عهد إلى يوسف بن تاشفين بحكم شمال المغرب عندما تفرَّغ هو إلى فتوحاته فيما وراء الصحراء ...

وقد ظل إسم الخلفاء العباسيين يذكر مقرونا باسم أبي بكر بن عمر حتى توفي سنة 480 هـ = 1087 وخلفه يوسف بن تاشفين فذكر إسمه أيضا على السكة مع إسم الخليفة العباسي، مّما تأييد للفكرة التي تقول بأن الدولة المرابطية قد دعت للعباسيين من أول الأمر وليس فقط بعد الزلاقة على ما أشرنا...

وقد وقفنا علي نص عهد العباسيين للمرابطين أو بالحرى عهد القائم بأمر الله إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ببلاد المغرب بعد العشرين والأربعمائة. [1]

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى ج 10 ص 31 .

ولقد كان يوسف بن تاشفين في بدء أمره يلقب بالأمير فلما فتح المغرب وترامت حدود مملكته عموديا وأفقيا أراد بعض اشياخ المرابطين أن يحملوه على اتخاذ سمة الخلافة فاقترحوا عليه أن يلقب بأمير المؤمنين، فأجابهم : "حاشا الله ! إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لأنهم من تلك السلالة الكريمة، ولأنهم ملوك الحرمين : مكة والمدينة، وأنا رجل الخليفة العباسي والقائم بدعوته في بلاد المغرب". فلما الحوا عليه في الإمتياز باسم ما من الأسماء، قال لهم : "يكون أمير المسلمين" حسبما يفهم من المرسوم الذي صدر في منتصف محرم 466 (8 غشت 1077).

وهكذا فقد دأب المرابطون علي ذكر إسم العباسيين على منابر المغرب -التي بلغت أكثر من 2000 منبر- أيام الجمع والأعياد إلى جانب أسمائهم ولو أن هذا كلفهم غاليا من لدن الخصوم السياسيين.

كما أنهم أعطوا التعليمات لطائفة [1] من المعامل النقدية في المغرب والأندلس بنقش اسم "أمير المؤمنين العباسي" على إحدى صفحتي الدينار المرابطي بينما نقش على الجهة الأخرى "اسم أمير المسلمين"، وهكذا كتب -في الغالب- علي الوجه "لا إلاه إلا الله محمد رسول الله، وتحت ذلك أمير المسلمين ... " وكتب على الإطار (ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) وكتب على الظهر "عبد الله أمير المؤمنين العباسي"، وعلى الدائرة جل موضع ضرب السكة وتاريخ ذلك.

(1) تقول طائفة لأن لقب المؤمنين أيضا وجد في عدد من وحدات العملة المرابطية وقد حلى به العاهل المغربي، ويتأكد أن التفرقة بين اللقبين إنما برزت منذ عهد علي بن يوسف، وهكذا نرى أن إيثار الخليفة بلقب أمير المؤمنين تمّ في عهد الأمير أبي بكر سلف يوسف بن تاشفين، الذي ضرب ديناره الأول بسجلماسة عام 451 ونقش على ظهره «الإمام عبد الله أمير المؤمنين» كما نقش في وجهه اسم الأمير أبي بكر. لهذا أعتقد أنه لا بد من الرجوع إلى المصادر التي عالجته دراسة العملة المغربية بما تحتويه من ألقاب وتعبيرات.

وكل ذلك يكشف عن طبيعة الصلة الوثيقة بين مراكش وبغداد، ولهذا فإننا على مثل اليقين من انه في الوقت الذي اتجهت فيه سفارة مرابطية إلى أمير افريقية تميم بن المعز الصنهاجي حاملة معها الرسالة التي أشرنا إليها سابقا، توجهت أخرى لدار السلام : بغداد لحمل طلائع البشرى بالنصر ... وإن التاريخ ولو أنه ظل إلى الآن يخذلنا في الوقوف على جلية الأمر، لكنه ظل مع ذلك يشير إلى أنه قبل السفارة الشهيرة للإمام ابن العربي وابنه كانت هناك بعوث إلى المشرق...

ونعتقد أن في صدر تلك البعوث المبكرة ما تم أيام الأمير أبي بكر بن عمر سلف يوسف بن تاشفين، فقد عثر على دينار مما ضرب له في سجلماسة منذ عام 451 وهو يحمل إلى جانب اسمه هو، اسم "الامام عبد الله أمير المؤمنين، وليس من شك في أن أبا بكر ما أقدم على ذلك إلا بعد اتصال سابق بأمير المؤمنين الخليفة العباسي، وإلا بعد أن تلقى جوابا بالموافقة، وهذا ما يثبت آثار سفارة مغربية إلى بغداد ظلت مجهولة الرجال والتاريخ [1].

وبعد هذا تأتي السفارة الخاصة التي حملت للخليفة المقتدي بأمر الله أنباء المعركة الظافرة، [2] وعن ابن الأثير أنه بعد عودة ابن تاشفين من الأندلس خاطبه علماؤها بأنه ليست طاعته بواجبة عليهم حتى يخطب باسم إلى الخليفة، ويأتيه منه تقليد بحكم البلاد، وأن أمير المسلمين نتيجة لذلك -أرسل إلى الخليفة المقتدى بأمر الله ببغداد فأتاه بالخلع والأعلام والتقليد، ولقب بأمير

---

(1) ابن الأثير : الكامل ج 8 ص 143 حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد المجلد 2، 1954 - ص 60-63-64-65 .

(2) عرف التاريخ المغربي القيام بإرسال مكاتيب إلى أمراء البلاد في الخارج كلما مروا بمعركة أو حققوا نصرا، وسنرى سفارات من هذا النوع في مختلف العصور وخاصة في العهد المريني عندما بعثوا الأمير مصر سنة 737 برسالة تتعلق بفتحهم لتلمسان. صبح الأعشى ج 8، 87-99 .

المسلمين وناصر الدين، وقد وصل التقليد فيما بين شعبان وآخر عام 481 = 1088 قبل وفاة المقتدى بست سنوات[1].

ولا ندري على سبيل التحقيق عناصر الرسالة التي حملت إلى بغداد ولا التاريخ الذي تحمله بالضبط، ولو أننا نرجح أن يكون نفس الموضوع ونفس التاريخ الذي كان بالنسبة للرسالة النافذة إلى تميم بن المعز بالمهدية والتي سبق أن أشرنا إليها [2]

على أن هناك بعثة سياسية أخرى راحت لبغداد... تلك التي كان على رأسها القاضي عتيق بن عمران صاحب يوسف بن تاشفين التي أشار إليها ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد، فلقد أدى عتيق مهمته ببغداد على نحو ما يجب أن يؤدي، ولكنه عندما كان في طريق عودته إلى المغرب ألجأته عاصفة من الرياح إلى النزول بالأسكندرية 482 - 484 وهنا ألقي عليه القبض من طرف الفاطميين وساقوه إلى التحقيق حيث ضبطت معه مكاتيب من المقتدي بأمر الله 467 - 487 إلى أمير المغرب! [3]

سفارة ابن العربي إلى بغداد

أما عن السفارة التي قام بها الإمام عبد الله ابن العربي ونجله الشاب أبو بكر فقد تضافرت تقول المؤرخين على الحديث عنها، ونخص بالذكر هنا المؤرخ المعروف ابن خلدون الذي يعتبر حجة في هذا الموضوع لأنه اعلم من غيره بما كان يجري في المغرب [4] بالإضافة إلى القلقشندي الذي كان على خبرة أكثر مما يجري بالمشرق.

---

(1) ابن الأثير : الكامل ج 8، 143 .

(2) راجع الحديث عن صلة المرابطين بالمغرب الأدنى.

(3) G. Vadja : la venture Tragique d'un Maghrebien... ARABICA 1968 T. XV.

(4) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر : طبع دار الكتاب اللبناني، بيروت 1983، المجلد السادس القسم الثاني، ص 384-386 .

القلقشندي في صبح الأعشى ج 5 ص 258- الروضة السليمانية للزياني، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ص 15 (ب) - الحلل البهية، للمشرفي : مخطوط بالخزانة العامة كذلك، إحسان عباس : الجانب السياسي من رحلة ابن العربي إلى المشرق مجلة (الأبحاث) عدد حزيران (يونيه) -1963-ص 217-236- البيروتية وعدد كانون الأول (دجنبر) 1968 عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس القسم الأول. I .1964 ص 39-40-ص 59-91

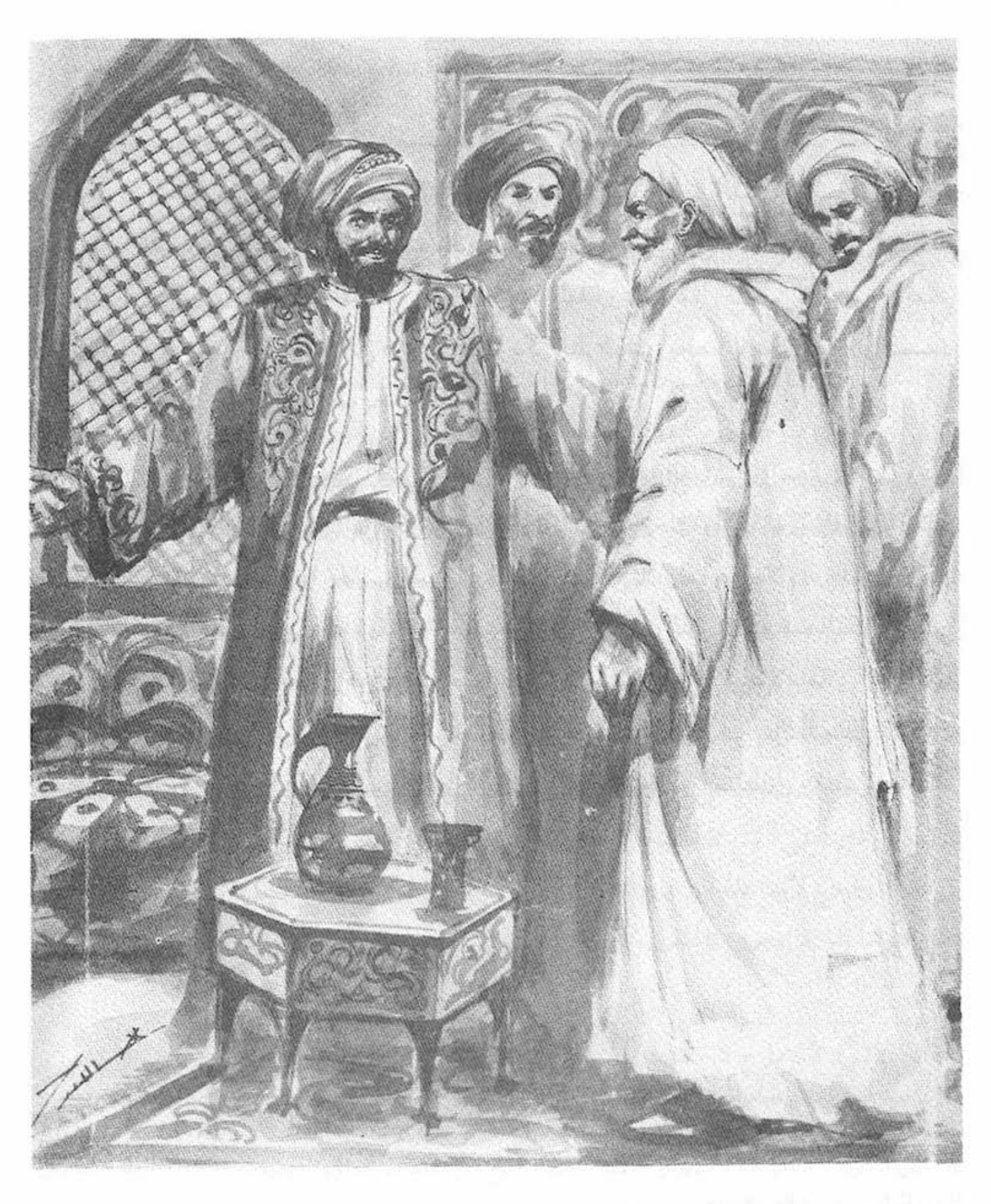
لقد ورد في تاريخ ابن خلدون عند حديثة عن يوسف بن تاشفين ما نصه :

"وتسمى بأمير الملمين وخاطب المستنصر العباسي الخليفة لعهده ببغداد وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الاشبيلي وولده القاضي أبا بكر فتلطفا في القول وأحسنا في الابلاغ وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس، فعقد له وتضمن ذلك مكتوب من الخليفة بذلك منقول في أيدي الناس، وانقلبا [1] إليه بتقاليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم ... وخاطبه الإمام الغزالي والقاضي أبو بكر الطرطوشي يحضّانه على العدل والتمسك بالخير ويفتيانه في ملوك الطوائف بحكم الله".

إلا أنه بالرغم من هذا النص الصريح الذي يحدد اسم الخليفة العباسي والسفير المغربي، فإن بعض الذين ترجموا لحياة القاضي أبي بكر بن العربي وتكلموا عن رحلته وأشياخه ومؤلفاته وأفكاره وآرائه بل وأشعاره .. لم يبرزوا الجانب السياسي الهام الذي قام به وولده من خلال الرحلة، بل أنكر بعضهم أن تكون لابن العربي صلة بقيادة الحكم في بغداد، الأمر الذي تزيفه هذه السطور التي حررها مؤرخ معاصر لابن العربي هو ابن صاحب الصلاة في كتابه تاريخ المن بالامامة : "... وكما قال الفقيه القاضي أبو بكر بن العربي فخر الأندلس وبحر علم الأنفس في تأليفه في (كتاب الرحلة) له، حين دخل بغداد وتعرف بسلطانها : "نعمت المعرفة التعرف بالسلطان، والتشرف به عند التغرب من الأوطان، ونعم العون على العلم الرياسة بالأمن والاستيطان" [2]

(1) انقلبا : لابد أن نذكر بأن عبد الله أدركت منيته بالاسكندرية سنة 493 فلم يتم انقلابه وإنما رجع ولده الذي أدركته الوفاة بفاس فدفن خارج باب الشريعة، وضريحه إلى الآن مزارة مقصودة من سائر الناس.

(2) ابن صاحب الصلاة، المن بالامامة، تحقيق د. عبد الهادي التازي الطبعة الثالثة 1987 دار الغرب الاسلامي، بيروت ص 185-186 . وانظر التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 5 ص 276 وما بعدها.



عبد الله ابن العربي وابنه أبو بكر لدى المستظهر بالله الذي كان إلى جانبه وزيره عميد الدولة ابن جهير
بريشة الرسّام العراقي صلاح جياد

ومن حسن الحظ أنه توجد لدينا الآن قطعة خطية من كتاب "ترتيب الرحلة للترغيب في الملة" [1] لأبي بكر بن العربي المالكي قاضي قضاة إشبيلية على عهد المرابطين (468-542 = 1076-1148) ، ففي هذا الكتاب تحدث ابن العربي (الإبن) عن رحلته التي قام بها إلى المشرق صحبة والده في مستهل ربيع الاول في عام 485 هـ (11 أبريل 1092) وكان عمره إذ ذاك لا يتجاوز سبع عشرة سنة، كما ورد في كلامه خطابات ووثائق رسمية هامة تضمنت الحقائق التالية:

أولا – أن الغرض من هذه الرحلة هو طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب من أول بلاد الإفرنج إلى بلاد غانة، إلى الأمير ناصر الدين يوسف بن تاشفين ليكون رئيسهم ورؤوسهم تحت طاعته، وأن من خالف أمره فقد خالف أمر أمير المسلمين ابن عم سيد المرسلين ويتعين جهاده على كافة المسلمين وفي هذا الخطاب ذكر لمبعوث سابق إلى بغداد ، كان هو القاضي ابن القاسم ...

---

(1) الكتاب يحمل عند ابن صاحب الصلاة، وهو معاصر «للقاضي أبي بكر بن العربي إسم (كتاب الرحلة) على ما سلفت الإشارة إليه، ويعتبر في حكم المفقود، إلا أن الأمل في العثور عليه لم ينقطع بعد، على ما قاله المرحوم حسن حسني عبد الوهاب في مقدمته لرحلة التيجاني. وقد قرأت في رحلة ابن عبد السلام الناصري الكبرى المخطوط بالخزانة العامة تحت رقم 1651 ص 160 أن أبا الحسن علي بن أحمد بن عبد الصادق كان وقف على رحلة ابن العربي بتونس وقد ذكر مؤرخ مراكش العباس بن ابراهيم أنه توجد قطع من ترتيب الرحلة في المكتبة الكتانية بفاس، ومعلوم أن مكتبة الكتاني آلت إلى الخزانة العامة بالرباط، وقد استدرك العباس بن ابراهيم بأن ابن العربي ذكر في كتابه (رسالة المستنصر) وما علقت بذهنه وبقي من رقاع من الرحلة الضائعة، ومما يلاحظ أن (رسالة المستنصر) يوجد نصيب منها ضمن مجموع في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 251 من صفحة 364 إلى 396 ... هذا إلى جانب الرسائل التي حملها من بغداد والتي توجد أيضا بالخزانة العامة تحت رقم د. 3/1020 ...
ابن ابراهيم : الإعلام 3، 11-13-390 – رحلة التيجاني ص 5 م–رسالة خاصة إلى المولف من الأستاذ عبد الكريم بن الشيخ المدني بن الحسني رحمهما الله بتاريخ 19 ذي القعدة 1385 –عبد الهادي التازي ليبيا لدى الرحالة المغاربة، مجلد المجمع العلمي العراق 1970 ص3 – عبد الكريم ابن الحسني من خلال رسائله : ملحق العلم الأسبوعي 12 يناير 1973– د. التازي : ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة، المحمدية 1976 ص 40 . إحسان عباس : الجانب السياسي من رحلة ابن العربي إلى المشرق، مجلة الأبحاث، بيروت 1963 .

ثانيـا – أن الخليفة العباسي الذي كان ذلك الوقت وهو الخليفة أحمد المستظهر بالله (4877-512 = 1094-1118 م) استجاب لهذا الطلب وسلم ابن العربي ووالده تقليده وعهده للأمير يوسف بن تاشفين موقعا عليه بعلامته "القاهر بالله".

ثالثا : نص خطاب الوزير العباسي أبي المنصور محمد بن جَهِير إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في هذا المعنى أيضا.

رابعـا : نص الاستفتاء الذي قدمه ابن العربي ووالده إلى أبي حامد الغزالي الطوسي (450-505 = 1058-1111) حول المشاكل التي تتعلق بشرعية حكم الأمير يوسف بن تاشفين.

خامسا : فتوى الامام الغزالي ...

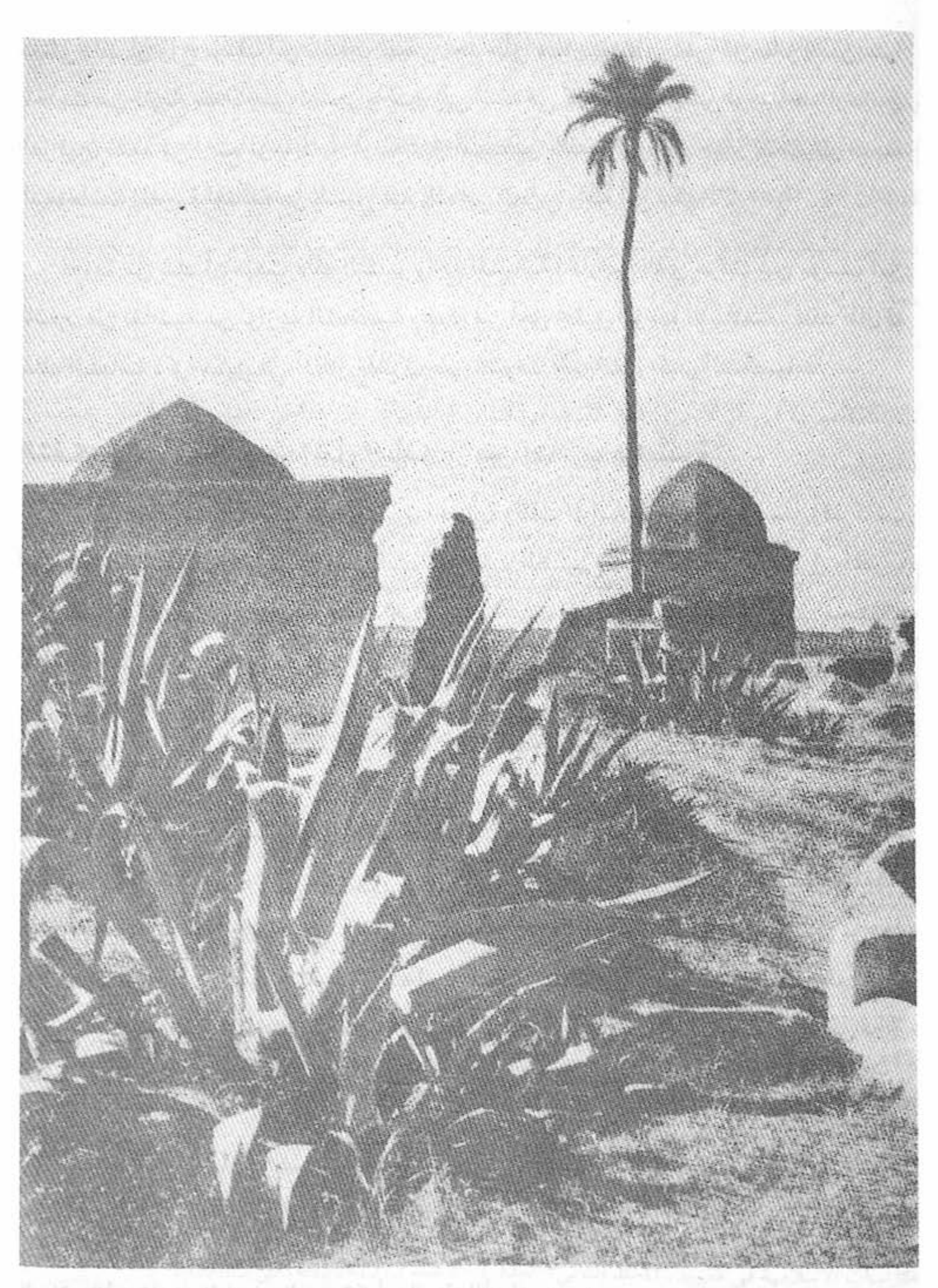
سادسا : نص الخطاب الذي بعث به الغزالي إلى يوسف ... وقد أشار فيه إلى الموقف العدائي الذي وقفه ملوك الطوائف في الأندلس تجاه يوسف بن تاشفين ورفضهم التعاون معه بحجة أنه ليس إماما من قريش أو نائبا عن إمام [1] ...

هذا ولقد حرصت أثناء سفارتي الإثنتين ببغداد وخاصة منهما السفارة الأولى، على تتبع خطوات سفارة ابن العربي وكان أثيرا عندي أن أسهم في إبراز الجانب الدبلوماسي من شخصية علامتنا النحرير،[2] ولكن كل ما وجدت عنه هناك كان مصدره من المغرب ! وليس هناك من خصوصيات تستأثر بها عاصمة الرشيد ... ! وإن الذي يعرف ما قام به التتار هناك من تخريب وتدمير سوف لا يستغرب ذلك الفراغ وقد شعر الرحالة المغربي بكارثة التتر عندما سمع خطيب الجمعة بالبصرة التي انتهت إليها رياسة النحو، سمعه يعبث بأبْسط قواعد النحو [3] إلا أن الملاحظ

(1) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 5ص 278 .

(2) لقد فتحت هذه الرغبة مني آفاقا للبحث تستهدف سائر ما يمس علاقتنا بالعراق وبلاد المشرق بل إلى سائر الأمم الأمر الذي قادني إلى عدد من الأرشيفات في مختلف جهات العالم وكانت نتيجته في النهاية تأليف : التاريخ الدبلوماسي للمغرب الذي يقع في خمسة عشر مجلداً ...

(3) رحلة ابن بطوطة تحقيق د. التازي نشر أكاديمية المملكة المغربية 417=1997 ج 2 ص 11.



رسم قديم لضريح أبي بكر ابن العربي بين باب الماكينة وباب المحروق

مع كل ذلك أن روح يوسف ابن تاشفين تهيمن بجد على سماء بغداد، وعلى كل سائر الذين عنوا بالحديث عن تاريخ بغداد حتى لتشعر بالحنين إلى اسمه في كل مجلس وحتى لوجد أحد الرسامين العراقيين متعه في وضع لوحة فنية طريفة تمثل المستظهر بالله ووزيره ابن جهير يستقبلان البعثة الدبلوماسية المغربية المتألفة من الشيخ عبد الله ابن العربي وابنه أبى بكر [1]

وما من شك أن مبعث ذلك التقدير راجع للسياسة الخارجية الذي عرفت عن يوسف ابن تاشفين من تغاضيه عن نوازعه الشخصية وعمله من أجل تحقيق الوحدة الإسلامية، فلقد طال له بتلك السياسة ذكر جميل في أقطار المشرق حتى تشوفت إليه أنظار كبار الشخصيات.

التفكير في توحيد مداخل الشهور بين المغرب والمشرق!

وقد استمرت العلاقات موصولةً بين الجهتين وظلت المراسلات متوالية لاسيما وقد كانت الظروف آنذاك تتطلب مثل هذه المشاورات، فإن الغزو الصليبي الذي كان يتهدد المشرق والمغرب على السواء كان جديرا بتوحيد وجهات النظر، وتضاعفت المراسلات عبر الشهور وفي مختلف المواضيع حتى لأثار "بعض" جوانبها انتباه العاهل المغربي ... كان هذا "الجانب" شكْليا ولكن له أكثر من دلالة، ذلك أن المكاتيب البغدادية كانت تحمل تاريخا يختلف عن التاريخ الذي تعتمد الديار المغربية.

وقد استشكل الأمير، فيما يبدو، ظهور الهلال ببغداد وعدم ظهوره هنا، ولم يبق الأمر عند حد التساؤل ولكنه تجاوزه إلى تكليف وزيره وكاتب ديوانه أبي القاسم ابن الجد باستشارة الفقهاء وأهل العلم حول هذا الإختلاف في أوائل الشهور، وهل له مبرر علمي معقول، وقام الوزير بما عهد به إليه فذاكر عددا من فقهاء المغرب، لكنه لم يجد جوابا شافيا يستطيع أن يرفعه إلى علم الأمير حتى تناهت إليه الأخبار ذات يوم وهو بمراكش سنة 510 بتوالي الغارات على شرق الأندلس فجاز الأمير إليها جوازه الثالث أواخر المحرم سنة 511 على ما أسلفنا...

(1) كانالرسام هو السيد صلاح جياد من كلية الفنون الجميلة وهو أصلا من مدينة البصرة (دعوة الحق-مارس 1969)... وقد كنت أثناء مهمتي السياسية بالعراق اتَّخذت من ذلك الرسم بطاقة تهنئة أبادل به التحية مع الزملاء والأصدقاء في المناسبات السعيدة كرأس السنة والأعياد...

وقد أراد أبو القاسم ابن الجد في هذه الأثناء، وقد سنحت الفرصة، أن يسمع الأمير عليا بن يوسف ملخص ما سمعه هو من العلماء، فدعا إلى جمع ضم أعيانهم وأعلامهم كان ممن حضره بإشبيلية أحد رجال الكمال والارتسام بمعرفة العلوم على تفاريعها وأنواعها : ملك بن وهيب ... وقد كان أمير المسلمين يصغي لأبي القاسم ابن الجد وهو يطرح الرأي أمام الفقهاء الذين كان فيهم جمع من إشبيلية وجمع من قرطبة إضافة إلى عدد من علماء المغرب قال لهم : "نجد تاريخ بغداد يسبق تاريخنا بيوم أو يومين"!

لقد أحببت أن أذكر هذه النازلة هنا لاستدل بها أولا على تعاقب المراسلات ... وثانيا على الرغبة الأميرية في أن لا يرى هذا الفرق في التاريخ القمري بين جناحي العالم الإسلامي سيما والخليفة واحد [1] !

ولقد كان في صدر الأجوبة التي وصلت العاهل المغربي عن بعض رسائله إلى الخليفة العباسي جواب يعطي فكرة عن موضوع الرسالة المرابطية إلى البلاط العباسي، التي تطلب التقليد من جهة، وتخبر -على العادة- بتحركات الجيش المغربي في الأندلس، وقيامه بالواجب في الدفاع عن حوزة الإسلام، وقد كانت الرسالة المشار إليها تحمل تاريخ 512 = 1118 على ما في كتاب الحلل الموشية [2]

ولا بد أن هذه الرسائل المرابطية، وتلك الرسائل العباسية كان يحملها سواء من ذلك الطرف إلى هذا، ومن هذا الجانب إلى ذلك أقوام ظلت أسماء معظمهم غير معروفة في التاريخ إذا ما استثنينا عتيقا بن عمران والقاضي وابن القاسم وابن العربي ...

---

(1) عبد الهادي التازي : نحو تاريخ هجري موحد، التمسك بالرؤية والتوسل لها بالعلم-مقاييس الأمس في حاجة إلى تطور...تعميم الرؤية في نصوص الفقهاء ونتائج الحساب، دعوة الحق، دجنبر 1866 ص 14-25 وعدد يناير 1967 ص 4-14 .

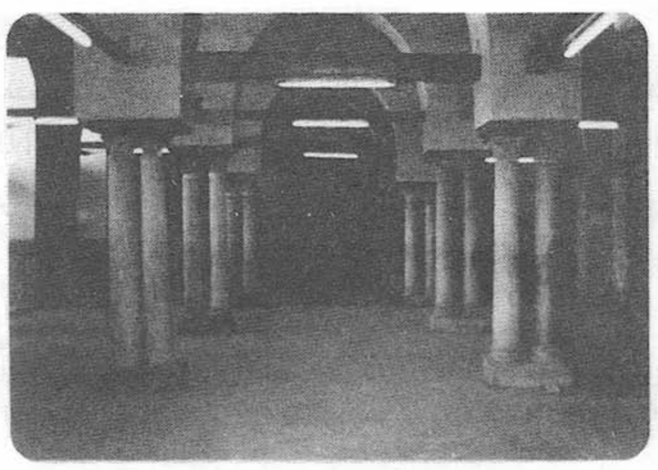
(2) يرى الدكتور حسين مؤنس أن هذه الرسالة كتبت في أول إمارة علي بن يوسف في أوائل المحرم عام 500=2 شتنبر 1106-الحلل الموشية ص72-73- مخطوط مكتبة سان لورنز بالإسكوريال : يحمل رقم 538 (مخطوطتان عربية) - حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد، المجلد الثاني، العدد 1 -2 سنة 1373=1954، ص 63-66 .

وقد وقفت في مخطوطة (ريحان الألباب) لابن خيرة على رسالة مرابطية وجهها الأمير علي بن يوسف بن تاشفين إلي المستظهر بالله العباسي كانت من إنشاء أبي القاسم ابن الجد وهو يجيب بها عن كتاب عباسي سابق، ويعلن تمسكه بعلائق الولاء، واضطلاعه بالدفاع عن الإسلام في منطقة نفوذه، وهي خالية من التاريخ كذلك [1] ...

العلاقات مع القاهرة الفاطمية

وبالرغم من أن المغاربة -من وجهة النظر المذهبية موالك، فقد سجلنا لهم بعض العلاقات مع الفاطميين، ويتعلق الأمر بالرسالة التي رفعت إلى الأفضل وزير المستعلي الفاطمي (تـ 495 = 1102) حول التوصية بحاج من كبراء وأعيان المرابطين، وهي خالية من التاريخ ... عثرنا عليها في مخطوطة لابن خيرة المواعيني، [2] وهذه بعض فقراتها :

"... ويتأدى كتابنا هذا إلى حضرته العزيزة عمَّر الله بالخيرات، ومدَّ في ساحات المسرات أطنابها، من يد فلان معظم شأننا، ومومل أحسابنا، وأحد كبراء أسرتنا، وأعيانها، وهو ممن برقت له في الخير بوارق، وسبقت منه في الغزو سوابق من حسن إلى حسن. ويجمع بين الغزو والحج في قرن..."



رواق المغاربة بالأزهر الشريف

(1) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج5 ص223-3=224 .

(2) المخطوط بالخزانة الحسنية تحمل اسم : ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب لأبي القاسم محمد بن ابراهيم ابن خيرة المواعيني الاشبيلي، وتحمل رقم 1406 ورقة 35 أب.

الفهرس

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الباب الثالث : دولة المرابطين

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع



د. عبد الهادي التازي

- ولد بمدينة فاس يوم الأربعاء 8 شوال 1339-15 يونيه 1921.
- أسهم منذ صغره في الحركة الوطنية فتعرض للنفي والاعتقال.
- تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بفاس، ونال شهادة العالمية من جامعة فاس (القَرويين) بدرجة متفوق جداً (1366-1947) وعين أستاذا بها ابتداءا من 1948/5/1.
- بروڤي فرنسي معهد الدراسات العليا المغربية الرباط (1953).
- انتقل من فاس للرباط بعد استرجاع استقلال المغرب للإشراف على القسم الثقافي بوزارة التربية الوطنية (أكتوبر 1957).
- طمح إلى الإنتساب لجامعة محمد الخامس (العصرية) فنال بها دبلوم الدراسات العليا بميزة حسن جدا (28 يبراير 1963). (أول شهادة دبلوم تمنحها الجامعة المذكورة في حياتها)
- شهادة في الانجليزية من معهد اللغات، بغداد (1966).
- أحرز على دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة الاسكندرية بمرتبة الشرف الأولى سنة 1971.
- نشر منذ صباه (رمضان 1354 دجنبر 1935) عدة مقالات (تفوق 700) عنوان، وترجم عن الفرنسية والانجليزية عددا من الدراسات والمقالات...
- ألف عشرات الكتب (انظر لائحة التآليف)
- مارس الأستاذية والمحاضرة في طائفة من المعاهد والمدارس العليا والكليات بمختلف الجهات، داخل المغرب وخارجه، حول الموضوعات ذات الصلة بتآليفه.
- عين مديرا للمعهد الجامعي للبحث العلمي عام 1974 إلى 1994
- اسهم في تأطير العدد الكبير من طلبة الجامعات المغربية وغيرها.

- عين سفيرا للمملكة المغربية 1963/5/13 لدى الجمهورية العراقية ثم لدى ليبيا (4 يونيو 1967) ثم لدى بغداد مرة ثانية (20 شتنبر 1968) حيث عهد إليه بالسفارة لدى الامارات العربية المتحدة مارس 1971 ثم عين سفيرا لدى الجمهورية الإيرانية الإسلامية (28 أبريل 1979)، ثم عين مكلفاً بمهمة بالديوان الملكي...
- شارك في عشرات المؤتمرات واللقاءات الدولية (ثقافية واجتماعية وسياسية) : منها مؤتمرات للقمة...
- الرئيس المؤسس لنادي الدبلوماسيين المغاربة 1990.
- رئيس المؤتمر العالمي السادس للأسماء الجغرافية (نيويورك)ابتداء من 1992.
- له إلى اليوم 1100 رحلة جوية ...في أكثر من 260 مهمة...
- عضو المجمع العلمي العراقي منذ (1966) ومجمع اللغة العربية بالقاهرة (1976) والمعهد العربي الأرجنتيني (1978) والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ومجمع اللغة العربية (الأردن) مارس 1980 وعضو اللجنة التأسيسية لأكاديمية المملكة المغربية ثم عضو بالأكاديمية (أبريل 1980)، عضو بمجمع اللغة العربية بدمشق 1986، عضو المجلس الاستشاري الدولي لمؤسسة التراث الإسلامي (لندن 1991) عضو المجمع العلمي المصري 1996.
- عضو في عدد آخر من الجمعيات والمؤسسات والمنتديات الإقليمية والدولية.
- وسام العرش (المغرب 1963) من درجة ضابط -الحمالة الكبرى للاستقلال (ليبيا (1968)، وسام الرافدين (العراق 1972) قلادة الكفاءة الفكرية من الدرجة الممتازة (المغرب 1976) - الميدالية الذهبية لأكاديمية المملكة نونبر 1982.

لائحة التآليف المطبوعة

1. تفسير سورة النور (1365-1946) مطبعة فضالة-المحمدية، 1405-1984.
2. آداب لأمية العرب، المطبعة الوطنية - الرباط 1953.
3. أحد عشر قرنا في جامعة القرويين (بالعربية والفرنسية والانجليزية) مطبعة فضالة - 1960.
4. أعراس فاس، مطبعة فضالة - المحمدية 1961.
5. تحقيق (تاريخ المنّ بالإمامة على المستضعفين ...) لابن صاحب الصَّلاة حول تاريخ الأندلس والمغرب على عهد الموحدين، طبعات، بيروت 1964، بغداد 1979، بيروت 1989.
6. جولة في تاريخ المغرب الدبلوماسي، مطبعة فضالة - المحمدية 1967.
7. تاريخ العلاقات المغربية الأمريكية (بالإنجليزية) مطبعة فضالة - المحمدية 1967.
8. لو أبصرتُ ثلاثة أيام، (ترجمة عن الإنجليزية) للكاتبة الأمريكية كيلير هيلين أدامز 1990-1970، دار الرفاعي للنشر والطباعة، الرياض (السعودية).
9. جامع القرويين المسجد الجامعة بمدينة فاس (ثلاث مجلدات) طبعة أولى بيروت 1972 - طبعة ثانية الرباط 2000.
10. ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة - المحمدية 1976.
11. قصر البديع بمراكش من عجائب الدنيا، مطبعة فضالة - المحمدية 1976.
12. في ظلال العقيدة، دار الثقافة، الدار البيضاء 1977-1397.
13. صقلية في مذكرات السفير ابن عثمان، مطبعة فضالة - المحمدية 1977.
14. التعليم في الدول العربية (مطبعة اليونسكو) (باريز) في ثلاث لغات 1977.
15. رسائل مخزَنية (القسم الأول) مطبعة أكدال - الرباط 1979.
16. العلاقات المغربية الإيرانية، مطبعة أكدال - الرباط 1979.
17. القنْص بالصَّقْر بين المشرق والمغرب، المطبعة العصرية - الرباط 1980.
18. الحماية الفرنسية بدْءها - نهايتها، مطبعة الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 1980.
19. أوقاف المغاربة في القدس، مطبعة فضالة - المحمدية 1981.

20. تحقيق (النصوص الظاهرة في إجلاء اليهود الفاجرة لابن أبي الرجال، نشر جامعة صنعاء 1980.

21. العلاقات التاريخية بين المغرب وعُمان، مطبعة سلطنة عمان، مسقط 1981.

22. دفاعاً عن الوحدة الترابية للمملكة المغربية، صاحب السمو الملكي ولي العهد سيدي محمد في أول مهمة سياسية بإفريقيا، طبعة أولى، مطبعة أكدال - الرباط 1982، طبعة ثانية، دار نشر المعرفة، الرباط 1999.

23. الرموز السرية في المراسلات المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1983.

24. تحقيق كتاب الفريد في تقييد الشريد لأبي القاسم الفجيجي، حول القنْص بالصُقْر، مطبعة النجاح، البيضاء 1983.

25. إيران بين الأمس واليوم، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء 1984.

26. الموجز في تاريخ العلاقات الدُّوَلية للمملكة المغربية (بالعربية والفرنسية والإنجليزية) مطبعة المعارف، الرباط 1985-1405.

27. المغراوي وفكره التربوي، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض (السعودية) 1986.

28. التاريخ الديبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، في اثني عشر مجلداً، مطبعة فضالة، المحمدية 1986-1406.

29. التاريخ الديبلوماسي للمغرب بالأشرطة المرسومة بالاشتراك مع بعض الأساتذة من فاس. رقم الإيداع القانوني 635.90.

30. المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي، نشر الفنَك بالدار البيضاء 1992=1413 بمساهمة مؤسسة فريدريش إيبيرت.

31. تحقيق المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف، لابن زيدان، مطبعة إيديال، الدار البيضاء 1993.

32. ابن ماجد والبرتغال، مطبعة رأس الخيمة الوطنية 1996.

33. تحقيق رحلة ابن بطوطة في خمس مجلدات، نشر أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1997-1417.

34. القدس والخليل في الرحلات المغربية، نشْر منظمة الإيسيسكو - الرباط 1997-1413.

35. طه حسين بالمغرب، نشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة 2000-1420.

36 تحقيق كتاب الطرثوت في خبر البرغوت، للسيوطي نشر مجمع اللغة العربية دمشق 2000.

37 الطب النبوي بين المشرق والمغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 2000-1420.

38 الوسيط في تاريخ العلاقات الدُّوَلية للمغرب في ثلاث مجلدات، دار نشر المعرفة، الرباط 2001-1402.

39 التحليق إلى البيت العتيق رحلة حجازية 1378 = 1959، طبع دارة الملك عبد العزيز- الرياض 2001-1402.

تآليف جاهزة للطبع

40 ملاحق التاريخ الدبلوماسي للمغرب (ثلاث مجلدات).

41 تحقيق (جَنَى الأزهار من روض الدواوين المعطار) لمؤلفٍ مجهول حول تطويق حركة الرق في المغرب ، بداية القرن الثامن عشر.

42 تحقيق (البذْر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر) رحلة سفارية لابن عثمان المكناسي أواخر القرن الثامن عشر.

43 مُعرَّباتي عن الفرنسية والانجليزية.

44 المعجم الجغرافي الموجز للمغرب.

45 لباب التوقيت في دروس عشر

46 مذكّراتي...